بُوريس يَلتسِن

إعترافات في مَواضيع مَطروحَة

ترجَمَة محمَّد هِلال



إعترافات
في مَواضيع مَطروحَة

الكتاب اعترافات في مواضيع مطروحة

التأليف بوريس يلتسين

الترجمة محمد هلال

الناشر دار الفارابي - بيروت - لبنان

ص.ب. ١١/٣١٨١ - ت: ٠١/٣٠٥٥٢٠

التنضيد شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل

الطبعة العربية الأولى ١٩٩١

مقدمة الطبعة العربية

١ ـ كان يمكن للمؤلف أن يسمي سيرة الأشهر القليلة التي يستعرضها: «صراعي من أجل الديمقراطية». ولعله كان يتمنى هذا العنوان لسيرة حياته ذاتها. ولكن قبل أن يترجم الكتاب إلى العربية كان مؤلفه، الذي أصبح يتمتع بكامل صلاحيات رئيس جمهورية روسيا الاتحادية، قد ألحق بنفسه مهمات رئيس وزراء الجمهورية وأضاف إليها صلاحيات استثنائية واسعة منحه إياها برلمانه بصورة برلمانية جداً.

هل تتناسب الحالة التي وصل إليها يلتسين بعد سنتين من الحكم مع الشعار الدائم لمعركته السابقة؟

اعتراضان أساسيان يقدمهما الكاتب على قيادة الحزب الشيوعي السوفياتي. الأول هو تآمر القيادة ضده، وضد كل معارضة، وقمعها له، والثاني هو مركزة الصلاحيات الحزبية والتنفيذية في شخص واحد هو السكرتير الأول للحزب كله أو للإقليم أو المدينة وهلم... وفي الحالتين وجد عوارض انزلاق خطير من الديمقراطية الفتية إلى الديكتاتورية.

ولكن... ها هو، بعد سنتين على هذا الكلام، يتخذ بنفسه قراراً بحل الحزب كله. وفوق ذلك يجمع في يديه كل سلطات جمهوريته تقريباً! هل من تفسير يتجاوز القول البسيط بأن الصراع من أجل الديمقراطية هو دائماً قضية المعارضة، وما أن تصل إلى السلطة حتى تدوس ماضيها وتَسقط الراية في أكف جديدة؟ مهما كان مستوى الواقعية التجريبية في هذا القول، وفيه ما يكفي من الوعي بقوة المصالح وضعف الكائن، إلا أنه لا يجيب على السؤال المحدد في الوضعية المحددة التي نحن بصدد تلمسها.

يلتسين المتمرد على الحزب، ثم الناقم على قيادته والشاهد على ممارساته السلبية، ثم المدعي العام ضده، ثم صاحب قرار ازاحته من الحياة السياسية... يلتسين هذا هو ابن هذا الحزب ووريث عقلية قيادته وممارستها. لا لأن الكثير من قراراته تبدو عليها بوضوح ردة الفعل ـ وهو الذي يصنف نفسه انفعالياً ـ ولكن لأن هدف القرار وطريقة اتخاذه وصيغة تنفيذه كلها محكومة بتلك الروح التي لا تذكر إلا بما كان يتمرد هو نفسه عليه: الإلغاء، تذويب الآخر فكراً وتنظيماً وممارسة ـ وهل تتفوق هذه الآلة على الستالينية إلا بالإبقاء على حق التكاثر البيولوجي؟ ليس القصد من هذا القول تهمة أو إدانة لشخص، مهما كان دوره. ولكن للإقرار بأن تلك الصيغة من الممارسة الحزبية لم تنتج إلا أدواراً متشابهة تارة في السلطة وطوراً في المعارضة أو في العالم الآخر: ستالين وتروتسكي، خروشوف وستالين، بريجنيف وخروشوف... وأخيراً يلتسين وخصومه، وكلاهما في موقعي السلطة والمعارضة معاً. وتلك رموز أكثر تعبيراً لأنها الأوسع انتشاراً ليس إلا.

لذلك لا عجب في هذا الاستنتاج العجيب: يلتبس هو الحزب في موقع النقيض. هو الذي يحاكِم وهو الذي يحاكَم في آن.

٢ ـ ولكن عندما كتبت هذه السيرة القصيرة لم يكن يراود صاحبها حلم بهذا القدر من السلطة! ولم يكن يطمح إلى تحولات بهذا القدر من الجذرية. لذلك لن نجد في الكتاب إلا المؤامرات التي تحيكها الأجهزة الحزبية وقيادات الحزب وبطولات إفشالها. وقد يكون هناك ما يبرر جزئياً هذا التناول للأحداث بالنسبة لكتاب سيرة مقتضبة. إلا أن الغائب الكبير عن هذه الصراعات وأهدافها هو الوطن والإنسان. ماذا يراد لهما؟ الصراعات المختلفة ضد السلطة تتخذ مضامين مختلفة. ومحاولة تجريد «الجهاز» و«أمثلة» الديمقراطية ليست بالضرورة محاولة إيجابية. هناك معيار للحكم، واقعي وتاريخي: ما هو البرنامج الموجِّه لهذا الصراع؟ وما هي احتمالات تبلور الأهداف البعيدة المدى في هكذا برنامج؟

هنا نجد المؤلف ينسحب من فراغ إلى فراغ. إذا كان الهدف هو الخلاص من قمع الجهاز الحزبي والإداري فما هو السبيل إلى ذلك؟ أهو إصلاح وتطهير أم تغيير جذري في السلطة؟ وفي الحالتين لا بد من العودة إلى نقطة الانطلاق: من أجل ماذا وبأية وسائل؟

هناك وجوه عديدة للاتفاق مع الكاتب. فالثغرات التي حملتها البيريسترويكا، بوصفها علاجاً، كانت عديدة وخطيرة. المراوحة في الإصلاح كانت قاتلة للاقتصاد والادارة. و«الحملات» الديمقراطية الاعلامية كانت أقرب إلى شكلية غوغائية منها إلى التنظيم العميق لأسس المجتمع عن طريق الديمقراطية ومن أجل تعزيزها، فالصورة

الـديمقراطيـة الفوقيـة لم ترتكـز إلى ثبـات الـدعم في قلب المجتمـع ومؤسساته وآليات الفعل الاقتصادي والسياسي... كل هذا صـحيـح. ولكن هل يكفي أن ينتزع يلتسين مشروعيته السياسية ـ كما يطالب في كتابه ـ لكي تنكشف حلول هذه المعضلات من تلقاء ذاتها؟

من الظلم طبعاً أن نجرد الكاتب من أي تصور برنامجي وتقليص رقعة نشاطه السياسي إلى خانة الصراع مع الأجهزة وحـدها. فهـذا الصراع لم يكن ليحصـل أصلاً لـولا خلاف عـلى المفاهيم. هـذا إذا استبعـدنا فكـرة أن كل الصراع هـو من أجـل السلطـة، وهـو مـا استبعده فعلاً، رغم أن بعض مقاطع الكتاب توحي بما يشبه ذلك في اللاوعي على الأقل، (أنظر صفحة ٥٣ ـ ٥٥ حول صيـغ الترقيـات والمقارنات التي يعقدها، ناهيك عن الخيط الذي يخترق روح الكتـاب كله: غورباتشوف ـ يلتسين). والصراع على المفـاهيم ينقلب في هذه السيرة دائماً إلى مواجهات حاسمة. كأنما مـوازين القوى لا تتكـون إلا فجـأة في لحظـة الاحتـدام النهـائي خـارج التـراكم البطيء في الوعي. أو كأنما هي قائمة منذ زمن بعيد في المجتمع ولكنها مكبوتـة وممنوعة من التبلـور، فما أن يبـرز «البطل ـ الفـادي» حتى تنتهك قشرتها الواقية وتصرخ في وجه التاريخ: هاك المسار الجديد.

لذلك يخبو انعكاس الفعل الاجتماعي الكـامن والملتبس وتتضـخم البطولة الـدراماتيكيـة الواضحـة في وعي المؤلف. فالمنعطفات عنده تحـوِّل الناس جميعـاً إلى كائنـات أسطـوريـة، دفعـة واحـدة ودون مقدمات: متآمرين وضحايا ـ الثنائية المانويـة ذاتها محمـولة فـوق التاريخ إلى الاجتماع السياسي.

٣ ـ مع ذلك، ظاهرة يلتسين مألوفة في التكرار، وجديرة بالتحليل الملموس. فهذا الخارج من صفوف الحزب العليا يحشد في سنوات قليلة قوة تطيح بإحدى أرسخ البنى السياسية في العصر الحديث.

لقد وصلت أزمة المجتمع والسلطة قبل اليريسترويكا مرحلة التعفن النهائي. والحل الذي قدمته سلطة اليريسترويكا كان حلاً ناقصاً كشف الأزمة ولم يجرؤ على علاجها. وإذا بيلتسين يخرج من صفوف السلطة ليقول: لا! لم يعد القديم محتملاً وها هو الاصلاح يتعثر ويتحول إلى مهادنة مدروسة مع هذا القديم، وإن تكن مهادنة متوترة ونقدية. المطلوب إزاحة كابوس الماضي بكل رموزه الحية! ومن الطبيعي، بعد تأزم الحل المقترح من قبل اليريسترويكا، أن يتحول الناس إلى بديل آخر. لم تتجاوز اليريسترويكا نفسها في العمق لتتقدم مقنعة في أي ميدان منذ سنة ١٩٨٥، إلا في ميدان تعديلات الوزارات وأعضاء قيادة الحزب. ولم تقدم إنجازاً عملياً كبيراً إلا المكاشفة، وهي مهمة جداً، لكنها سريعة التحول ضد مطلقيها إذا اكتفوا بها. فكشف النواقص يجب أن يؤدي إلى تحسين شروط المجتمع وإلا فسلاح الديمقراطية والمعرفة لا بد أن ينتقل إلى الكشف عن أسباب المعيقات الجديدة. هكذا سقطت اليريسترويكا في أسر السجين الذي أطلقته: الوعي. فهل يقدم يلتسين لهذا الوعي ما يجعله حليفاً ثابتاً أم يتوقف به في حالة الرفض السلبي للقديم، وعندئذ يسقط هو نفسه ضحية مراوحة جديدة وعجز جديد؟

من هنا أهمية هذا الفراغ الذي يحسه القارىء بعد أن يستلقي برأسه قليلاً لاستخلاص عبرة الكتاب: غياب الهدف الكبير الذي يفرض المنعطف ضرورة صياغته.

٤ ـ قد يعلق قارىء أن في هذا القول تجنٍّ واستباق لزمن الكتابة، فما كان مطلوباً سنة ١٩٨٩ ـ زمن ولادة الكتاب ـ لم يعد هو نفسه اليوم. هذا صحيح في التفاصيل. أما الجوهر فله جواب آخر رغم أن الصراع على مضامين التجديد كان يتغير ويتجذر مع كل حالة جديدة. والجوهر هو أن كل مرحلة، مهما كانت قصيرة، تستوجب رؤى للمستقبل. وفي حالة الاتحاد السوفياتي يستحيل على القائد السياسي إلا أن يمتلك أفقاً حقيقياً للرؤيا، على غموضه... فكيف إذا كان يلحق كل رؤاه المستقبلية، المتنوعة حكماً، بمسألة واحدة هي نجاحه أم خسارته في ساحة الصراع المباشر على المشروعية السياسية ـ ولا أقول السلطة لأنها لم تكن هي الهدف آنذاك.

يشير يلتسين إلى أنه قدم مرات عديدة إلى قيادة الحزب برنامجه الاصلاحي. ولكنه في الكتاب لا يتوقف عنده إلا عرضاً وبسرعة. فإلى جانب مطالبته بحق المعارضة الحزبية والسياسية عموماً في التبلور والتكتل ـ ويقدم سيرته كرمز للنضال من أجل هذا الحق ـ لا نلقى إلا تعابير متفرقة وضعيفة في موضوعات هامة مثل الاقتصاد أو السياسة الدولية أو الخيارات الاجتماعية الكبيرة. وفي تقييمه العام للنظام يعتبر يلتسين أن الاتحاد السوفياتي لم يطبق من الاشتراكية إلا الملكية الجماعية وذلك بطريقة قسرية. ومثل هذا التقييم لن يؤدي إلا إلى نتائج متسرعة بسبب أن اعتبار شكل الملكية القائمة في الاتحاد السوفياتي شكلاً للملكية الجماعية ـ ولو قسرياً ـ وبالتالي مكوِّناً فعلياً من مكونات الاشتراكية سيقودنا إلى اعتبار أزمة هذه الملكية هي أزمة الاشتراكية وبالتالي فإلغاء الأولى يستتبع

إلغاء الثانية. وهو ما وصل إليه يلتسين فيما بعد، عندما تخلى في الحقيقة عن الخيار الاشتراكي دون إعلان.

وبدل أن يجري البحث في نطاق اشاعة شكل من الملكية يخدم تطور المجتمع في أفق اشتراكي انساني منفتح تركّز الخلاف في معادلة مغلوطة هي: الملكية السائدة للدولة تساوي الاشتراكية. وبالتالي فمن أجل التخلي عن ملكية الدولة يجب النضال ضد الاشتراكية التي تفرض هذه الملكية. أما ماذا تعني ملكية الدولة؟ ومن تخدم وكيف توزع ثمارها؟ ثم ما هي قوانينها؟ فهذه أسئلة يجري إقصاؤها منذ البداية، أي منذ أن تطرح المعادلة الخاطئة بالأساس.

وعندما يتطرق إلى الاقتصاد يقدم يلتسين برنامجاً مكوناً من نقطة واحدة: الروبل (وحدة العملة السوڤياتية). ولكنه يُغنيه بفكرة إضافية هي: الروبل المكتسب من عرق العمل. بمعنى أنه يريد ابدال النظام الأوامري في الإدارة والاقتصاد بسلطة المال المكتسب بصورة مشروعة. أما كيف سيحدث هذا الانتقال وماذا يعني للاتحاد السوڤياتي وما هي مضاعفاته على الاقتصاد وعلى الناس وفي أي أطر يمكن أن يتحقق. ثم ما هو معيار المشروعية ومن يتحكم بتحديده ومراقبته؟ فهذه أسئلة تظل، هي الأخرى، خارج مرمى التسديد. التطورات اللاحقة كشفت الاستهداف الأبعد لمشروع يلتسين الاقتصادي، الرأسمالي بجوهره، وإن تكن أظهرت، بالمقابل، الصعوبات الكبرى أمام تحقيقه داخلياً، وعلى مستوى السوق العالمية وتوازنات المراكز الرأسمالية المتقدمة.

ويبدو من الكتاب أن السياسة الدولية وموقع الاتحاد السوڤياتي

في العالم لا تجذب المؤلف كثيراً ولا تخضع لمنطق أولوياته في الصراع مع الأجهزة. مع العلم أن كل القوة الإيديولوجية والأمنية لهذه الأجهزة ـ في الحزب والدولة ـ كانت تستمد مبرراتها من الخارج، أي من الصراع ضد الخطر الخارجي الذي تمثله الامبريالية أو ما تزعمه كذلك، لمزيد من التشكيك. فكيف استطاع المؤلف أن يمر صامتاً على هذه المسألة، من دون أن يقدم لشعبه، وناخبيه على الأقل، تصوره لمستقبل الاتحاد السوفياتي في العالم وللعالم نفسه؟

إن نظرة ارتجاعية سريعة تكفي للاقتناع بأن نجاح يلتسين السريع يعود إلى فشل خصومه أكثر مما يعود إلى الموافقة الشعبية على برنامجه. ووهج صورته لا يتألق إلا بأفول الآخرين. وإذا كانت هذه الحقيقة لا تشفع له كثيراً فإنها تدين خصومه بقوة.

٥ ـ قيل كلام كثير عن علاقة يلتسين بغورباتشوف. كيف بدأت وكيف تحولت، ماذا تحكم بولادتها وماذا يحكمها الآن. ويسرد الكاتب حوادث ومفاصل عديدة خضعت لها علاقة الرجلين. التقييم المباشر والصريح الذي يقدمه يلتسين لرئيس الدولة السوفياتية يمكن تلخيصه بما يلي: إن غورباتشوف، هو محاولة إصلاح أجهضت نفسها وحركتها بالمواقف الوسطية والتردد والميل إلى الرفاهية وحب السلطة. ويضيف بأن غورباتشوف كان قادراً على الكسر مع المحافظين إلا أنه لم يكسر، وكان قادراً على إلغاء امتيازات «النومنكلاتورا» إلا أنه فضّل التمتع بها.

وإذا تجاوزنا الكلام الصريح وواجهنا حقائق الواقع وتوازناته فلا

مفر من الاعتراف بأن الرجلين كانا ضرورة لبعضهما البعض. ولكنها إحدى الضرورات المتناقضة المشدودة دائماً إلى عتبة القطع التي لا تتخطاها. من جانب يلتسين هذه الضرورة حيوية من أجل البقاء نفسه وليس فقط من أجل الحق بالمعارضة. ومن جانب غورباتشوف يلتسين حالة ضرورية لمواجهة معارضيه في الحزب والأجهزة وللبقاء على رأسها في آن معاً. فخيار غورباتشوف، آنذاك، كان خيار جذب الحزب و«الدولة» إلى صفه، لا خيار الكسر معهما أو كسرهما. ويلتسين كان يقدم له مبرر البقاء في هذا الموقع. ومع ذلك يبدو أن «ظل» غورباتشوف لا يفارق مخيلة يلتسين في أي موقف أو قرار ليس فقط بوصفه المرجع الأعلى في السلطة بل كشخص من لحم ودم. وهنا نجد حالة شبيهة بالعلاقة مع «الرموز» التي يجري التماثل بها ولكن لا تُبلغ الغاية منها إلا بتحطيمها.

٦ ـ تبقى نقطة أخيرة. يواجه يلتسين نفسه في هذه السيرة بنسبة عالية من الواقعية. يعرف نقاط القوة والضعف في شخصيته ويحاول أن يكتب بموضوعيةِ المراقب عن تصرفاته. يدرس الاحتمالات والتوقعات إرتجاعياً ويحكم، بعد مرور الوقت، على صحة أو خطأ الموقف، وماذا كان يمكن أن تكون عليه الأمور لو أن ما حدث لم يحدث مثلاً، أو العكس. ومع ذلك يبقى سؤال كبير لم يجب عليه إجابة مقنعة ولا يبدو أنه بحث إلا عن سبب يرضيه: لماذا تعرض إلى هذا القدر من «الخيانات» من جانب أصدقاء أو رفاق عمل معهم بصورة وثيقة؟ حتى أولئك الذين انتقاهم بنفسه للعمل معاً كانوا يتبرأون منه ويقاتلون ضده عندما تبتعد السلطة عنه. السبب الأكيد لمثل هذه الارتكابات ـ برأيه ـ هو ضغط الأجهزة

وضعف النفوس تحت وطأة الخوف والإغراء. ولكن، إذا وضعنا آليات الضغط في موضعها النفسي والسياسي المحدد ألا يبرز عندئذ سؤال: أين هي الممالأة الحقيقية للسلطة؟ ألم تكن في البداية تودداً زائفاً «للشخص» في السلطة وتحولت إلى انفكاك «زائف» عنه عندما غادرته؟ أين تكمن إذاً علاقات الخوف والإغراء؟ دون شك كانت في الحالتين. وفقط عندما يعطِّل التقييم نظرياً فعل هذه الآلية، بوجهيها السلبي والإيجابي ينكشف واقع العلاقات الإنسانية والحزبية عارياً، محايداً، ويصبح من الممكن أن يطلق المرء على نفسه حكماً عادلاً بالخطأ والصواب.

د. سناء أبو شقرا

كلمة من المؤلف

خلال العامين الأخيرين تلقيت عـروضاً كثـيرة من عدة دور للنشر كي أضع كتاباً عن حياتي، ولكنني كنت أقابلها دائماً بالرفض. وكنت أرفض لأنني لم أكن أعتقد أنه سيتوفر لدي لا الوقت ولا الإمكـانية حتى أتصدَّى لهذا العمل الكبير.. فضلاً عن أنني اعتبرت أن الوقت لم يحن بعد لذلك.

واستمـرت الحياة في البـلاد، فحملت أشهرٌ وأسـابيـعُ أحـداثـاً دراماـتيكية عـاصفة، لم تكن تحـدث في السابق إلَّا في مـدى عقـود كاملة. لقد تغيَّرنا. لقد ودَّعنا العصر الذي أود أن أؤمن بأنه لن يعود أبداً.

وأدركت في لحظة معينة أن تسجيل ذكريـاتي قد يكـون ذا قيمة، فتراجعت أمام الطلبـات الملحَّة ووافقت عـلى الكتابـة عن نفسي وعن الفترة المنصرمة التي عشت أحداثها.

أود أن أشير هنا إلى أن كتابة هذا العمل تمت، بصـورة رئيسية، أيام الآحاد وفي الليالي. ولا أعتقد أنـه كان سيقـدر له الصـدور لولا

المساعدة التي أسداها الشاب اللامع ڤالنتين يوماشيف، الذي طالما اضطر إلى تعديل إيقاعه وضبطه على وقتي ووتيرتي.

ولا يفوتني أن أقدِّر المساعدة المخلصة والتعاون القلبي اللذين لقيتهما من جانب ڤالنتينا لا نتسيڤا وليف سوخانوف وتاتيانا پوشكينا، وبالطبع عائلتي.

وأتقدم بالعرفان إلى ليديا ألكسييڤنا مورانوڤا، التي بذلت جهدها لتنظيم ممارستي رياضة التنس، ممَّا ساعدني على البقاء دائماً في أحسن حال.

شكراً لهم جميعاً.
وشكراً للقدر على أنهم كانوا بجانبي.

يوميات الانتخابات

٢٥ آذار (مارس) ١٩٨٩

بدا أنه ليس ثمة شكوك. غداً تجري انتخابات مندوبي الشعب. وفي دائرة موسكو الانتخابية الأولى، حيث ترشحت و يو. بوراكوف، ينبغي لأغلبية أصوات الموسكوفيين الساحقة (وعددهم ستة ملايين ناخب) أن تصب لصالحي حتى أصبح مندوباً. هذا ما تتوقعه أوساط الرأي العام الرسمية وغير الرسمية (وهو أيضاً ما أسفرت عنه استقصاءات الأميركيين)، فضلاً عما يشير إليه مناخ الحملة الانتخابية وما يُحَدِّثني عنه، ببساطة، حدسي: غداً، سيكون كل شيء على ما يرام.

ولكن النوم ولسبب ما يجافيني. ومرة أخرى أقلِّب كل الأوضاع التي عانيتها في الأشهر والأسابيع والأيام الأخيرة. وأحاول أن أعثر على مكامن الأخطاء التي ارتكبتها وأين قمت بالعمل الصحيح. وبالتأكيد كانت هناك أخطاء، إلا أنني أشكر العبر المستخلصة منها لأنها منحتني الزخم ودفعتني إلى العمل بطاقة مضاعفة.

وبشكل عام، فإن هذا من صفات شخصيتي. ولا أعرف إن كان من الحسن أو من السيء أنني أتجاوز النجاح أثناء تحليلي الأوضاع،

وأتوقف عند النواقص والأخطاء. ولعل هذا هو مرد الشعور الدائم بعدم الرضا، بل عدم الرضا بنسبة ٩٠ بالمئة!

غداً يوم الحساب النهائي، غداً تصدر حصيلة سنة ونصف من حياتي. منفي سياسي، حامل ألقاب حزبية طنانة مع كلمة «سابق». سكرتير اللجنة المركزية السابق في الحزب الشيوعي السوفياتي، السكرتير الأول السابق لمنظمة مدينة موسكو الحزبية، عضو مرشح سابق للمكتب السياسي... كل ذلك كان.. سابقاً. أيام ستالين كانوا يعدمون رجال السياسة السابقين، أما خروتشوف فقد كان يحيلهم على التقاعد، وفي عهد الركود البريجنيفي كانوا يرسلونهم سفراء إلى بلاد بعيدة. وجاءت البيريسترويكا لتخطَّ جديدها، فسمحت للمعزول أن يشق طريق العودة إلى الحياة السياسية.

وعندما تلقيت مخابرة من غورباتشوف ـ وأنا المجرَّد من كل المناصب ـ مقترحاً علي منصب وزير البناء لعموم الاتحاد السوفياتي، وافقت في لحظة كان الأمر فيها عندي سيان أنّى أتوجه. وفي نهاية الحوار قال: «ولكن ليكن في اعتبارك، لن أسمح لك بالعمل في السياسة!». آنئذٍ، كان يصدق على ما يبدو ما قاله، إلا أنه أسقط من حسبانه أنه هو نفسه خلق آلية العمليات الديموقراطية وأطلقها، حيث لم تعد كلمة الأمين العام كلمة الديكتاتور، التي سرعان ما تتحول إلى قانون يفرض على كل الإمبراطورية. أما الآن فالأمين العام يقول: «لن أسمح لك بالعمل في السياسة»، والناس سيفكرون.. سيفكرون ومن ثم سيقررون: لا، يجب السماح... وسيسمحون! لقد تغيّرت الأزمان...

وكم من جديد ستحمله لنا الأيام! في هذا تكمن روعة الأوقات الراهنة، ولكن فيه تكمن أيضاً المصيبة. فما من أحد يعرف ما

ستكون عليه الأوضاع، وإلى أين ستقودنا غداً الخطوة التي مشيناها؟ إن النظام البيروقراطي ـ الحزبي الهائل، الأخرق والغبي، يرتكب أعمالاً غير متزنة ويحاول حماية نفسه، غير أنه يحقق بذلك انتحاره على نحو أسرع.

فقد وضع هذا الجهاز نصب عينيه مهمة محدَّدة، ليست معقدة كثيراً، تتلخص بإسقاطي في الانتخابات على نحو ما، ولكنها لحسن الحظ غير قابلة للتنفيذ. فالقضية ليست قضية «لكل مواطن شقة في سنة ٢٠٠٠»، وليست من نوع إشباع البلاد في «الخطة الخمسية الراهنة». إنها، أي القضية، تتلخص في تصفية الحساب مع شخص واحد!... فضلاً عن التسلح بقانون انتخابي «مذهل» إن هو إلا وليد للبيروقراطية، يُضاف إليه جهاز إعلامي مأمون الجانب، طيع، ضخم، لا يتوانى عن الكتابة والكلام بما يرضي! ورغم كل ذلك ـ رغم كل ما في أيديهم ـ فقد فشلوا في تحقيق حتى هذه المهمة. وبرغم كل التدابير التي اتخذت ضدي خلال الأشهر الأخيرة ـ من تزييف للوقائع وكذب وقرارات دورة اللجنة المركزية، إلخ... ـ كان الدعم الذي محّضني إياه المواطنون يتعاظم أكثر فأكثر.

وعندما ارتكبت ضدي آخر حماقة ـ وقد جرَّت علي تعاطفاً كبيراً من جانب الموسكوفيين ـ أدركت بوضوح إلى أي هاوية عميقة انزلقنا وكيف سيكون صعباً علينا الخروج منها.

فهذا الجهاز الحزبي نفسه وهؤلاء الأشخاص أنفسهم يزمعون إحداث التحوُّلات على طريقي البيريسترويكا والغلاسنوست(*)،

(*) تعني البيريسترويكا إعادة البناء، والغلاسنوست تعني الانفتاح الإعلامي أو المكاشفة، وقد أسماها بعضهم الشفافية ـ (المترجم).

وهم غير مستعدين للتنازل عن هذا الحق لأحد آخر. وفي مثل هذه الهنيهات يقف المرء عاجزاً.

ولكن كان الأمر جيداً، إذ كنت ألتقي ناخبي كل يوم أثناء الحملة، ومنهم أستمد الطاقة والإيمان والثقة الجديدة بالنفس، ومعاهدتهم على أننا لن نعيش مطلقاً على النحو الذي عشنا عليه في السابق، فقد ولّى عصر العبودية المعنوية.

حسناً، جيد. ولكن، ماذا لو خسرت غداً؟ ماذا سيعني ذلك؟ هل سيعني أن الجهاز أقوى وأن الظلم قد انتصر؟ لا، ليس الأمر كذلك؛ وببساطة أنا إنسان وعندي نقائصي، شخصيتي معقدة وعنيد. فقد انحرفت وارتكبت أخطاء، وقد يكون من الممكن تماماً ألا أنجح في الانتخابات. ولكن حتى إذا كانوا سينتخبون براكوف الذي يحظى بدعم الجهاز وتأييده، فسيكون من الوهم العميق في أي حال أن يتصور المرء أنه يمكن أن يصبح ألعوبة في يد من دعمه وتحت إرادته. فسواء كنت أنا أو هو، أو أي شخص آخر، في موقع النيابة يمكن أن يضطلع بدور مندوب الشعب إذا أصغى لصوت الشعب لا لصوت الجهاز.

لو كان بالإمكان إعادة شهر تشرين أول (أوكتوبر) ١٩٨٧، كيف كنت تصرفت؟

بوريس نيقولايفيتش! هل كانت كلمتك في دورة اللجنة المركزية المكرسة لذكرى مرور سبعين عاماً على ثورة أكتوبر تعبر عن موقف يائس، أم إنك أَمِلْتَ بدعم من أحد أعضاء المكتب السياسي؟

(من الأسئلة التي وجهها الموسكوفيون أثناء اللقاءات والاجتماعات الانتخابية)

انتهى اجتماع المكتب السياسي. عدت إلى مكتبي وأخذت ورقة بيضاء. فكرت مجدّداً وأعدت الحساب، ثم بدأت بالكتابة:

«ميخائيل سرغييفيتش (غورباتشوف) المحترم!

استغرقني قرارُ كتابة هذه الرسالة وقتاً طويلاً وصعباً قبل المباشرة بها. فقد مضى عام وتسعة أشهر إثر اقتراحكم والمكتب السياسي وموافقتي على ترؤُّس منظمة موسكو الحزبية. بالطبع لم يكن ثمة أي أهمية لدوافع الموافقة أو الرفض. فقد كنت أدرك أن المهمة صعبة جداً، وأنه بالإضافة إلى الخبرة التي راكمتها ينبغي بذل المزيد من الوقت في العمل.

ولم يكن كل ذلك ليزعجني. لقد كنت أشعر بدعمكم حين وجدت مناخ العمل تملأني الثقة بالنفس. وبكل إخلاص ومبدئية وبروح التعاون والرفاقية أقمت علاقات العمل مع أعضاء المكتب الجديد.

ومرت المراحل الأولى، وبالطبع فإن ما أُنجز كان قليلاً جداً. ولكن الأمر الرئيسي، على ما أظن، ودون ذكر أمر آخر، أن ما تغيّر كان روح أكثرية الموسكوفيين ومزاجهم، أضف إلى ذلك بالطبع التأثير الذي تركه التغير في مجمل الوضع في البلاد. ولكن، مع ذلك، كان عدم الرضا يتعاظم عندي باستمرار.

وبتُّ ألاحظ في ممارسات بعض رجالات القيادة العليا وأقوالهم ما لم ألاحظه في الماضي. وتحول دعم بعض أعضاء المكتب السياسي

وأمناء اللجنة المركزيـة إلى لامبالاة من جـانبهم بالشؤون المـوسكوفيـة وبرودة تجاهي.

وبشكـل عـام، فقـد حـاولت دائـماً أن أعـبر عن وجهــة نـظري وأشرحها حتى ولو كانت غير متطابقة مـع آراء الآخرين، الأمـر الذي خلق أكثر فأكثر أوضاعاً غير مـرغوب بهـا. وإذا توخيت الـدقة لقلت إنني لم أكن مستعداً للعمل ضمن تركيبة المكتب السياسي، آخذاً بعين الاعتبار أسلوبي واستقامتي ومجمل سيرة حياتي.

كما إني لا أستطيع إلا أن أشير إلى بعض المسائل ـ المبدئية بمـا فيه الكفـاية ـ وقـد كتبت إليك عن بعضهـا، وخصـوصـاً تلك المتعلقـة بالكوادر. وهاك بعضاً إضافياً:

في مـا يتعلق بـأسلوب عمـل ي.ك. ليغـاتشيف. رأيي في هــذا الصدد (بل ورأي الآخرين)(*) هو التـالي: إنه (أي الأسلـوب)(*) لا يصلح البتة، وخصوصاً في الوقت الـراهن (لا أريد أن أغبـطه سماتـه الإيجـابيـة). وأسلوب عمله هـذا ينعكس عـلى أسلوب عمـل أمـانـة اللجنة المركزية، فضلاً عن أن بعض أمناء اللجان «الجانبية» ينسخونه دون النـظر فيـه. ولكن الأمـر الـرئيسي أن الحـزب بمجمله يخسر. «تفسير» كل ذلك هو التالي: سينزل الضرر بـالحزب (إذا أُريـدَ القول بلغة العامة). باستطاعتكم أنتم شخصياً تغيير شيء ما لما فيه مصلحة الحزب.

لقد أضحت منظمات الحـزب متخلفة عن كـل الأحداث الهـائلة. ليس هنا عملياً ثمة بيريسترويكا (إلا إذا استثنينـا السياسـة الشاملة). ومن هنـا تنـطلق سلسلة كـاملة. والنتيجـة: نعجب لمـاذا تتعـرقـل

(*) الاستدراكان من يلتسين ـ (المترجم).

البيريسترويكا في المنظمات الأولية (القاعدية).

لقد جرى التفكير بها وصوغها بأسلوب ثوري، أما تحقيقها في الحزب تحديداً فلا يجري إلا من المنطلق السابق إياه، الضيق، البيروقراطي، السخيف، ذي المظهر الخارجي الطنان. ههنا تحديداً يبدأ الانقطاع بين القول الثوري وبين الفعل البعيد عن المقاربة السياسية في الحزب.

غزارة أوراق (إحْصِ كل يوم البندورة والشاي والقاطرات. . . ; ولكن لن يكون هناك قفزة أو تقدم حقيقي) واجتماعات تتمحور حول مسائل صغيرة ونكايات واختلاقات. . جملة القول قضايا تطرح لمجرد إثبات «الهيبة» وفرضها.

وأنا لا أتكلم في هذا المقام على أي محاولات انتقادية من تحت. ما يقلقني كثيراً أنهم في القاعدة يفكرون هكذا، ولكنهم يخافون الإعراب عن آرائهم. وفي اعتقادي أن هذا أخطر ما يمكن أن يمنى به الحزب. وبالنسبة إلي، فإن إيغور كوزميتش (ليغاتشيف) وبوجه عام تنقصه الثقافة ويعوزه النظام (الأسلوب) في العمل. ذلك أن الاستماع إلى استشهاده الدائم بـ «التجربة التومسكية»(*) لم يعد بالأمر الممتع.

أما في يتعلق بي، فإن التهجُّم علي من جانب المكتب السياسي في اجتماعه المنعقد في ١٠ أيلول (سبتمبر)، إثر انعقاد دورة اللجنة المركزية في شهر حزيران (يونية)، لا أستطيع أن أعتبره إلا مطاردة منسَّقة. وإن قرار اللجنة التنفيذية بصدد التظاهرات مسألة تخصُّ المدينة (موسكو). وقد حُلَّت على نحو خاطىء. وليس مفهوماً عندي

(*) نسبة إلى مدينة «تومْسْك».

دور اللجنة التي أُلِّفت، لذا فإنني أرجوكم تصحيح الوضع الناشيء(*). وينتج أنه - أي ليغاتشيف - لا يضبط الموجة في الحزب، بل يشوِّش على الآلية الحزبية ويعطِّلها. لا أجدني راغباً في الكلام على علاقته بالشؤون الموسكوفية. وما يُثير العجب كيف يمكن ألاَّ يلقي بالاً، ولو مرة واحدة خلال عامين، إلى ما يتعلق بشؤون منظمة حزبية يتجاوز عدد أعضائها المليون. إن اللجان الحزبية تفقد استقلاليتها (فيما تمنح الاستقلالية للكولخوزات والمؤسسات).

لقد كنت دائماً من أنصار المطالبة والسؤال الحازم، ولكني لست مع الخوف الذي يروع الآن عمل اللجان الحزبية وأمنائها. إذ ليس هناك أي مبدئية أو وحدة حال رفاقية حزبية بين جهاز اللجنة المركزية وبين اللجان الحزبية (وأعتقد أن مسؤولية ذلك تقع على عاتق الرفيق إي. ك. ليغاتشيف)، ليس بين هذه وتلك ما يمكن أن يولِّد الرفاقية والثقة بل الإخلاص في العمل. ههنا، برأيي، تتجلَّى «آلية الكبح» الحزبية. يجب تقليص الجهاز كثيراً (حتى الخمسين بالمائة) وتغيير بنيته تغييراً حازماً. وإن لدى لجان المناطق الموسكوفية خبرة في ذلك، وإن كانت هذه الخبرة ضئيلة.

ومما يسبب لي شخصياً القهر وضع بعض الرفاق في المكتب السياسي. فهم أكثر ذكاء، ولأنهم كذلك فسرعان ما «أعادوا بناء أنفسهم»(*). ولكن، هل يمكن الوثوق بهم حتى النهاية؟ إنهم مُلائمون، وأستمحيك العذر، ميخائيل سرغييفيتش، ولكن يتهيأ لي

(*) سأوضح للقراء علام يدور الكلام في الرسالة. فقد أنشأ ليغاتشيف لجنة أمانة اللجنة المركزية لتصحيح الأمور في موسكو، ولم يكن هناك لا مبرر ملموس ولا سبب للقيام بهذه الخطوة - (ملاحظة من المؤلف).

(*) يستخدم يلتسين هنا فعل البيريسترويكا - (المترجم).

أنهم يصبحون ملائمين حتى بالنسبة إليك. إنني أشعر أنه ليس من النادر أن تنشأ عندي رغبة بالصمت والسكوت، عندما لا أكون موافقاً على أمر ما، حيث يبدأ بعضهم باللعب على وتر الموافقة.

لست ملائماً وأنا أعرف ذلك، كما وأعرف أيضاً أنه ليس من السهل حل المسألة معي. وفي وقت لاحق، ونظراً إلى وضع الكوارد الراهن، سيتزايد عدد المسائل المرتبطة بي وستزعجك في عملك. وهذا ما وددت من كل قلبي ألاّ يكون.

وأنا لا أريد حصول ذلك أيضاً لأنه بغض النظر عن جهودك الاستثنائية فإن الصراع من أجل الاستقرار سيؤدي إلى الركود، إلى حالة كتلك (بل هي نفسها) التي سادت سابقاً، وهو أمر لا يجوز السماح به. تلك بعض الأسباب والدوافع التي حفزتني على التوجُّه إليك برجاء. إنه ليس ضعفاً ولا جبناً.

أرجو إعفائي من مسؤولية سكرتير أول منظمة مدينة موسكو في الحزب الشيوعي السوڤياتي، ومن واجبات العضو المرشح في مكتب الحزب السياسي، وكما وأرجو اعتبار هذه الرسالة طلباً رسمياً.

وأعتقد أنه ليس هناك ضرورة في التوجه مباشرة إلى اجتماع اللجنة المركزية للحزب.

مع الاحترام
١٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٧

وضعت الرسالة في مغلف وألصقته. وفكرت لمرة أخيرة، أيستأهل الأمر إرسالها؟ أوْ أليس من الممكن الانتظار والتريث بعد؟... ثم وبحدة طرحت هذه الأفكار الإنقاذية جانباً واستدعيت مساعدي

وناولته المغلف. وكنت أعرف تماماً أن البريد بين موسكو وبين بيت الأمين العام الصيفي في بيتسُونْدا يعمل بصورة ممتازة، وسيتسلَّم غورباتشوف الرسالة بعد بضع ساعات.

ماذا سيكون بعد؟... أيستدعيني أم يتصل بي هاتفياً ويطلب إلي متابعة العمل على النحو الذي عملت فيه سابقاً؟ أليس من الممكن أن رسالة استقالتي ستساعده على إدراك أن الوضع في القيادة الحزبية العليا قد بلغ نقطة حرجة، وأنه لا بد من اتخاذ تدابير أو خطوات ما سريعة لتدارك هذا الوضع ومعالجته؟...

وقررت ألاَّ أغوص في التنبؤات. لقد أُحرقت الجسور ولم يعد ثمة طريق للعودة. وتابعت العمل كما في السابق من الصباح الباكر وحتى الليل المتأخر، ولم أكن لأعرف نفسي أو لأعترف بتوتر أعصابي ومكابدتي العذاب. كان مظهري لا يدل على أن أمراً ما قد حدث، بل إن كل شيء سار عادياً. ولم يعرف أحد شيئاً، بمن في ذلك عائلتي.

هكذا بدأت هذه الواقعة التي اكتملت فصولها في اجتماع اللجنة المركزية الهادر (المنعقد في تشرين أول/ أوكتوبر ١٩٨٧)، ـ وأكاد أقول الأسطوري ـ ذلك الاجتماع الذي لعب دوراً متميزاً في حياتي، وقد لا يكون في حياتي فقط.

لطالما سُئلت فيما بعد: وهل كانت هناك حجة ملموسة ما، أو سبب مباشر ما، فرض علي أو دفعني إلى إرسال كتاب الاستقالة إلى غورباتشوف. وكنت أجيب دائماً وبوضوح: كلا. وبالفعل، فقد تراكم كل شيء تدريجياً وبصورة غير ملحوظة. في أحد اجتماعات المكتب السياسي ناقشنا التقرير الذي سيتقدم به غورباتشوف بمناسبة

الـذكرى السبعـين لثورة أكتـوبر، وقـد أبديت اثنتي عشرة مـلاحظة، الأمـر الذي جعـل الأمين العـام ينفجـر. حينهـا، وأنـا أذكـر ذلـك، صُدمت تماماً وأصابني الذهول والدهشة، إذ كيف يمكن أن تكون ردة الفعل على الانتقاد هستيرية على النحو الذي كانت عليه. ومع ذلك، لم يكن هذا الحادث حاسماً.

بـدأ كـل شيء منـذ أيـام عمـلي الأولى ضمن مجمـوعـة المكتب السيـاسي. ولم يكن ليغادرني ـ عـلى الـدوام ـ إحسـاس بـأنني مجـرد غريب أطوار، أو بالأحرى غـريب وسط هؤلاء الأشخاص، وأنني لا أكوِّن جزءاً في إطار علاقات لا أقدر على اكتناهها، وأنهم اعتادوا هنـا أن يتصرفـوا ويفكروا كـما يتصرف ويفكر شخص واحـد هـو الأمـين العام. ففي هذه المجموعة المسمَّاة هيئة الحـزب الجماعيـة لا يعبِّر أحـد عن وجهة نظـر تخالف وجهة نظر المترئِّس، وإن فعل فوجهـة النظر لا تتصـل إلا بمسائـل غير ذات أهميـة، وهـذا مـا يسمى وحـدة المكتب السياسي. وأما أنـا فلم أكن أخفي مطلقـاً ما كنت أفكـر فيه، كـما لم أكن أزمع التغيُّر عندما بدأت العمل ضمن المجموعة المذكورة. وكـان هذا يثير حساسية الكثـيرين، حتى أنني اصطدمت مـرات عديـدة مع ليغـاتشيف وسـولـومينتسيف وغـيرهمـا. بعض أعضـاء المكتب كـانـوا متضامينن ضمنياً، بل إنهم كانوا متعاطفين إلى هذه الدرجة أو تلك، ولكن أحـداً لم يظهـر مـا يبـطنـه. وقـد نضـج لـدي منـذ زمن بعيـد الاحتجاج على أسلوب عمل المكتب السياسي وطرائقه، التي اختلفت جذرياً وبصورة حادة عن تلك النداءات والشعارات البـيريسترويكيـة التي أعلنها غورباتشوف عام ١٩٨٥. كانت اجتـماعات المكتب تجـري بالطبـع بشكل مختلف عـما كانت تجـري به أيـام بريجنيف، إذ بـدأت الجلسـات تطول الآن وأضحى الجميـع ينصتون أكـثر لكـلام الأمـين

العام. وكان غورباتشوف يحب أن يتكلم دائرياً ومطوَّلاً، مردفاً كلامه بمداخلات واستخلاصات ومعقباً على كل متكلم. كأنَّ رؤيا ما كانت تتكوَّن خلال المناقشات، كما كان يبدو أن الجميع أدلى بدلوه، ولكن ذلك لم يكن ليغيِّر من جوهر الأمر شيئاً: فما يريده الأمين العام هو نفسه ما يفعله. كل ذلك، برأيي، كان مفهوماً لدى الجميع، إلا أن كل واحد كان يدعم اللعبة ويشارك فيها بنجاح، أما أنا فلم أشأ أن أشارك فيها، ولذا فقد كنت أعبر عن آرائي بحدة شديدة وصراحة ومباشرة. وبصدق أقول إن مداخلاتي لم تستطع خلق جو، إلا أنها أفسدت مناخ الجلسات الطيب جذرياً. وبالتدريج تكوَّن لدي رأي جازم: ينبغي تغيير الجزء الأكبر من تركيبة المكتب السياسي ورفده بدم جديد وبقوى شابة وبأشخاص حيويين ذوي فكر غير مؤطَّر بمقاييس ومواصفات محدَّدة، وبذا فقط يمكن تسريع عملية البيريسترويكا دون خيانة المواقف، وعندها يمكن متابعة العمل الناشط ودفع القضايا إلى الأمام جدياً وعلى مختلف المستويات.

وفي إبان عطل غورباتشوف، عندما كان يترأس ليغاتشيف اجتماع المكتب السياسي، كانت وتيرة الصدامات تتزايد باطِّراد. كان شديد الوثوق بنفسه عندما يعمد إلى بسط أفكاره الجامدة القديمة برزانة وديماغوجية. بيد أن الفظاعة لم تكن تكمن في وجوب الإصغاء إليه فحسب، بل في اعتماد أفكاره للتطبيق في كل أنحاء البلاد وعلى كل مستويات الحزب. كان هذا عملاً غير جائز.

ولقد اتَّخذت قراراً: فإما أن أضغط على نفسي كي أتكيَّف مع كل ما نشأ حولي، والبقاء ضمن تركيبة المكتب السياسي بهدوء عضواً صامتاً، لاعباً، لا يعبر عن آرائه إلا في مسائل صغيرة تافهة؛ أو أن أخرج من عضوية هذه التركيبة.

حـدثت جـولـة في الصـدام الـدوري مـع ليغـاتشيف في المكتب السياسي عندما نوقشت مسائل العدالة الاجتماعية وإلغـاء الامتيازات والتسهيـلات. فإثـر انتهـاء الجلسـة عـدت إلى مكتبي وشرعت أخط الرسالة لأبعث بها إلى بيتسوندا حيث ينتجع غوربـاتشوف. ولكنـه ما لبث أن وصل واتصل بي. قال: «دعنا نلتق فيما بعد». وفكرت في ما تعنيـه هذه الـ «فيـما بعـد» المبهمـة. . . وبقيت أنتـظر. مـر أسبـوع وأسبوعان، ولكن الـدعوة للحـديث لم ترد. وقـررت أنني في حلٍّ من الالتزامات، وأنه غيَّر على ما يبدو موقفه من لقائي وقـرَّر رفع القضيـة إلى اجتـماع اللجنة المـركـزيـة، حيث سيصـار هنـاك بـالتحـديـد إلى إخراجي من عداد الأعضاء المرشحين إلى المكتب السياسي.

وسرت فيما بعد أقاويل شتى في هذا الصدد. فقد قال غورباتشوف إنني أخلفت الثقة التي مُنحت، وإننا اتفقنا على اللقـاء بصورة محـدَّدة تمـاماً بعـد اجتماع اللجنـة المركـزية في تشرين أول (أكتـوبـر)، وإنني قررت بوجـه خاص الكـلام قبل الـوقت المحدد. . . وأكـرر هنا مـرة ثـانية أن الأمـر لم يكن كذلـك. وأشير هنـا مذكِّـراً إلى أنني طلبت في الرسالة إعفائي من مسؤولية عضوية المكتب السياسي (بوصفي عضواً مرشحاً) ومن منصبي كسكرتير أول لمنظمة مدينة موسكو الحزبية، كما أعـربت عن الأمل بـأنه لن يكـون عـلي التـوجـه إلى اجتـماع اللجنـة المركزية لأحل هذه المسألة. أما في يتعلق بالقول إننا اتفقنا عـلى اللقاء عقب اجتماع اللجنة المركزية فهو قول غير صحيح. كل مـا قيل كـان كلمتي «فيما بعد». . وكنت أعتقـد أن الفترة المقصـودة لن تكون أكـثر من يومين أو ثلاثة، ولنقل أسبوعاً كحد أدنى. كنت واثقـاً أن الموعـد المحدد لن يكون أبعد من ذلك. ومهما يكن من أمر لا يستقبل أعضاء المكتب السياسي المرشحون كل يوم كما لا يطلبون عدم إيصال القضية

إلى مستوى اجتماع اللجنة المركزية. وانقضى أسبوعان وغورباتشوف صامت، فكان من الطبيعي تماماً ـ وقد أدركت ذلك ـ أنه قرَّر نقل القضية إلى اجتماع اللجنة المركزية كي لا يكون الأمر مواجهة بين شخصين، وحتى يتمكن هناك من إقامة حوار عام معي.

وأُعلن عن تاريخ اجتماع اللجنة المركزية، وكان لا بد من التحضير لمداخلة تُلقى فيه ولما يمكن أن يعقبها. ومن الطبيعي أنه لن يكون بإمكاني ـ بشكل أو بآخر ـ تنظيم مجموعة مساندة من أعضاء اللجنة المركزية الذين كانوا يقوِّمون الأوضاع في الحزب وفي القيادة ويفكرون بها بالطريقة نفسها التي لدي. وبدا لي أن مجرد التفكير بذلك ـ ويبدو لي اليوم أيضاً ـ لا يخرج عن كونه هرطقة وهذراً. فالمسألة تتطلَّب تحضير المتداخلين والاتفاق معهم: مَنْ سيطرح ماذا من الأمور، وأنا على وجه العموم لن أعمد البتة إلى نسج مؤامرة البتة. لا، وألف لا. لقد قيل لي فيما بعد إنه كان يجب أن نتوحَّد ونقف صفاً واحداً، فلربما أمكن حينها أن نترك أثراً ما، ولربما اضطرت القيادة أن تحسب حساباً لرأي صادر ولو عن أقلية لا عن أفراد مستفرَدين يمكن إدانتهم بأي شيء.

ولكنني لم أسلك هذه الطريق، لا بل إنني لم أطلع شخصاً واحداً على نيتي بإلقاء كلمة في الاجتماع. وهذا الأمر ينطبق حتى على أقرب أعضاء مكتب منظمة موسكو إلي، فهؤلاء لم يعرف أحد منهم شيئاً أبداً.

ولذا، لم يكن لدي أيُّ وهم في أن أحداً سيتقدم لدعمي، وهو أمر طبيعي، وعرفت أن رفاقي في اللجنة المركزية لن يفعلوا أكثر من البقاء صامتين في أحسن الأحوال. كان علي أن أحضِّر نفسي معنوياً لتقبُّل الأسوأ.

ذهبت إلى الاجتماع لا أحمل أي كلمة مكتوبة، التي اقتصر تحضيرها على كتابة سبع موضوعات فحسب. كان من عادتي أن أصرف وقتاً طويلاً على تحضير كل كلمة ألقيها؛ وقد أعيد كتابة الكلمة أو الخطاب الواحد ١٠ ـ ١٥ مرة، محاولاً بذلك العثور على أهم الألفاظ وأدقّها. ولكنني هذه المرة سلكت طريقاً آخر، فبالرغم من أن ما سألقيه لم يكن ارتجالاً والموضوعات السبع كانت مادة لتفكير عميق إلا أنني لم أكتب نصاً، وإني أواجه الآن تعقيداً في تفسير سبب ذلك. من الممكن أنني لم أكن واثقاً مائة بالمائة من أنني سأطلب الكلام، أو ربما أردت إبقاء مخرج لنفسي فأقنعها بأنني قد لا ألقي كلمة في هذا الاجتماع، بل في الاجتماع التالي. لعل فكرة كهذه كانت قابعة في وعيي الباطني.

كان جدول أعمال الجلسة معروفاً: فثمة مشروع تقرير للجنة المركزية المكرس لسبعينية أكتوبر. ولم تكن هذه الذكرى الاحتفالية تزعجني قط، بل على العكس من ذلك، إذ فكرت أنه لمن المجيد أننا وصلنا في نهاية المطاف إلى فهم صحيح لفكرة بسيطة جداً مفادها أن العيد ليس مجرد حجة أو ذريعة لإلقاء الخطب الاحتفالية المطوّلة وما يرافقها من تصفيق، بل إنه لمن المفيد في مثل هذا اليوم الكلام على المشكلات أيضاً. ولقد أخطأت كثيراً في التقدير، فأنا لم أفعل سوى أنني أفسدت عيداً نقياً لألاءً، الأمر الذي أُدنت بسببه بالدرجة الأولى فيما بعد.

ألقى غورباتشوف تقرير اللجنة المركزية، وفيما هو يفعل كان يتنازعني صراع بين أن أتقدم لإلقاء مداخلتي أو ألتزم الصمت. . . كان واضحاً أنه لم يعد هناك معنى لأي تأجيل، يجب التقدم نحو المنبر مع إدراكي أي سيل من القذارات سينزل على رأسي بعد بضع

دقـائق، وكم من الاتهامـات الجائـرة سيتعين علـي تحملها وأي خيـانة وسوء سيلصقان بي قريباً.

وشارف غورباتشوف على الانتهاء من إلقاء تقريره، وحدث ما كان متوقعاً حدوثه الآن.. ها هو ليغاتشيف يتأهب لـرفع الجلسـة، ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان. وأفضل هنا أن أستشهد بمحضر الاجتـماع الرسمي:

«**الرئيس، الرفيق ليغـاتشيف**: أيها الـرفاق، لقـد انتهى التقريـر، هـل ثمة تسـاؤلات عند أحـد؟.. حسناً ليس هنـاك أي أسئلة، إذن ثمة ضرورة لنتشاور.

غورباتشوف: الرفيق يلتسين يودُّ طرح سؤال.

الرئيس، الرفيق ليغاتشيف: إذن هلمَّ نتشاور. هـل هناك ضرورة لنفتح باب النقاش؟

أصوات: لا.

الرئيس، الرفيق ليغاتشيف: لا.

غورباتشوف: لدى الرفيق يلتسين إعلان.

الـرئيس، الـرفيـق ليـغـاتشـيف: الـكلمـة لـلرفيـق بـوريس نيقـولاييڤيتش يلتسـين العضـو المرشـح للمكتب السيـاسي للحـزب والسكـرتير الأول لمنـظمة مـدينة مـوسكو الحـزبيـة. تفضـل بـوريس نيقولايڤيتش».

ومشيت نحو المنبر.

يوميات الانتخابات

١٣ كانون أول (ديسمبر) ١٩٨٨

اتخـذت قـراراً، ولست أدري إلى أي حـد يمكن اعتبـاره قـراراً صحيحاً. لقد قررت خوض انتخابـات منـدوبي الشعب، مع وضـوح كـلي بأن الفـرص أمـامي ليست حتـماً بنسبـة مـائـة بـالمئـة. فقـانـون الانتخابات يتيح الإمكانيات للسلطة وللجهاز حتى يضعا أيديهما على أشيـاء كثيرة. ولا بـد في البدء من تجـاوز عدة مـراحل قبـل أن يقول الشعب كلمتـه. فنظام الـترشيح واجتـماعـات الـدوائـر التي تغـربـل المرشحين وتستبعد غير المـرغوب بهم، ثم لجـان الاقتراع التي يسيـطر عليهـا مجنّدو الجهـاز وزبانيتـه، كـل ذلـك يبعث في النفس تـأمـلات حـزبية. وإذا مـا سقطت، أو إذا لم يقـدر لي الفوز بمقعـد المنـدوب، فإنني أتصوَّر مدى الانبهار والاستمتاع اللذين سيغشيان القيِّمـين على أمر النومنكلاتورا الحزبية. فذلك بالنسبة إليهم ورقـة مفرحـة رائعة: الشعب لم يـرد، الشعب لم ينتـخب، الـشعـب أسقط... عـلماً أن الشعب لا علاقة لـه بكل تلك الاجتـماعات الانتخـابية التي تعقـد في الدوائر. وهذا أمر واضح لدى الجميع ابتداء من أصغر ناخب وانتهاء بغورباتشوف، إنه دعامة لنظام السلطة المنهار وعظمة تُلقى إلى الجهـاز البيروقراطي - الحزبي.

يمكن بالطبع عدم خوض الانتخابات، وأصدقائي المقرَّبون ينصحون بالقعود عن الصراع لأنني أبدو في مواقع غير متكافئة مع الطرف الآخر. فقد بات اسم يلتسين ومنذ عام ونصف تحت المنع والإلغاء، فمع أنني موجود ولكني كنت في الوقت نفسه مغيَّباً. ومن الطبيعي أنني إذا خرجت إلى الساحة السياسية سعياً للمشاركة في الاجتماعات الانتخابية والالتقاء بالناخبين فسرعان ما سينصب علي جبروت الآلة الإعلامية الضخمة بكذبها وتزييفها وتلفيقاتها.

ومن جهة ثانية، فإنه ووفقاً للنظام الانتخابي الراهن لا يحق للوزراء أن يصبحوا نواباً، وبالتالي فإذا أردت خوض الانتخابات فسيتعين علي ترك منصبي، لأدخل بعد ذلك مستقبلاً مجهولاً تماماً. وليس من غير المتوقع أن يسقطني مؤتمر مندوبي الشعب المنتخب، وفق النظام إياه، إذا ما ترشحت لانتخابات مجلس السوفيات الأعلى للاتحاد السوفياتي، وبالتالي فلن أستطيع الوصول إلى البرلمان والعمل فيه. وهكذا، لا أرى أمامي أفقاً واقعياً سوى أن أكون في أحسن الأحوال مندوباً عن الشعب عاطلاً عن العمل. وعلى حد علمي لا يوجد وزير واحد يود التخلي عن كرسيه أو ينوي القيام بذلك. فمندوبو الشعب كثر في حين أن الوزراء قلة.

وهكذا، ينبغي أن أتخذ قراراً.

وبدأت ترد البرقيات من جميع أنحاء البلاد، تنبىء عن رغبة مجموعات هائلة من آلاف المواطنين في ترشيحي مندوباً عنهم.

والانتخابات المقبلة، إذن، عبارة عن صراع مُضْنٍ وعصبي، إنها لعبة مشوَّهة القواعد والأسس حيث تُوَجَّه الضربات تحت الوسط ومن الخلف بغدر، وتُرتكب فيها كل الأمور الممنوعة ولكن الفعالة. هل

أنـا عـلى استعـداد للسـير والحـالـة هـذه في جلجلة الحمـلات الانتخابية؟..

هاأنذا أتأمل وأستريب، بل أثني نفسي، ولعل الأشد إثارة في الأمر أن القرار قد نضج من أمد بعيد. قد يكـون من الممكن أنه نضـج في تلك اللحظة التي عرفت فيها إمكانية حدوث هذه الانتخابات. أجل بالطبـع، سأرمي بنفسي في دوَّامـة الإعصار، وقـد أحطِّم رأسي هـذه المرة نهائياً، ولكني لا أستطيع إلاَّ أن أفعل ذلك.



يوميات الانتخابات

١٩ شباط (فبراير) ١٩٨٩

أرسينا قواعد البداية. فقد وُفِّقت في غربلة اجتماعات الدوائر، ويعود الأمر الآن إلى الشعب كي يقول كلمته. كان هذا نوعاً من الانتصار، وإن لم يكن نهائياً، ولكنه انتصار.

ودُعم ترشيحي في ما يقرب من مائتي دائرة انتخابية. وقد دعمت بصورة رئيسية من قبل المصانع الكبيرة والمؤسسات ومجموعات آلاف الكادحين. ولكني لن أعلِّق بأي شكل على هذه الأرقام.

ولم تكن هذه الترشيحات لتدل على شيء بعد، فقد أتاحت الاجتماعات المذكورة، التي ينظمها الجهاز ويشرف عليها ويمسك بها، التخلص من أي مرشح غير ملائم. وكان الجزء الأكبر من الاجتماعات يتكون مِمَّنْ يطلق عليهم اسم ممثلي المجموعات العاملة، وهم في الأساس الأمناء الحزبيون ونوابهم وبعض أعضاء المجموعات العاملة المُرَهَّبين والملقَّنين بالتعليمات المناسبة. ومن الطبيعي أن السيطرة على اجتماعات يشارك فيها أناس كهؤلاء لم يكن بالأمر الصعب، فكان أن انهالت على لجنة الاقتراع المركزية الاحتجاجات من جميع أنحاء البلاد مؤكدة أن اجتماعات الدوائر قد اغتصبت حق الشعب في انتخابات حقيقية. أما واضعو سيناريو هذه المسرحية التي حملت عنوان

«انتخـابات منـدوبي الشعب في الاتحاد السـوفياتي» فقـد كان يفـركون أيديهم فرحاً وهم يرون كيف تتحقق خدعتهم بنجاح.

ومع ذلك فقد أخطأوا الحساب، إذ لم يلق مخططهم نجاحاً في كـل الأمكنة والمواقع. ويبدو أنهم لم يتصوروا أنه حتى أمين المنظمة الحزبية يمكن أن يخالف تعليماتهم ويقترع كما يحلو لـه وكما يملي عليه ضمـيره. وقِسْ على ذلك أيضاً عضو المجموعة الطيِّع الـذي يمكنه أن يضـع في اللائحة اسم مرشح آخر مغاير للاسم المطلوب وضعه.

جرى اجتماع الدائرة الأول، الذي قررت المشاركة فيه، في مدينـة بـيريزنيكي (مقـاطعة پـيرم). ففي هذه المـدينة عشت فـترة، وسكانها يذكرونني فضلاً عن أن عائلتي فيها معروفـة، وقد عمـل والدي فيهـا طويلاً، وعموماً فقد رشحتني بضع مجموعات. كان لدي فـرصة هنـا للفوز، إذا لم تعمد الهيئات الحزبية إلى خنق اجتماع الدائرة.

وقرَّرت أن أقوم بخطوة لم أعتبرهـا آنذاك خـطوة عاديـة. فبعد أن أقلعت من موسكو آخر طائـرة باتجـاه پيرم، طرت إلى لينينغراد حيث كـــان ينتـظرني رفـــاقي من المؤيـدين والأنصـــار، فنقلوني إلى المـطار العسكـري حيث كان أيضـاً ينتـظرني أعـواني المخلصـون. وهكـذا، طرت إلى پيرم عـلى متن طائـرة شحن ذات هديـر وضجيج عـظيمين كـادا أن يصيباني بالصمم. حـطت الطائـرة في مطار پـيرم في الصبـاح الباكر وكان في استقبالي أشخاصي الموثوقون، وسرعـان ما تـوجهنا إلى اجتماع الدائرة فوصلناه عند بدايته. وقـد سبَّب ظهوري صـدمة عنـد منـظمي الاجتماع، لأنـه لن يكون بـوسعهم الاتصال بلجنـة منـظمـة الإقليم الحزبية وبالتالي فلن يستطيعوا تغيير شيء ما. وألقيت كلمة في الاجتـماع ضمنّتها بـرنامجي الانتخـابي ثم أتبعتهـا بـردود عـلى الأسئلة

المطروحة من قبل الحاضرين. كان كل شيء يسير على ما يرام، وعندما بدأت عملية التصويت ـ أقول بصراحة ـ لم أكن أشعر بالقلق على الإطلاق. كانت كل الدلائل تشير إلى أنني سأوفق في التغلُّب على هذا العائق الأول في طريق الدورات الانتخابية الأخيرة. وهكذا فقد حصلت على أكثرية الأصوات وأصبح بالإمكان الآن العودة إلى موسكو.

وما لبثت اجتماعات الدوائر أن بدأت في العاصمة. وبغضٍّ النظر عن الانتصار الذي حققته في پيريزنيكي فقد قررت الاشتراك أيضاً في اجتماعات الدوائر الموسكوفية، رغبة مني في معرفة أجوائها والنظر في آلية تأثير السلطة في المواطنين. كان ذلك بالنسبة إلي مدرسة رائعة تعلَّمت فيها أشياء كثيرة.

وبالمناسبة، أشير إلى أنني كنت أنسحب في أي دائرة حين يتضارب ترشيحي مع ترشيح أشخاص شرفاء ومحترمين وجديرين. وعلى سبيل المثال ترشَّح أ. ساخاروف في دائرة أوكيتابرسكايا فاتصلت به وأبلغته أنني أسحب ترشيحي لصالحه، ففاز في الانتخابات بالطبع، عبر أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي وعبر المنظمات الاجتماعية.

كنت أخرج من كل اجتماع بخبرة وتجربة جديدتين. فهناك حيث كان يسود جو معادٍ لي على وجه الخصوص، كنت أشعر بلذة أكبر في التصارع معهم. لقد كنت أرى بأم عيني كيف يتغلَّب الناس على وضع المنوَّم مغنطيسياً وكيف يتمردون على الجهاز الذي يقود هيئة رئاسة الاجتماع كما يقود المايسترو فرقته الموسيقية.

ومما لا أنساه على هذا الصعيد الاجتماع الذي جرى في دائرة منطقة غاغارينسكايا في العاصمة. كان من ضمن المشاركين فيه

مـرشحون أقـوياء كـالكاتب والصحـافي يـوري تشـيرنيشنكـو والمؤرخ العسكـري الجنرال دميـتري ڤولكـوغونـوف والمخرج السينـمائي إلـدار ريازانوڤ ورائـد الفضاء ألكسي ليـونوف وغـيرهم، حيث بلغ عددهم عشرة مـرشحـين. مـا حـدث أن كـل مـرشـح من هؤلاء طلب من الاجتـماع تثبيت تـرشيـح العشرة حتى يتسنى للمـواطنـين أن يقـولـوا كلمتهم عند الانتخاب.

وبما أن كلمات كل المرشحين كـانت كلمات قويـة وعاطفيـة ومقنعة فقـد بدأ الاجتـماع ينقسم ويتشرذم حتى بات الجميـع تقريبـاً في نهاية المطاف يرفضون استخدام حقهم في ممارسة غربلة المرشحين.

ويا لما حدث! انقضَّت هيئة رئاسة الاجتماع ببساطـة على النـاس، فراحت أريحيَّتها تتفق عن اقتراح تلو اقتراح وكلها تستهدف عدم تمرير ما تواضع عليه الحضور، أي الإبقاء على ترشيح العشرة. وكان إلدار ريازانوڤ المرح المتفائـل أبداً عـلى استعداد دائم لـلانفجار غضبـاً فيما المقترعون يتراكضون واحداً إثر واحد نحو الميكـروفون ليصبـوا لعنات العـار على الـرئاسـة، فقد بلغ الأمـر بالنـاس حـدَّ الصراخ: نـطالب بتثبيت كـل المرشحـين!. ما تفعلونـه احتقار للنـاس جميعاً. واستمـر صراع المجتمعين مع هيئة الرئاسة المبرمجة بالتعليمات حتى الثـانية بعـد منتصف الليـل، وفي نهايـة الأمـر انتصرت النـاس، وضمت لائحـة الـترشيح في الـدائرة المـذكورة عشرة مـرشحـين. وغـادرت الاجتـماع ينتابني شعوران: شعور بأن العدالة والتفكـير الحكيم قد انتصرا رغم كـل شيء، وشعور آخـر ثقيل: أي آلـة سلطوية تقف فـوق رؤوسنـا كالهراوة، تلك الأداة الشوهاء التي ابتدعها ستالين.

(من الأسئلة التي وجهها الموسكوڤيون أثنـاء اللقاءات والاجتماعات الانتخابية)

يقال إنك خضعت لمحاكمة في سفيردلوفسك هل هذا صحيح، وكيف حدث؟

عُيِّنت مهندساً رئيسياً في الإدارة رقم ١٣. كان مدير التريست نيقولاي إيفانوفيتش سيتينكوف، وهو شخص فريد من نوعه، عنيد حتى لا أستعمل وصفاً آخر - وقد بلغ عناده حدود الجور بأبسط أشكاله. وقد تكوَّنت بيننا علاقات غريبة: مثلاً كان يأتي ويبدأ بالصراخ، وإذا اعتبرت أن ما أفعله صحيح لم أكن لأخضع له وأستمر بالقيام بعملي كما أرى. وكان ذلك يجعله يحتدم ويحنق. وإذا صدف أن استقليت معه سيارة ودار بيننا نقاش متصلب كان يوقفها إلى جانب الطريق ويقول: «إنزل!» أرد عليه: «لن أنزل، أوصلني إلى محطة الترام». وهكذا فقط يطول بنا الوقوف نصف ساعة أو ساعة، حتى لا يعود يطيق صبراً لأنه سيتأخر في الذهاب إلى موعد فينطلق ليوصلني إلى المحطة. ومن الحوادث معه على سبيل المثال أنه كان يستدعيني إلى مكتبه ويبدأ بالسباب والشتم بما تيسر من تلك الكلمات، ثم يحتدم الموقف فيمسك بالكرسي فأمسك بدوري بكرسي ويتحرك كلانا نحو الآخر، فأقول له: «انتبه، أي حركة صغيرة سأرد بأسرع منها وأكبر. على أي حال سأكون أول من سيضرب». كانت علاقتنا دائماً على هذا النحو.

وقد رفع مسألة إقالتي من العمل إلى لجنة المدينة الحزبية مرات عديدة، إلا أنني توصلت آنذاك لأصبح مسؤولاً عن الإدارة. لم يكن عملي مع المجموعة سيئاً، واللجنة الحزبية لم تسمح بطردي، وكان يشغل منصب السكرتير الثاني وقتذاك فيدور ميخائيلوفيتش مورشاكوف، وكان شخصاً طيباً ذكياً وقد أنقذني عدة مرات.

وفي مرة من المرات بلغ عدد الإنذارات التي وجهها إلي مدير

الإدارة سبعة عشر إنذاراً في غضون سنة واحدة. وفي ٣١ كانـون أول (ديسمـبر) جمعت الإنـذارات كلهـا وذهبت إليـه وضربت الـطاولـة بقبضتي قائلاً: «ما إن توجّه إلي أول إنذار في العـام المقبل حتى أفجـر معركة كبيرة. خذ ذلـك في حسبانـك». وفي الثاني من كـانون الثـاني (يناير) تلقيت إنذاراً لأننا لم نعمل في أول الشهر. وكما هو معلوم فـإن أو الشهر عيد نعطّل فيه، ومع ذلك، فقد رأى المديـر أنه كـان ينبغي العمـل. وقـررت ألاّ أسكت، فتـوجّهت إلى كـل المستـويـات حتى نجحت في إزالته. وإثر هـذه الحادثـة أصبح المـدير حـذراً في توجيـه الإنذارات إلي.

ولاحقاً ادّعى علي لدى القضاء بتهمة اختلاس مـالي وذلك نتيجـة لاحتسـابات مـالية خـاطئة حـاول تصيُّدي عن طـريقها. كـان رئيس المحاسبة في الـتريست يمثل الجهـة المدّعيـة وكنت أنا المتهم أو المـدّعى عليه. كنت أجلس على المقعد في المحكمة التابعة للمنطقة وأبرهن أنه ليس هناك أي قضية أو جريمة. وبدا لحسن الحظ أن القاضي الـذكي شاب في الأربعين أو الخامسة والأربعـين من عمره، وعنـدما نـطق في نهايـة الجلسـة بـالحكم قـال مـا حـرفيتـه: «يمكن ويجب أن يكـون في ممـارسات أي مسؤول بعض المغـامرة، والأمـر الرئيسي أن تكـون هذه المغامرة محسوبة ومبرَّرة وفي هذه الحالة يبدو لي أن المغامرة عند يلتسين مـبرَّرة». وقضى الحكم بتبرئـة يلتسـين بـالكـامـل وتحميـل التكـاليف للمدعي أي على حساب التريست. كان ذلك ضربة كبيرة هوت على رأس رئيس المحـاسبة ومـدير الإدارة، الأمـر الذي كـان بـالنسبـة إلي محفـزاً ومشجعاً. والحقيقـة أن رئيس المحاسبـة لم ينس التحقير الـذي لحق به في المحكمة، فحاول من خلال موقعه كعضـو في قيادة منـظمة التريست الحزبية أن يضيِّق علي أثناء قبول انتسابي إلى الحزب.

فمن بين الأسئلة العديدة التي طُرحت علي في اللجنة الحزبية، السؤال التالي: «في أي صفحة من أي مجلَّد من رأس المال يتكلم ماركس على العلاقات النقدية ـ السلعية؟». ولأنني كنت واثقاً أنه حتى لم يقرب ماركس بالمرة، فهو لا يعرف بالتالي لا المجلد ولا الصفحة المطلوبين، فأجبت بين المزح والجد: «المجلد الثاني، الصفحة ٣٨٧». قلت ذلك بسرعة ودون تفكير، الأمر الذي جعله يلاحظ بإمعان وتأمل: «جيد. هاإنك تعرف ماركس جيداً». وعلى العموم فقد قبلني عضواً في الحزب.

واستمر جور المدير لاحقاً بي إلى أن نقلت للعمل مهندساً رئيسياً في مجمَّع أبنية سكنية تفوق بضخامتها التريست.

ومن المفيد عدم إغفال كيفية توجيههم إنذاراً صارماً إلي مع إثباته في ملفي الحزبي، وذلك في مكتب اللجنة المركزية. كنت قد تسلمت من عهد قريب مهمة رئاسة إدارة البناء في التريست. وكان يتولى الرئاسة قبلي شخص فظيع، مدمن، لم يكن يتورَّع عن إفشال أي مشروع يمكنه إفشاله بما في ذلك مشروع بناء مدرسة داخلية. وفي أيلول (سبتمبر)، عندما تسلَّمت المنصب، كانت تجري عملية صب الطبقة الأولى، وكان من المفروض بحسب البرنامج أن تُصَبَّ الطبقة الرابعة. وبالطبع فإن المشروع دُفن بمعنى ما، فكان من المستحيل أن ينتهي العمل به في نهاية السنة مهما بلغت الجهود. وفي بداية السنة كان من المفروض أن أُقبل عضواً في الحزب وأُمنح البطاقة الحزبية في اجتماع احتفالي، حيث يعقد مكتب لجنة المدينة الحزبية في اليوم التالي اجتماعه التقويمي السنوي. وفجأة أسمع صوتاً يقول: «فلنوجه إنذاراً صارماً إلى يلتسين مع إثباته في ملفه حتى لا يكرر الأمر مرة ثانية».

فما كان مني إلا أن توجهت إلى المنبر وقلت: «الرفاق أعضاء

المكتب ـ وكان هناك جمع كبير من الأعضاء في الاجتماع ـ حاولوا أن تتفهّموا الوضع. لقد تسلّمت بطاقتي الحزبية البارحة، ها هي ما تزال بعد ساخنة، واليوم تقترحون توجيه إنذار صارم إلي وأنا شيوعي مع خبرة يوم واحد، وتريدون إثبات الإنذار في ملفي الحزبي لأنني لم أُنهِ العمل في المدرسة الداخلية. هنا في هذه القائمة عمال بناء يستطيعون أن يؤكدوا أن الانتهاء من العمل بها ببساطة لم يكن ممكناً». لا. وأصروا على توجيه الإنذار حتى لا تكون سابقة! ويبدو أن سيتنيكوف قد لعب أيضاً دوراً في توجيهه. كان ذلك بالنسبة إلي ضربة جدية.

كنت أؤمن من أعماقي بمُثل العدالة التي يحملها الحزب وقد انتسبت إليه بكل إخلاص، ودرست نظامه وبرنامجه وكلاسيكيي النظرية، فقرأت أعمال لينين وماركس وإنجلز. وفجأة حدث لي ما حدث علناً وأمام الجميع... ومضت سنة قبل أن يلغوا الإنذار الصارم إلا أنه بقي ماثلاً في ملفي الحزبي إلى أن تم إبداله من ضمن إبدال الوثائق الحزبية، عندها فقط عاد الملف أبيض.

وبشكل عام، فإننا لم نعتد التفكير في الدور السلبي الذي ينجم عن تدخل الحزب في المسائل الاقتصادية إلا في المدة الأخيرة. في السابق كان المسؤولون عن الاقتصاد ـ فضلاً عن العاملين الحزبيين ـ يعتبرون هذا التدخل أمراً بديهياً وطبيعياً، وكان الأمر كذلك بالنسبة إليَّ أيضاً. وقد دعيت لحضور كثير من الاجتماعات في لجان المناطق الحزبية، وكنت بالطبع أحاول في الحقيقة التهرب من حضورها، ولكن ماذا أفعل وقد كانت تُحَلُّ جملة من القضايا والمواضيع الاقتصادية إلى جانب فرض العقوبات واتخاذ القرارات وتوجيه الإنذارات. كان ذلك يشكل جوهر النظام الموجود، ولم

يكن ذلك ليثير تساؤلاً أو اعتراضاً. المهم ألاَّ يعترض سبيلنا واحد من أولئـك المسؤولين الحـزبيين أبنـاء الجهاز، فيحـوِّل حياتنـا بغباواتـه أو بجنون العظمة إلى جحيم. وأذكر أنني تـورَّطت في نزاع مـع سكرتـير لجنـة المنطقـة الأول بوبيكـين الذي سيصبـح فيها بعـد سكرتـير إقليم سڤيردلـوڤسـك الأول، حيث سنلتقي سـوية من مـواقـع مختلفـة في الكونفرنس الحزبي التاسع عشر. وأذكر يومها أنـه أرسل وريقـة كتب عليها نصاً هجومياً في حق ڤولكوڤ أحد المندوبين الحزبيـين من إقليم سڤيردلوڤسك المنبري للدفاع عني.

تلقيت آنئـذٍ برقيـة هاتفيـة من بوبيكـين يطلب فيهـا الحضـور إلى الاجتماع خلال ساعات، وتعجبت لهذه اللهجة ولم أعرف كيف يمكن وصفها، بيد أني لم أرد. وبشكل عام فقد أحصيت مرة عـدد المنظمات التي يمكن أن أستـدعى إليها لـلاجتـماع - ابتـداء من لجـان الأقـاليم وانتهاء بالمقاطعات، حيث توجد مشاريع بنـاء قائمـة - فوجـدت أنها تربو على اثنتين وعشرين منـظمة. ومن الـطبيعي أنه لم يكن بـوسعي التواجد في كل مكان، فكنت أتصل بالمواقع هاتفياً بعض الأحيـان أو أرسـل مساعـديَّ في أحيان أخـرى، وعلى العمـوم كان العمـل يسـير بـالتوافق. . ثم فجـأة تنبعث هذه اللهجـة القـديمـة الآمـرة. وتكـرر إرسال البرقية الهاتفيـة مرة ثـانية وثـالثة. وأخيـراً، رنَّ جرس الهـاتف لأسمعه يقول: «أرجو أن تفسر لي الأمر. لمـاذا لا تحضر الاجتماعـات التي يعقدها السكرتير الأول للجنة الحزب المنطقية؟» وأجيب: «ولمـاذا ينبغي أن أحضر بالتحديـد إلى اجتماعـك في الوقت الـذي أكون فيـه حاضراً اجتماعاتٍ أخرى لدى غـيرك في مناطق أخـرى؟ لماذا يجب أن أقدمك على الآخرين؟». وانفجر قائلاً: «سأبرهن لك عكس ذلـك، وعلى كل حال ستأتي وتحضر!»، وأقـول: «مع هـذه الألفاظ لن تـرى

بعد اليوم وجهي في أي اجتماع». وهذا ما حصل بالفعل، ولم يستطع أن يفعل شيئاً معي، وبالطبع فقد كان يجب أن يداوي جرح كبريائه وحاله هي نفسها حتى الآن.

وبعد العمل رئيساً للإدارة اقتُرح علي تولي منصب مدير مؤسسة تعنى بالبناء الإسكاني وتضم مصنعها الخاص بإنتاج مواد البناء ويعمل فيها عدة آلاف عامل وموظف، حيث أحيل مديرها على التقاعد. وهكذا، أصبحت مدير مؤسسة ضخمة جداً وكان لي من العمر آنذاك ٣٢ عاماً.

كانت مرحلة صعبة. فقد جرى في الوقت نفسه تشغيل المصنع وتبني التقنيات الجديدة مع المباشرة بالبناء الإسكاني المسرَّع. وعلى سبيل المثال، أجرينا تجربة بناء مبنى مؤلف من خمسة أدوار خلال خمسة أيام، وقد نجحت، مما جعلنا نجري تجربة أخرى لتوفير وقت فك الروافع الجبارة وتركيبها في مواقع البناء المتتالية واحداً إثر واحد، وقد نجحنا في ذلك أيضاً. كما حللنا العديد من المشكلات التقنية، بحيث أصبحت المؤسسة تنفذ الخطط الموضوعة على نحو ثابت. وبتنا نخيط لباساً رسمياً خاصاً بعمال المؤسسة يحمل شعارها، علماً أن الخياطة كانت تتم وفق قياسات كل عامل على حدة، الأمر الذي أعجبهم كثيراً وجعلهم يفخرون بمؤسستهم.

وبالطبع، كان الوضع في ما يتعلق بالسكن صعباً، وخصوصاً في نهاية السنة أو الفصل، فكنا نعمل ليل نهار. وغالباً ما كنت أزور فرق العمل الليلية في المواقع.

وعلى العموم وُصف أسلوب عملي بأنه قاس، وهذه حقيقة، إذ كنت أطالب الناس بتطبيق دقيق للنظام والالتزام بتنفيذ الوعود.

ولأنني، كما أسلفت، لم أكن استخدم الألفاظ البذئية، فقد بذلت ما في وسعي حتى لا يعلو صوتي الأجش، المرتفع أصلاً، أمام الآخرين من العاملين معي. وكانت حجتي الرئيسية في تطبيق النظام ومطالبة الآخرين باعتماده تطبيقي إياه تطبيقاً صارماً والإخلاص للعمل والإنصاف في التعامل مع الناس عند اتخاذ القرارات والتوجيهات. فمن يعمل أفضل يحق له أن يعيش أفضل، وبالتالي أن يقوِّم على نحو أفضل. فالعمل المهني النوعي لا يمكن عدم ملاحظته. وإذا قطعت وعداً فحافظ عليه، وإن لم تفعل فعليك مواجهة الآخرين. ولعل هذه العلاقات الواضحة المفهومة ـ على ما أظن ـ هي التي ولَّدت جواً إنسانياً ملؤه الثقة في أوساط العمال.

وإليكم مثالاً. كان عندنا معلم نجار رائع اسمه ميخائيليشين. كنت مثلاً أقول له: «ڤاسيلي ميخائيلوڤيتش، قدِّم لي خدمة، بقيت ليلة واحدة، وغداً ستأتي اللجنة الحكومية لتتسلَّم البناء والأبواب دهنت ولكن يجب تركيبها، والأرض مدهونة. أخشى أنها ستتجرَّح. يجب أن يجري عملٌ دقيق وسريع حتى الصباح». وتركته يعمل مع مجموعته طوال الليل وعدت في السادسة صباحاً. وأدخل فأجده يركِّب آخر باب لدى مدخل البناء. أحضرت معي راديو ترانزستور من البيت فأهديته إياه، ضممته ولم أنبس ببنت شفة. فهل كان بعد ذلك سيشعر بأي حزن أو مرارة أو غضب لأنني أجبرته على العمل طوال الليل.

وهكذا، فقد عملت أربع عشرة سنة في ميدان الإنتاج، ثم فجأة يُقترح علي أن أشغل منصب رئيس قسم البناء في لجنة منظمة الإقليم الحزبية. لم يفاجئني الاقتراح مطلقاً، ذلك أنني عملت دائماً في الميدان الاجتماعي، غير أنني وافقت على مضض.. كنت سعيداً في ترؤس

المؤسسة وقد نجحت في إدارتها، إذ لم تتوان مجموعتي عن تنفيذ البرامج باستمرار ضمن الوقت المحدَّد، فضلاً عن الراتب المرتفع. أما الآن وفيما أنا عضو في مجلس السوفيات الأعلى فإني أتقاضى راتباً يقل كثيراً عما كنت أتقاضاه منذ عشرين عاماً. . ورغم كل شيء رضيت بالمنصب الجديد دون رغبة.

ربما أردت القيام بخطوة جديدة، ويبدو لي أنني لا أستطيع حتى الآن فهم المصير الذي ساقتني إليه.

يوميات الانتخابات

٢١ شباط (فبراير) ١٩٨٩

إنـه لمن الغريب أن يحـدث ما حـدث، وإني لا أكاد أصـدق ذلك حتى الآن. ثُبِّت ترشيح بوريس يلتسين عن دائرة موسكو. حدث مـا كان لا يرغب في حدوثه كبار الجهاز وقادته الأعلون وقـاوموه بكـل ما يملكون من سلطة.

وكـان مرشـح الضد في الـلائحة الانتخـابيـة عن الـدائـرة نفسهـا يو. براكوف مدير عام مصنع سيارات «زيل».

ووفق مـا كان متبعـاً وجب «ركلي» في اجتـماع الدائـرة وإخـراجي بالمرة. كان في الصالة ألف مندوب يمثل عشرة مرشحين حوالى المائتين منهم، في حين أن الثمانمائة مندوب الباقين جرى انتخـابهم وفق مبدأ: «سمعاً وطاعة».

كـان الجميع يعلم كيف سينتهي اجتماع الدائـرة، إذ حـدَّد الجهـاز اسمين ليثبتا مرشحين عن الدائرة همـا: يو. بـراكوف ورائـد الفضاء غ. غـريتشكو. وكـان يحدوني أمـل أن الاجتماع سيتحـول مع ذلـك ويثبِّت ترشيح العشرة، عندئذ ستلوح فرصة حقيقيـة. وهكذا، كتب المرشحون العشرة بمبادرة مني قبيل بـدء الاجتماع رسـالة تتضمن تمنيـاً على المندوبين لإصدار لائحة تثبِّتهم جميعاً، ويجب القول إنهم وقَّعوهـا

بكل سرور، إذ لم يرد أحد منهم الاشتراك في تمثيل مسرحية يعرفون نهايتها الجاهزة مسبقاً. ومع بداية الاجتماع أحسست - من الجو السائد - أن الترتيبات الجاهزة لن تمر هذه المرة. ففي رأس كل مندوب كان يرنّ اسمان: «غريتشكو وبراكوف»، إذ كانت تجارب الاجتماعات السابقة بمثابة دروس استفاد منها البيروقراطيون الذين باتوا يعرفون دون ريب كيف يمكن استخلاص العبر من الأخطاء.

وقد اتبع النظام التالي، كان كل مرشح يلقي كلمته المتضمنة برنامجه الانتخابي ويعقب ذلك الإجابة على الأسئلة المطروحة كتابياً لمدة خمس دقائق، فيما تُعطى سبع دقائق للرد على الأسئلة المطروحة مباشرة من الصالة. وقد طرح علي أكثر من مائة سؤال.

عرفت أن في الصالة أشخاصاً مُزوَّدين بأسئلة استفزازية مهيَّأة خصيصاً لتطرح علي. كان هؤلاء يجلسون بانتظار الإشارة من منظمي هذه الهمروجة حتى يبدأوا عملهم. عندها قررت التصرف على نحو مفاجىء. فمن بين كل الأسئلة التي وردتني انتقيت تلك الجائرة والسيئة والمثيرة للغضب، والعادة أن يجيب المرشح عن الأسئلة المريحة والمربحة، إلا أنني قررت العكس تماماً.

وبدأت الإجابة على أسئلة مكتوبة تقول: «لماذا خنت منظمة موسكو الحزبية وجبنت وضعفت أمام المصاعب؟»، «على أي أساس انتقلت ابنتك إلى شقة جديدة؟»، كانت الأسئلة التي انتقيتها على هذا المنوال وبهذه الروحية، وبإجابتي عليها فقد نجحت في تعكير صفو مخططات منظمي الاجتماع. لقد استنفدت كل الأسئلة السلبية تقريباً التي أزمعوا طرحها شفهياً من الصالة، وقد أجبت عليها بهدوء وسهولة. ولاحظت أن الصالة بدأت تتفكّك شيئاً فشيئاً، كما بدأت

تلوح في أفقها تباشير نتائج غير تلك التي كان متوقعاً إحداثها وفق مخططات المنظِّمين.

وكانت لدي مفاجأة أخرى في الجعبة. فقبيل انعقاد الاجتماع اقترب مني رائد الفضاء غيوركي غريتشكو وقال إنه يود سحب ترشيحه لاعتقاده أن من الصحيح دعم ترشيحي، وإنه لا يريد بوجه عام أن يخوض ضدي أي معركة. قلت له: «لا. فكِّرْ في الموضوع»، ولكنه أجاب: «هذا قراري النهائي»، عندئذٍ طلبت منه أن ينسحب قبيل بدء عملية التصويت بالضبط.

كان غريتشكو يميِّز الأمور بوضوح شديد. وبشكل عام أدركت أن الممثل الرائع الذي فيه قد مات. كان على مدى الاجتماع يعاني ويظهر توتر أعصابه ويبدو على ملامحه الضيق والقلق من ردة فعل الحضور، ومن الأسئلة والأجوبة والقتال من أجل البرنامج الانتخابي. ثم جاءت النهاية، وقبل أن يبدأ التصويت أعطي كلٌ مرشح دقيقة واحدة ليقول كلمته الأخيرة... وحان دور غريتشكو فاقترب من المنبر ليعلن بهدوء: «أرجو سحب ترشيحي».

كان ذلك ضربة فظيعة تُوَجَّه إلى منظِّمي الاجتماع. وهكذا، فقد برزت لدى جميع المندوبين، المُبَرْمَجين لينتخبوا براكوف وغريتشكو، فرصة لتصويت حر، بحيث أصبح بإمكانهم التصويت لي دون أن يشعروا بتوبيخ الضمير إذا ما اعتمدت طريقة الاقتراع السري.

وهذا ما حدث بالضبط، فحصدت أكثر من نصف الأصوات، وتلقيت التهاني الحارة من جميع المرشحين. كان يسود بيننا جو مفعم بالصداقة والرفاقية، الأمر الذي أثر فعلاً في نتائج الانتخابات.

وعموماً، كانت خطط خصومي في كل مرة تنهار لأنهم يعتقدون ـ

ولا أدري لماذا ـ أن الناس الموتورين الحاقدين موجودن أينما كان. فهم يعتمدون في كل مرة على الأشرار، وفاتهم أن هؤلاء قلة، ولهذا السبب يتغيّر كل شيء. ولو أنهم وفقوا في العثور على هؤلاء فقط لجمعهم لكنت مُنيت بالخسارة دون ريب. ولكنهم لم يستطيعوا أن يجمعوا في كل موسكو حتى ثمانمائة شرير.. يا لهم من تعساء..

وبدأت مرحلة الحملة ما قبل الانتخابية. ولأن فرصي في تحقيق الانتصار على العائق الدوري قد ازدادت، فقد تضاعفت مئات المرات مقاومة أولئك الذين اعتبروا نجاحي كارثة حقيقية بالنسبة إليهم وانهياراً لثقتهم في النظام القائم وتماسكه. لم يكن يقلقهم واقع أن النظام أصابه الاهتراء منذ زمن بعيد، وكانت المسألة الأساسية التي قضّت مضاجعهم هي عدم السماح ليلتسين بالمرور.

ولكن بدا أن الوقت قد فاتهم...

أي أخطاء ارتكبتها أثناء تولّيك منصب السكرتير الأول لمكتب منظمة الإقليم الحزبية؟

هل وجهت إليك انتقادات، وكيف كان موقفك إزاءها أثناء توليك هذا المنصب؟

تزامنت أفضل سنوات عملك سكرتيراً أول لمكتب منظمة الإقليم الحزبية مع سنوات الركود. فما هو موقفك من ذلك؟

(من الأسئلة التي وجهها الموسكوفيون أثناء اللقاءات والاجتماعات الانتخابية)

عملت سبع سنوات على وجه التقريب نائباً لرئيس قسم في لجنة منظمة الإقليم الحزبية، ثم انتخبت بعد ذلك سكرتيرها الأول. وبعد مضي سنة أُرسلت إلى موسكو لحضور برامج استماع شهرية في أكاديمية العلوم الاجتماعية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، فاضطررت إلى الدراسة حوالى الأسبوعين. في ذلك الوقت انعقدت اجتماعات دورة اللجنة المركزية التي انتخبت فيها سكرتير أول لجنة إقليم سفيردلوف الحزبية وريابوف سكرتير للجنة المركزية. وفي اليوم التالي، أثناء استماعي إلى محاضرة في الأكاديمية، دنا رئيس البرنامج كوروليوف من الميكروفون وأعلن قائلاً: يلتسين مدعو للذهاب إلى اللجنة المركزية في الساعة الحادية عشرة. والحضور، طبعاً، أناس ذوو خبرة، وسرعان ما تحلق حولي جمع يسألونني عن الأمر ويستوضحون. لم يدر في خلدي أي معلومات ولم أعرف شيئاً البتة، على الرغم من أنني كنت أحس في داخلي أي حديث يمكن أن يدور هناك، إلا أنني حاولت طرد هذه الأفكار. وتوجهت إلى اللجنة المركزية.

قالوا عرِّج أولاً على كابيتونوف سكرتير اللجنة المركزية لشؤون التنظيم، الذي أخذ يطرح علي أسئلة عن الدراسة وغيرها، وبدا مهتماً بمعرفة الوضع في لجنة منظمة الإقليم الحزبية والعلاقات السائدة بين أعضائها. . . وكنت أجيب أن كل شيء عادي، ثم لم يزد شيئاً ولم يوضح لماذا دعيت إلى اللجنة المركزية. وقال هيا بنا نذهب إلى كيريلينكو، وهناك جرى الحديث نفسه ولم يصدر أي تفسير. وذهبنا تالياً إلى سوسلوف، وكان الحديث هذه المرة أكثر مكراً وحنكة: هل تأنس في نفسك القوة، هل تعرف جيداً منظمة الإقليم الحزبية. . . إلخ. . ، ولم ننته إلى شيء. . وفكرت بيني وبين نفسي كم هو غريب

هذا النظام، وماذا سيكون بعد؟ ثم يقال لي: إن بريجنيف يدعوك للقائه. لا بد من الذهاب إلى الكرملين. ورافقني سكرتيرا اللجنة المركزية كابيتونوف وريابوف. وما إن دخلنا غرفة الانتظار حتى قال المساعد: «باستطاعتكم الدخول. إنهم بانتظاركم». وتقدَّمت مرافقي ودخلت. جلس بريجنيف على رأس طاولة الاجتماعات فاقتربت منه ونهض مسلِّماً علي وتوجَّه إلى صاحبي قائلاً: «إذن، فقد قرَّر أن يأخذ زمام السلطة في إقليم سفيردلوفسك». وانبرى كابيتونوف يشرح له الأمر: «لا، إنه لا يعرف شيئاً». قال بريجنيف: «وكيف لا يعرف وقد قرر القبض على زمام السلطة؟». وهكذا بدأ الحديث وكأنه مزاح وجد في آن. وقال بريجنيف إن المكتب السياسي اجتمع وأوصى أن أتولَّى منصب السكرتير الأول لمكتب منظمة إقليم سفيردلوفسك الحزبية.

كان كوروفين يشغل آنذاك منصب السكرتير الثاني في إقليم سفيردلوفسك، وهذا يعني أن العادة المتبعة في الترقيات لم تعتمد وأُخِلَّ بها. وحدث أن سكرتيراً عادياً رُقِّي في ما يشبه القفزة إلى منصب السكرتير الأول فيما بقي السكرتير الثاني في مكانه. وكان كوروفين، بالطبع، ذا شخصية لا تجعله قادراً على تسنُّم منصب السكرتير الأول، وهو أمر أدركه الجميع.

وسألني بريجنيف: «إذن، ماذا ترى؟». كان كل ذلك مفاجئاً بالنسبة إلي، فالإقليم رحب كبير ومنظمته الحزبية ضخمة... وقلت إذا كنت موضع ثقة فلن آلو جهداً وسأعمل بكل قوتي، ثم نهضنا فإذا به يقول: «إلا أنك لن تكون عضواً في اللجنة المركزية لأن المؤتمر قد انعقد وانتهت الانتخابات». طبيعي أنني لم أفكر حتى في طرح السؤال، ولكن راعني صوته الذي جاءني مغلفاً بلهجة تبريرية. وما

لبث أن نظر ملاحظاً أنني لا أحمل شارة النائب في مجلس السوفيات الأعلى، فقال: «ألست نائباً؟» أجبت: «بلى، أنا نائب». واستدار نحو السكرتيرين المرافقين وقال متعجباً: «كيف؟»، ورددت بلهجة جادة: «نائب في سوفيات الإقليم». وأقول بصدق إن هذا أثار حيوية بين الثلاثة، ذلك أن المرء لا يعتبر بالنسبة إليهم نائباً إذا كان عضواً في السوفيات الإقليمي! وانتهى اللقاء بقوله: «فليُطرح الأمر في دورة اجتماعات لجنة منظمة الإقليم ولا تؤجلوه».

وبعد مضي يومين، وتحديداً في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٦ انعقد اجتماع لجنة الإقليم الكامل بحضور رازوموف النائب الأول لرئيس قسم التنظيم في اللجنة المركزية. وجرى كل شيء كما كان مقرَّراً: أعلن المندوب المركزي أنه بسبب انتخاب ريابوف سكرتيراً للجنة المركزية يُقترح أن يتولى يلتسين مهام السكرتير الأول للجنة الإقليم الحزبية. في هذا الوقت كنت أخط على ورقة صغيرة موضوعات لمداخلة صغيرة، إحساساً مني بأن ذلك أمر ضروري. وتمَّت عملية التصويت كالعادة بالإجماع، ثم تلقيت التهاني وطلبت الكلام فأدليت ببرنامج عمل ملخص ومكثف للمستقبل. كانت الفكرة الرئيسية في منتهى البساطة وهي: يجب قبل كل شيء الاهتمام بالناس، وإنهم سيبادلوننا دائماً بعطاء كبير. وما تزال هذه الفكرة حية لدي وتشكل مبدأ أؤمن به.

كان لا بد من حل العلاقة مع السكرتير الثاني كوروفين الذي أمسى العمل معه صعباً من الوجهة النفسية، فبعد مرور بعض الوقت تقدم المكتب باقتراح أن يترأس مجلس سوفيات النقابات في الإقليم حيث عمل برضا كبير. أما المناقلات الأخرى في مختلف الكادر فكانت تتم بصعوبة كبيرة، مما كان يجعلني أتحضر داخلياً في كل مرة

يعـالج فيهـا نقل أحـدهم. كان من الضروري بمكـان تحديـد الكادر العامل في المنظمة. فقد اقترحت عـلى سبيل المثـال على رئيس اللجنـة التنفيذية الإقليمية بوريسوف ترك منصبه وإحالته على التقاعد.

كان الدور الذي اضطلعت به هذه اللجنة تحت قيادته غير كـاف، وكـان على السـوفياتـات أن تهتم بصورة جـديـة بمجـالات الاقتصـاد والثقـافة الاجتـماعيـة والبنـاء في الإقليم، حتى يتسنى أن تنتقـل هـذه الوظائف تـدريجياً من قبضـة الهيئات الحـزبية إلى الهيئـات السوفيـاتية (التمثيلية)، بحيث تتمكن الأولى من مزاولة الشؤون السياسيـة. وقد وافق بوريسوف على الخروج. كنا بحاجة إلى وجه قـوي وذكي ليتولى هـذا المنصب. وبعد غـربلة أجريتهـا في ذهني للقـادة المعـروفـين مني فكرت في أناتولي ألكسندروفيتش مخرينتسف مدير عام مصنع كالينين، حائز لقب بطل العمل الاشتراكي ودرجة مرشح في العلوم (دكتـور)، وهو بشكل عام شخصية ذات خبرة. وكنت أعرف جـوانب شخصيته الإنسانية وذكـاءه اللماع وقدرتـه على استيعـاب الأوضاع بسرعـة دون تهيب المصاعب، فضلاً عن كونه فتيّـاً، فاقـترحت عليه تـولي المنصب الشـاغر. في البـدء رفض، وعاد بعـدَ ذلك ووعـد بالتفكـير في الأمر جدياً، فما كان مني إلا أن ضغـطت عليه حتى وافق في النهـاية وتسلّم العمل. وأعتقد أن ذلك كان قراراً صحيحاً، إذ سرعان ما تكيَّف مع عمله الجديد وإن بالتدريج، فلم يمضِ وقت طويـل حتى بات أقـوى رئيس لجنـة تنفيذيـة إقليمية بـالمقارنـة مـع رؤسـاء آخـرين في أقـاليم جمهوريتنا.

وهكذا، تشكل فريقي بالتدريج قوياً وخلّاقاً وقادراً.

وشرعنا نعدُّ برامج في الاتجاهات الرئيسية على نحو جـدي وعميق ومدروس بعناية. وكنا نناقش كل برنامـج على حـدة في المكتب تمهيداً

لاتخاذ قرار بتنفيذه، فكانت اجتماعات المكتب إما مفتوحة أو مقفلة. أما في الاجتماعات المقفلة فكنا نستمع إلى انتقادات بعضنا في ما تمَّ إنجازه، وكنت أتلقى شخصياً الاعتراضات وأتقبل الانتقادات كذلك. وقد خلقت هذه الحالة العملية المتسمة بالصراحة عن سابق تصميم، كي تتخذ الانتقادات الموجهة إلي طابع الظاهرة العملية الطبيعية، مع أنني لم أكن أوافق دائماً على الانتقادات في حدِّ ذاتها. لعل ذلك كان ناجماً عن كبريائي، ولكني حاولت تجاوزه ما استطعت.

وبدأت مرحلة العمل المحموم، وكما كانت حياتي على الدوام، فقد أغرقت نفسي فيه ولم أشفق عليها. وشيئاً فشيئاً وجد الآخرون أنفسهم يغرقون في لجة العمل بمن فيهم مخرينتسف، فيما جهد آخرون للاقتراب من الإيقاع السائد. وكان ثمة أشخاص لم يقدروا على تحمُّل هذه الوتيرة، إلا أنني لم أُبْدِ تجاههم أي اعتراض خاص، إذ كان الأمر الرئيسي يتمحور حول وجود العطاء، وبالتالي وجود النتائج. وكانت تستعر دائماً الحوارات والمناقشات المفعمة بروحية عملية وطابع بنَّاء. كنّا نجتمع في مناسبات عائلية وبيتية ذات طابع إنساني، الأمر الذي أعاننا في عملنا. ووضعت أمامي هدفاً عملت على تحقيقه: فقد ضم الإقليم خمساً وأربعين مدينة إضافة إلى القرى والبلدات، ليصبح مجموع ما لدينا ثلاثة وستين تشكيلاً مدينياً وريفياً، وكان لا بد من الحضور المادي في كل منها مرة أو مرتين في العام على الأقل. ولقد نفَّذت ذلك فعلاً. ولم تكن زياراتي مجرد رحلات، بل كانت عملاً دؤوباً جدياً. والتقيت مع المجموعات العاملة من اختصاصيين وعمال وكولخوزيين وسكان ريفيِّين.. وقد لا يكون من الصدف الغريبة أن رحلات العمل التقليدية السنوية كانت تتمُّ في عيد ميلادي.

كنت في عيد ميلادي أختفي هـرباً من التهـاني العديـدة، وطبيعي أنني لم أكن لأختفي في البيت أو في المكتب، حيث يمكن العثور علي، بل كنت أتوجه إلى أطراف الإقليم البعيدة فألتقي النـاس في المصانـع والحقـول. . أي في أمـاكن يصعب فيهـا إيجـادي. فـأنـا لا أحب الاحتفال التقليدي بيوم الميلاد حين تجلس إلى الطاولة ويتحلَّق حولها المدعوون ليسفحوا في وجهك مدائحهم حول عظمتك. فـالمرء يشعـر بـالحـرج إزاء مـا يسمـع. كنت أستشعـر سعـادة ورضـا كبـيرين إذا ابتعدت عن المدينة وقصدت الناس لأحلَّ لهم مشكلاتهم. كنت أقدم لنفسي عملياً هدية العيد.

ولقد حاولت باستمرار اختلاق لقاءات أو معارض أو احتفالات أو أعيـاداً ما، كي يشعـر مواطني بتـوحُّدهم مـع المـدينـة وكي يشعـروا بإحساس الفخر حيال وطنهم سڤـيردلوڤسـك وتاغيـل السفلى وغـيرهما من مدن الإقليم.

كتب أناتولي كاربوف في مؤلفه: «وغداً. . ثـانية إلى المعـركة» بعـد فوزه على كورتشنوي، أن إقليم سڤيردلوڤسـك الرحب ـ وهـذا كلام حق ـ ليس فيـه نواد للشـطرنج. وبعـد أن قـرأت ذلـك اتصلت بـه وقلت له: «تعال نحدِّد الشهر والتاريخ، ومتى أتيت إلى سڤيردلوڤسك سيكون فيها ناد للشطرنج». واتفقنا على الزيارة وبدأ العمـل. أخلينا مبنىً قـديماً وأجـرينا تصليحـات كاملة فيـه وأفردنـا فيه صـالة واسعـة وأثثناها بـالمطلوب، فـأصبح لـدينا نـاد محترم للشـطرنج. وبعثت إلى كاربوف ببرقية أحدد فيها تـاريخ زيـارته المنتـظرة. ولم يأت بمفـرده بل بصحبة رائد الفضاء سيڤاستيـانوڤ رئيس اتحـاد الشطرنـج في البلاد. كان هناك جمع كبير من النـاس أمام النـادي الجديـد، وحين آن وقت قص شريط الافتتـاح قلت لأناتـولي كاربـوف: تفضَّل قص الشريط،

فأنت صاحب المبادرة. وأكملنا العيد في صالة اللعب. وقبل ذلك كنت قد طلبت إلى لاعبينا المحليين أن يكتبوا على لوحة من الكرتون استشهاداً حرفياً من كتابه حيث يقول إنه لا يوجد في إقليم سڤيردلوڤ ناد للشطرنج. وعندما بدأ كارپوڤ بإلقاء كلمته حملوا إليه اللوحة الكرتونية مقترحين عليه تمزيقها وقطع وعداً بأنه سيصحح العبارة في طبعة الكتاب الثانية بما يزيل هذه النقطة السوداء من واقع حياة الإقليم. وبسعادة كبيرة مزَّق كارپوڤ اللوحة أمام دهشة الجميع. إثر انتهاء الاحتفال أوصلته بنفسي إلى حدود الإقليم في طريقه إلى مسقط رأسه «زْلَاتَو أوسْتْ».

ولم أتوقَّف عن مزاولة النشاط الرياضي. وبالطبع لم أكن لألعب لصالح أي من الفرق، إلا أنني شكلت من أعضاء مكتب القيادة الإقليمية فريق كرة طائرة. وسرعان ما بات من الصعب تصوُّر حياة اللجنة الإقليمية دون الكرة الطائرة. كنا نلعب مرتين في الأسبوع: أيام الأربعاء والآحاد من السابعة والنصف حتى العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً. كانت تشترك في الفرق المتشكِّلة عائلات بأكملها، وعلى سبيل المثال كانت نيليا جيتانييڤا وليدا پتروڤا (زوجتا سكرتيرين) لاعبتين ممتازتين. وكانت المباريات تتسم بحرارة كبيرة، بل أكاد أقول إن الحماس فاق بكثير ما تتسم به اللعبة نفسها. كان ذلك مفيداً ومثيراً بقصد إزالة التوتر والتخلُّص من إرهاق العمل. وأخذت أيضاً أمارس رياضات أخرى، فضلاً عن تمارين الصباح بالطبع.

ومنذ بداية عملي سكرتيراً عكفت على إجراء لقاءات دورية مع مختلف فئات العاملين. ويتراوح هؤلاء بين مدراء المدارس والمعلمين وبين العاملين في مجال الصحة العامة وعددهم يربو على الألف، كما التقيت أكثر من ألف وخمسمائة طالب ومهندسين وحرفيين وأمناء

حزبيين ومدراء مؤسسات ومصانع وغيرهم كثير. ولا أنسى هنا أن أشير إلى لقاءاتي بالمثقفين المبدعين وعلماء الاجتماع والعلماء. وكان المتّبع في هذه المرحلة عدم الإجابة على الأسئلة المشبوهة، فإذا ما عقد لقاء أو مؤتمر يكون السبب تكريم كاتب عظيم أو مارشال أو بطل للمرة الرابعة وغير ذلك من الحجج والذرائع.

وفي هذه الحقبة من عهد بريجنيف لم يكن هذا الأخير يدير البلاد، ولنقل إنه كان يتخلّى عن ذلك شيئاً فشيئاً. وقد سار على طريقه أمناء اللجنة المركزية الآخرون، فكنا نقوم عملياً بإدارة شؤوننا باستقلال تام. كنا نتلقّى بعض التوجيهات والقرارات من اللجنة المركزية وذلك بما يشبه رفع العتب ولكتابة التقارير. فعندما كنا نزور موسكو مثلاً لتحريك قضية ما، لم نكن نملك الحق في الإقليم بالتصدي لها بالحل ـ كبناء بعض المشروعات أو بتوفير المواد والمنتجات الغذائية أو الاعتمادات المالية ـ نعرّج بالطبع على اللجنة المركزية لنزور المسؤول المختص الذي يدير هذا القطاع أو ذاك، وهذا كل شيء. ومن الأشخاص الذين كنت ألتقي بهم نائب رئيس قطاع اسمه پاڤل ڤاسيلييڤيتش سيمونوف، وهو بالمناسبة إنسان رائع ينهج نهج عدم التدخل في شؤون منظمتنا الحزبية مع أنه كان يعرف بالتفصيل أوضاعنا وكيف تسير الأمور وما هي مشاكلنا. فقد كان يتصل بنا هاتفياً أو يقوم بزيارات خاطفة.. بكلمة كان الجو التعاوني يسود علاقتنا.

في بداية عملي سكرتيراً أول علمني درساً عظيماً لا يمكن أن أنساه. أقيم في المدينة معرض للأفيشات السياسية فذهبت لافتتاحه، وعندما دخلنا التُقطت لنا صورة صدرت فيها بعد في صحيفة الإقليم الحزبية «أورالسكي رابوتشي» (عامل الأورال). في اليوم التالي رن جرس

التلفون في المكتب، فالتقطت السماعة فإذا به صوت سيمونوف الـذي بدأ بتربيتي، وكان يتقن هذا الفن: لم يـرفع من صـوته ولكنـه أغرقني بالهزء والسخرية. قال: «كم تبدو جيداً في الصورة، بل جيداً جـداً، أعتقد أن لدينا شخصاً ذا وجه فوتوجيني تماماً، والآن سيعلم كل من في الإقليم أنك كذلك»... واستمر يقرعني على هذا المنوال. كـانت لـه قدرة عـلى التغلغل عميقـاً تحت جلدك، مع أنـه لم يكن يستخـدم كلمات قـاسية. وبشكـل عام فقـد لقّنني درساً جيـداً لن أنسـاه مـدى الحياة، مما دفعني بعد ذلك إلى التأكد من عدم نشر صوري في جريدة الحزب الإقليمية.

لكن أشخاصاً كسيمونوف يعتبرون استثناءات في اللجنة المركـزية. فقد كنت أزور مقرهـا عادة تبعـاً لما كـان معهوداً، وقـد عرّجت عـلى رازوموف مرة أو مرتين من قبيل إزالة أي فكـرة سيئة قـد تنشأ لـديه. وكانت زياراتي إلى أمنـاء اللجنة المـركزيـة لمجرد التعبـير عن إحساس بالتقدير وإظهار الاحترام، أما المسائل الحقيقية فيجب حلها في مجلس الوزراء، الذي ربطتني بأعضائه علاقات جيّـدة، بما فيها العلاقـة مع رئيسه تيخونوف، حيث اتسمت بطابع عملاني عـادي. أما ريجكـوف فقد عرفته منذ كان في سفيردلوفسك عندما عمـل مديـراً عامـاً لشركة «أورال مـاش». وقد انتقـل فيها بعـد إلى الوزارة ومن ثم إلى تخـطيط الـدولة ليستقـر بعده في اللجنـة المـركـزيـة. وعنـدمـا عُـيِّن نيقـولاي إيفانوفيتش (ريجكوف) رئيساً لمجلس الـوزراء حاولت ألاّ أستفيـد من هذه العلاقة.

وهاكم مثالاً آخر من حياة قيادة البلاد في تلك الحقبة. كان لا بـد من إثـارة مسألـة بناء مـترو الأنفاق في سفـيردلـوفسـك التي بلغ عـدد سكـانها مليونـاً ومائتي ألـف نسمـة، ولتحقيق ذلك احتـاج الأمـر إلى

استصدار قرار من المكتب السياسي، ولذا فقد قرَّرت التوجُّه إلى بريجنيڤ فاتصلت به. قال لي: «إذن، تعال». ولأنني كنت أعرف أسلوب عمله في تلك الفترة فقد حضرت رسالة صغيرة بحيث لم يبق إلاَّ أن يضع عليها توصيته. ودخلت عليه فلم يستغرق الحديث أكثر من خمس أو سبع دقائق. . كان يوم الخميس، وهو عادة آخر يوم عمل له في الأسبوع، إذ كان يغادر الجمعة إلى منزله في زاڤيدوڤو فيمضي الجمعة والسبت والأحد. وعادةً ما كان يعجل في حل بعض القضايا قبل المغادرة. ولكنه لم يستطع أن يصوغ التوصية بنفسه فقال: «هيا قل لي ماذا علي أن أكتب». وأخذت بالطبع أُمْلي عليه: «إعلام المكتب السياسي بوجوب تحضير مشروع قرار بصدد بناء مترو في سڤيردلوڤسك». وكتب ما أمليته ثم وقَّع وأعاد لي الورقة. ولما كنت أعرف أنه يمكن لهذه الورقة أن تضيع وسط الأوراق والوثائق قلت له: «لا، أرجو أن تستدعي مساعدك»، وقد استدعاه فعلاً، وتابعت قائلاً: «وأرجو أن تصدر تعليماتك إليه بأن يسجل الوثيقة أولاً، وأن ينفذ توجيهاتك رسمياً، ثانياً بأن يوزعها على أعضاء المكتب السياسي». وبصمتٍ نفَّذ ما قلته وأخذ مساعده الأوراق، ثم توادعنا. وسرعان ما حصلت سڤيردلوڤسك على قرار من المكتب السياسي يقضي بإنشاء المترو.

إنه مثال نموذجي. فعلى ما أعتقد لم يكن بريجنيڤ يعي بشكل عام في الآونة الأخيرة ماذا كان يفعل أو ماذا يوقِّع أو بماذا ينطق. أما السلطة فقد كانت كلها بين يدي المتحلقين حوله. والوثيقة الخاصة بمترو سڤيردلوڤسك التي وقَّعها، وقَّعها دون أي تفكير في ما أمليته عليه. ولكنها كانت قضية جيدة، ومع ذلك فكم من العابرين الأشقياء معدومي الشرف، بل كم من المجرمين في نهاية المطاف،

استخدم بريجنيف لتحقيق المآرب وتمرير القضايا القذرة؟ كم من التوصيات خطها بهدوء ودون تمعُّن رفعت من شأن أناس وسبَّبت الشقاء والألم لأناس آخرين. . إنه لمن الفظاعة تصوُّر ذلك! . . .

أما في ما يتعلق بي فلم يجرؤ أحد من الأصدقاء أو الأقارب أو الأهل أو المعارف الأبعدين أن يحاول حتى التوسُّط لدي لتحقيق غاية شخصية خاصة. ومن المعلوم جيداً الآن أي حدود في سنوات الركود بلغتها الحمايات والفساد والاهتراء الذي أصاب نظام السلطة برمته. لقد كان رأي السكرتير الأول قانوناً يستحيل أن يوجد شخص ما يجرؤ على عدم تنفيذ طلب أو توجيه صادر عنه. وقد استُخدِمَت هذه السلطة من قبل العاملين الحزبيين النفعيين والمحيطين بهم دون أي رقابة أو إشراف. ولأنهم كانوا يعرفون طبعي فإنهم لم يكونوا يجرؤون على طلب أي شيء من هذا القبيل. بل إنني أكاد لا أستطيع التنبؤ بما ستكون عليه ردة فعلي لو أن أحداً تجرَّأ وطلب مني تحقيق غاية خاصة.

أجل، كانت سلطة السكرتير الأول عملياً غير محدودة، والإحساس بالسلطة عادة يدير الرؤوس ويذهب العقول. ولكن عندما تستعمل هذه السلطة فقط لتحقيق هدف واحد: لجعل الناس يعيشون حياة أفضل، يتبين أنها غير كافية لجعل الإقليم يحصل على غذائه بصورة طبيعية وتكون لمواطنيه مساكن. . . فهي، أي السلطة، تكفي لترتيب وضع جيد لأحد ما في عمله، أو لتدبير شقة رائعة لآخر، أو لتوزيع الخيرات على الزبانية والأنصار. هذا ما كان يحصل، بل وهو ما يحصل الآن أيضاً. فمن يعيش في هذه الشيوعية بضع عشرات من الأشخاص، أما الشعب فهو آخر الهم.

وإذن كان سكرتير الإقليم في تلك الفترة طبعاً يقرب من أن يكون

إلهاً. هو مالك الإقليم وصاحبه. . . أما آراؤه في أي موضوع أو قضية فكانت قرارات نهائية غير قابلة للمراجعة. وأنا قد استعملت هذه السلطة ولكن من أجل الناس ولصالحهم، ولم أُفِدْ منها لنفسي قط. وفرضت أن تدار عجلة الآلية الاقتصادية بسرعة، وكانوا يخضعون لي ويطيعون، وبسبب ذلك بدا لي أن مؤسسات الإقليم عملت بصورة أفضل.

أما ما لم أتدخَّل فيه مطلقاً فهو القضايا القضائية، أي ممارسات الادِّعاء والقضاء. ومع ذلك، فقد حدث مرة أنني أنقذت مدير مصنع خياطة اتُّهم بتبذير المواد في مؤسسته، فانبريت أدافع عنه. ذلك أنني أشفقت على هذا المدير الشاب، خصوصاً أنني كنت على معرفة بطبيعة عمله وإدارته التي غرق فيها حتى أذنيه. كان شاباً جيداً بذل جهداً فائقاً في العمل وكان من المؤسف أن يضيع. لم يكن في نشاطه شيء مقصود بل إن من حوله أخطأ، فيما تحمَّل هو مسؤولية بعض الأخطاء، مما لا يمكن اعتباره جريمة يعاقب عليها القانون. يمكن مثلاً معاقبته إدارياً، ولذا فقد طلبت أن يُنظر باهتمام في قضيته، وهكذا احتفظ المدير بحريته.

وانعقد المؤتمر السادس والعشرون للحزب. وحضَّرت نفسي بصورة جادة بالطبع لأوجه الضربات إلى هذا المستنقع الراكد الثقيل الذي غطَّى البلاد. وعلى الرغم من أن خطابي جاء عنيفاً فإنه كان كذلك على خلفية التمجيد والإطراء الموجَّهين إلى بريجنيف، ولكن كما قلت في المؤتمر السابع والعشرين، كانت تنقصني ـ على ما يبدو ـ الخبرة، وبشكل رئيسي الشجاعة السياسية، حتى يتسنى لي خوض معركة حاسمة ضد نظامنا الحزبي ـ البيروقراطي العفن. وإضافة إلى ذلك لم أكن أعرف أعضاء اللجنة المركزية بدرجة كافية، الأمر الذي

كان يمكن أن يؤثِّر نوعاً ما، مع علمي التام بأن المركز لا يعمل.

ولا بد من القول إننا تقبلنا مجيء غورباتشوف أميناً عاماً للجنة المركزية بحماس كبير، وداعبنا الأمل بأن الوضع سيتحسَّن في المناطق الريفية جدياً، ولكن ذلك لم يحدث. وبدا أنه لم يلتقط طرف الخيط الرئيسي في الموضوع، وأما محاولات الإصلاح المتسرع للوضع في الزراعة لإحداث تطور ما فقد باءت بالفشل.

تعرفت إلى غورباتشوف عندما عمل كل منا سكرتيراً أول، إذ كان يقود منظمة إقليم ستافروبول الحزبية. في البدء تم تعارفنا بالهاتف حيث تبادلنا الاتصال طالبين مساعدة متبادلة لحل بعض القضايا ولتأمين بعض المواد. فمن الأورال كنا نرسل المعادن الخام وأخشاب الغابات ومن ستافروبول استوردنا المواد الغذائية. ولم يكن غورباتشوف يتجاوز عادة الاعتمادات، إلا أنه أسدى دائماً المساعدة وفق قاعدة التبادل.

وعندما انتخب أميناً عاماً للجنة المركزية دنوت منه وصافحته مهنئاً من كل قلبي، بعدها تتالت زياراتي له لبحث الأوضاع الزراعية في إقليم سفيردلوفسك، وكانت ـ أي هذه الأوضاع ـ تتميز بعدم الثبات، مما شكَّل قضية شائكة.

وكنت عندما أدخل مكتبه نتعانق بحرارة. كانت علاقاتنا ممتازة. وأعتقد أنه كان مختلفاً، بل أكثر انفتاحاً لدى تسلُّمه مهامه في اللجنة المركزية، كان المرء يشعر بحرارة إخلاصه وصراحته. وكان يحدوه أمل كبير في تصحيح المسيرة في القطاع الزراعي، فعمل جاهداً وأبقى على علاقة وطيدة بالجمهوريات والأقاليم والمناطق.

وبالصدفة، وقع في يوم من الأيام ما شكَّل بداية برودة العلاقة مع

غورباتشوف.

فقد وصلت إلى سفيردلوفسك لجنة دورية من قبل اللجنة المركزية، وكانت يومها كثيرة العدد، للقيام بدراسة وضع الريف الزراعي. ومن المفهوم أنه إلى جانب الإيجابيات الكثيرة وجدوا غير قليل من النواقص والثغرات. ولكن التقرير تضمّن تشويهات بيِّنة، فأقرت أمانة اللجنة المركزية قراراً مقتضباً دون استدعائي إلى موسكو، وما حدث هو أننا أُبلغنا به فحسب. وبعد مضي بعض الوقت قام نائب رئيس القسم الزراعي في اللجنة المركزية كاپوستيان، فجمعنا القيادة وألقى فيها كلمة ارتكزت إلى مضمون قرار أمانة اللجنة المركزية. وألقيت بدوري كلمة في الاجتماع. وبصورة رئيسية أبديت موافقة على الاستنتاجات التي خلصت إليها اللجنة، غير أنني استدركت قائلاً إنني لست موافقاً على القرار في بعض جوانبه، ثم عدَّدتها. وكان المجتمعون يدركون ماذا يعني عدم الموافقة على قرار صادر عن اللجنة المركزية، فازداد الجو توتراً. وتكلم كاپوستيان مرة ثانية فتبعته بكلمة حادة بعض الشيء. ولم يمض وقت قصير حتى استدعيت إلى موسكو.

لقد سبَّبت هذه اللجنة كثيراً من المعاناة. كنت أفكر في الليل محدثاً نفسي: هل أنا محق أم مخطىء، معيداً بسط وجهة نظري. في ذلك الحين حضر كاپوستيان مع رازوموف - الذي كان يشغل منصب نائب رئيس قسم التنظيم في اللجنة المركزية - كتاباً إلى اللجنة المركزية قالا فيه إن الرفيق يلتسين لم يقوِّم الثغرات الموجودة في الإقليم على نحو موضوعي، وبالتالي فإنه لم يوافق على بعض النتائج التي خرجت بها اللجنة، وإنه تناول بالنقد بعض موضوعات القرار إثر صدوره عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي بحيث يكون

قد خالف التنظيم الحزبي بتصرفه هذا. . . وهلمجرا من التقوُّلات.

وبعد وصولي إلى موسكو علمت بأمر هذا الكتاب، فلما ذهبت إلى اللجنة المركزية لم أتعجب حين قيل لي إن كاپيتونوف بانتظارك. قال: «بوريس نيقولاييڤيتش، وردت رسالة إلى اللجنة المركزية من قسمين، . . . وقد طُلب إلي. . حسناً لم يطلب مني التكلم معك، بل يجب ـ على العموم ـ أن تعرف بشأنها»، وناولني الرسالة. قرأتها وكررت مرة جديدة ما سبق وقلته في كلمتي أمام اجتماع قيادة منظمة الإقليم، وباختصار قلت إنني لا أوافق على جملة من الاستنتاجات الواردة في قرار اللجنة المركزية. غير أن كاپيتونوف لم يرغب في التوسُّع بتناول الموضوع، فانتهى اللقاء وافترقنا.

وفي هذه الزيارة عرَّجت على غورباتشوف. استقبلني وكأنَّ شيئاً لم يحدث، وتجاذبنا أطراف الحديث في مواضيع شتى، وعندما هممت بالخروج قال لي: «هل قرأت الرسالة؟». جاءت لهجته تنبىء عن شعور داخلي لديه بعدم التأييد والموافقة على ممارساتي. قلت: «أجل، قرأتها». فرد غورباتشوف بجفاء وحزم: «يجب أن تستخلص نتائج ما!»، فأجبته: «أعتقد أنه يجب استخلاص النتائج من قرار المركزية وهذا ما يُفعل، أما من تلك الوقائع غير الموضوعية التي أتت الرسالة على ذكرها فلا نتائج يمكنني استخلاصها». قال: «ومع ذلك فلا بأس من أن تفكر». وكان غورباتشوف يستخدم مع الجميع صيغة المخاطب المفرد(*)، بل مع الجميع بالمطلق. إذ أنني لم ألتق شخصاً

(*) في اللغة الروسية تستخدم صيغة المخاطب بالجمع للتدليل على احترام المتكلم للمخاطب، أما صيغة المفرد فيتداولها الأصدقاء في ما بينهم تدليلاً على التبسُّط، وقد يُفهم منها التحقير وعدم الاحترام في حال وجود التوتر أو سوء النية في العلاقة ـ (المترجم).

واحـداً تحدث معـه غوربـاتشوف بصيغـة المخاطب الجمـع، وكذلـك كـانت علاقتـه بمن هم أكبر منـه سنـاً في المكتب السيـاسي من أمثـال غروميكو وشربيتسكي وڤوروتنيكوف. أهو نقصان في الثقـافة أم مجـرد عـادة؟ يصعب القول. ولكني كنت أشعـر عـلى الفـور بعـدم ارتيـاح داخلي حالما كنت أسمعه يخاطبني بصيغة المفرد، وكنت أقاوم في داخلي أيضاً طريقته في التوجُّه غير أنني لم أكلمه في هذا الصدد.

وانتهت واقعة الرسالة واللجنة عند هذا الحد.

في الـوقـت الـراهن، أي في عـهـد الانفـتـاح والمكـاشـفـة (الغلاسنوست)، تروى أشياء كثيرة عن منزل عـائلة إيپاتييڤ الـذي أعـدم القيصر مع عـائلته في قبـوه. وهذا أمـر طبيعي أن يعـود المرء فينبش في تـاريخـه عن مكـامن الـتزويـر والتلفيق والكـذب والتعتيم. فالبلاد تريد معرفة الحقيقة عن ماضيهـا، حتى لو كـانت هذه الحقيقـة رهيبة ومُرَّة. ولقد كانت مأساة عائلة رومانوف القيصرية، بـالمناسبـة، ذلـك الجزء الـذي لم يكن مسموحـاً التداول بـه لدى تنـاول تـاريخنـا بالبحث.

ولقد هدم منزل آل إيپاتييڤ في تلك السنوات التي شغلت خلالهـا منصب سكرتير أول منظمة الإقليم. وسأروي كيف حدث ذلك.

غالباً ما كان الناس يزورون البيت المذكور، مع أنه لم يتميـز كثيراً من حيث قـدمه بـالمقارنـة مع البيـوت الأخرى القـائمة حـوله، وقـد وُضعت فيه مناضد صغيرة، ولكن الأحـداث المأسـاوية الفـظيعة التي جـرت فيه عـام ١٩١٨ جعلت الناس يقـتربون منـه ويسترقـون النظر خـلال النوافـذ، ثم يقفون أمـامه بكـل بساطـة صامتين.

وكما هو معلوم فقد أعدمت عائلة رومانـوف رمياً بـالرصـاس بأمـر

صادر عن مجلس سوفيات الأورال. ولقد قصدت أرشيف الإقليم وقرأت كل وثائق تلك الفترة. وحتى وقت غير بعيد لم يكن أحد يعلم أي حقائق جديدة عملياً عن هذه الجريمة. فما هو متوفر لا يزيد عن كونه رواية ملفّقة نشرت في «موجز تاريخ» البلاد، ولذا يمكن للقارىء أن يتصوَّر بأي عطش كنت أطالع تلك الصفحات العائدة لسنة ١٩١٨. وقد نشرت في صحافتنا - في الآونة الأخيرة - بعض هذه الوثائق التي تناولت أيام عائلة رومانوف الأخيرة، أما قبل ذلك فقد كنت واحداً من بين القليلين الذي اطلعوا على سر الإعدام الرهيب. لقد كانت قراءة هذه الصفحات صعبة وقاسية.

دنا موعد إحدى المناسبات المتعلقة بحياة آخر قيصر روسي. وكما كان الأمر دائماً، ظهرت أبحاث جديدة في صحافة الغرب كان يُذاع بعض تفاصيلها عبر أثير الإذاعات الموجَّهة باللغة الروسية. وكان ذلك يدفع بالناس إلى زيارة منزل إيباتييف آتين من مدن أخرى. وكنت لا أعلق أهمية كبيرة على الموضوع بل أتقبل الوضع بهدوء كامل، لأنني كنت أعي أن هذا الاهتمام لم يكن نتيجة مشاعر حنين إلى القيصرية أو رغبة في بعث قيصر جديد. فما كان في أساس الاهتمام ليس أكثر من فضولية وإشفاق واحترام ذكرى، أي عواطف وأحاسيس إنسانية طبيعية.

ولكن معلومات وردت إلى موسكو عبر بعض الأقنية والمسالك تنبىء عن عدد كبير من الزوَّار يحجُّون إلى منزل إيباتييف. ولست أدري أي آليات بدأت تعمل حتى أصاب إيديولوجيينا الرعب، فتعقد الاجتماعات واللقاءات. وما لبثت أن تسلمت بريداً سرياً من موسكو.

فضضت الرزمة وبدأت أقرأ. لم أصدق ما تقرأه عيناي. ثمة

تعميم داخلي صادر عن المكتب السياسي في صدد هدم منزل إيپاتييف. ولأن التعميم سري فقد عنى ذلك أن على منظمة الحزب الإقليمية تنفيذ المهمة وتحمُّل مسؤولية هذا القرار السخيف.

وهكذا، ففي أول اجتماع لمكتب المنظمة اصطدمت برودة فعل الفريق الآتي من موسكو. إذ كان من المستحيل عدم تنفيذ قرار المكتب السياسي السري. وبعد بضعة أيام تقدَّمت الجرارات ليلاً من منزل إيپاتييف، ولم يطلع الصباح حتى كان قد أزيل بالكامل من على وجه الأرض، وتمَّ تعبيده بعد حين.

وهاكم مشهداً حزيناً آخر من حقبة الركود. كنت أدرك تماماً أن العار سيلحق بنا جميعاً إن عاجلاً أم آجلاً من جراء هذا العمل البربري. سيكون ذلك مخجلاً ولكن ليس في استطاعة أحد تغيير شيء.

وبالمناسبة أود الإشارة إلى أنه سيكون مثيراً أن تتخذ اللجنة المركزية قراراً بنشر جميع تعاميم المكتب السياسي وقراراته، العلنية والسرية.

وفي اعتقادي أنه حان الوقت لاتخاذ قرار كهذا، إذاً لانكشف الكثير من الأمور ولأمكن تفسير ما لم يكن له تفسير.

لقد أجرينا في الإقليم نشاطاً دعائياً واسعاً. وكنت أعمد إلى تحليل الأوضاع القائمة بصراحة، وقد أسعفني أن أخبار مداخلاتي لم تبلغ القيادة، ذلك أن المسؤول المباشر سيمونوف كان يضمها إلى الأرشيف بهدوء دون أن يلاحظ أحد. ذلك أنه لم يعد هناك في الأورال مبخِّر واحد من المبخِّرين لبريجنيف، المنتشرين في أنحاء البلاد. بل كانت تسود موجات التنكيت عند بعضهم فيما ساد عند بعضهم الآخر عدم

فهم الوضع. أما الفئة الثالثة فقد كان يساورها الشعور بالقرف، فقد رأت إلى أين تسير البلاد فآثرت أن تجابه كل ذلك بالعمل المخلص الشريف في المواقع الملموسة. ففي إحدى جلسات المصارحة التي جمعتني بفيدل كاسترو ـ وكانت تجمعنا صداقة تتميز بثقة متبادلة ـ قال لي: «إنه لمن العبث أن تغضب وتوتر نفسك، الوضع بكل بساطة لم ينضج بعد للقيام بالعمل المطلوب. . لم ينضج . . ثمة مركز لديكم قوي جداً، إنه كالدرع يمنعكم من القيام بأي شيء».

ولم تكن العلاقات والاتصالات بأعضاء السوفيات العسكري التابع لقيادة الإقليم العسكرية بالعلاقات والاتصالات السيئة: من هؤلاء سيلتشنكو وتياغونوف وغماشكوف وغيرهم. وكثيراً ما كنت أقوم بجولات استطلاعية في أوساط القطاعات العسكرية في الأورال على مختلف المستويات والأسلحة. وكان يرافقني أعضاء مكتب منظمة الإقليم حيث كانوا يقودون الدبابات ويتلقون التدريب على الطائرات أيضاً. كما أسهمنا مع العسكريين في ترميم ثكناتهم ومساكن عائلاتهم، وهو أمر اعتبرته ضرورياً، نظراً إلى الظروف السيئة التي كانت عليها. فوزارة الدفاع، بشكل عام، تعتبر الجنود تابعين لا صوت لهم. وعندما تساءلت في اجتماع إحدى الفرق: لماذا لا تمارس الانتقادات من تحت؟ ولماذا الجنود صامتون؟ أيعقل أنهم لا يملكون شيئاً يودون الكلام عليه؟ أثارت تساؤلاتي الارتباك والذهول وبلغت الأنباء القيادات العليا، إلا أنهم ابتلعوها. واستمريت أنهج الطريقة نفسها. وبالتدريج، بدأت تتكوّن حركة واقعية في أوساط المنظمات الحزبية والشبابية، إذ راح الكومسومول يمهدون نوعاً ما لإصلاح الأوضاع، ثم ما لبثت العدوى أن انتقلت إلى الاجتماعات في المنظمات الحزبية في نهاية الأمر، كما بدأت الانتقادات في اللقاءات مع

الجنود تتراكم ضد القيادات. وكنت أعتقد أن هذه المسألة ملحّة وضرورية.

وكانت تجمعني أيضاً علاقات جيدة بلجنة أمن الدولة «كي. جي. بي ـ KGB» الإقليمية، حيث كان مديرها يو. إي. كورنيلوف يشارك في اجتماعات منظمتنا بوصفه عضواً مرشحاً في المكتب السياسي للحزب. وكثيراً ما كنت أقوم بزيارته في مقره وأطلب منه إطلاعي على عمل جهازه فدرست بذلك نظام النشاط المعتمد في لجنة أمن الدولة وكيف تقوم بوظائفها، كما تعرفت على كل قسم موجود فيها. وكنت أعرف أن هناك مسائل لم يكن بوسعه إطلاعي عليها، ومع ذلك فقد درست بنية اللجنة ونظامها جيداً وبصورة كافية. ولهذا السبب تحديداً، لم تأت مداخلتي التي قدمتها في دورة مجلس السوفيات الأعلى صيف ١٩٨٩ ـ وأكد ما جاء فيها كريوتشكوف رئيس الـ «كي. جي. بي» ـ مصادفة، ذلك أنني كنت على معرفة بهذا الجهاز المغلق، المجهول من أكثر الناس.

في إحدى المرات وقعت حادثة مأساوية متعلقة بانفجار لمرض الحمّى السيبيرية. وللتحري عن أسباب الوباء وصل إلى سڤيردلوڤسك نائب رئيس الـ «كي. جي. بي» ڤ. پ بيروجكوف. كان ذلك أثناء سنوات عملي الأولى. كنا ثلاثة في مكتبي: أنا وبيروجكوف وكورنيلوف. كانت جلسة هادئة أشار فيها كورنيلوف إلى أن إدارة الـ «كي. جي. بي. » تجمعها علاقة صداقة وتعاون مع قيادة المنظمة الحزبية الإقليمية. وفجأة صرخ پيروجكوف: «أيها الجنرال كورنيلوف انهض! » فما كان منه إلا أن قفز واقفاً من وقع المفاجأة، أما أنا فقد أصبت بالذهول. وأردف بيروجكوف بكلمات كان يصر على مخارج حروفها من بين أسنانه: «إنك تقطع رقبتك حتى الوريد أيها

الجنرال، ففي كل نشاطك العملي يجب ألاّ تعمل بصداقة مع المنظمات الحزبية، بل يجب أن تعمل تحت قيادتها فحسب». هذا ما حدث تماماً. . . مشهد تربوي جرى أمامي.

ويجب القول إنه لم يتم القبض خلال سنوات عملي العشر على أي جاسوس أو عميل مطلقاً برغم كثرة المحاولات، وكان هذا مما يأسف له كورنيلوف ويجعله يعتقد أنه يعمل بصورة سيئة: «في أقليم كهذا ألاّ يقع ولو جاسوس واحد في قبضتنا؟ ومع ذلك فلا جواسيس!».

كثيراً ما كانت تتولّد أوضاع حرجة. فعلى سبيل المثال أذكر حادثة الانفجار التي وقعت في محطة بيلويارسك النووية ليلة ٣١ كانون أول ـ (ديسمبر) ـ ١ كانون ثاني (يناير) ١٩٧٩، عندما سجّلت الحرارة هبوطاً شديداً بلغ حدود ٥٧ درجة مئوية تحت الصفر. ووقعت في نواحي مختلفة من الإقليم عدة حوادث ضخمة بصورة مفاجئة. ففي عنبر الآلات التابع لمحطة بيلويارسك النووية لم تتحمل المنشآت المعدنية القدرة الإجهادية، مما سبّب اندلاع شرارت بلغت خزانات الزيت فاشتعلت فيها النار وكان حريق كبير. بذل الاطفائيون جهوداً استثنائية تجلت فيها البطولة والشجاعة. كانوا يسحبون كل قدرتهم البشرية من سفيردلوفسك ويقذفون بعناصرهم إلى موقع الكارثة حيث كان من المستحيل العمل دون ارتداء الأقنعة الواقية من الغازات الكثيفة الناجمة عن احتراق البلاستيك. كانت الجهود تنصب على منع وصول النيران إلى صالة المفاعل النووي. وقد جهزت مئات الباصات لإجلاء سكان القرية، وانتصر الاطفائيون رغم كل شيء على النيران بالتعاون مع أخصائيين آخرين وربحوا المعركة وأنقذوا المحطة والناس قبل كل شيء. . . كان يمكن أن ينجم عواقب وخيمة كارثية، فالإقليم مكتظ بالمؤسسات العسكرية. وفي

خلال الحرب استقرت في هذه المنطقة مصانع أجليت من أمكنتها بعيداً عن الجبهة، وكان عددها يربو على ٤٣٧ مصنعاً ضخماً، فضلاً عن بعض المصانع التي كانت موجودة في أراضٍ سقطت تحت الاحتلال الفاشي. وليس من المبالغة في شيء القول إنه عندما تم نقل هذه المصانع إلى الأورال كانت تركّب الآلات على قاعدة من الإسمنت لا يغطيها سقف ولا تحيط بها جدران ويبدأ الإنتاج على الفور لدعم الجبهة.

أما الناس فقد استقروا في الخنادق والسراديب والتخشيبات المموَّهة. ولعل إقليمنا هو الأول بين الأقاليم من حيث عدد التخشيبات المؤقتة التي بنيت أيامذاك. ولأنني عشت في إحدى هذه التخشيبات ـ وقد ضمت الواحدة منها من عشر إلى عشرين عائلة ـ مدة عشر سنوات فإن مجرد رؤيتها أو ذكرياتها يثير فيَّ شجوناً ومشاعر حزينة. فمن غير الجائز أن يعيش الإنسان في القرن العشرين على هذه الصورة أو في ظل ظروف مماثلة. وعندما تسلمت مهام القيادة في الإقليم كانت ثمة عدة آلاف من العائلات في سفيردلوفسك ما تزال تسكن التخشيبات. وفي وقت لاحق اتخذ قرار يقضي بتصفية كل التخشيبات في أنحاء البلاد في غضون عشر سنوات. وكان واضحاً بالنسبة إلي أن أحداً لا يمكن أن يتحمل فترة زمنية طويلة كهذه، فعلينا أن ننتهي من هذه المسألة في فترة أقصر ونضع لها نهاية مرة واحدة وإلى الأبد.

وطلبت من المسؤولين في المدينة أن يجروا حسابات لمعرفة حجم حركة البناء المطلوبة، فتبينَّ أنه ينبغي بناء حوالى مليوني متر مربع، عندها فقط يمكن نقل سكان التخشيبات إلى شقق. مليونا متر مربع.. هذا مستحيل.. إن الإقليم كله لا يبني هذا القدر، ثم إن

هناك العُجَّز والعائلات متعددة الأطفال وقدماء المحاربين والمنتظرين أدوارهم في الطابور.

لم يصادفني مرة في حياتي القيادية صعوبة بمثل صعوبة اتخاذ هذا القرار القاسي، فالأمر لا يبدو سيئاً، ومع ذلك فهو ليس جيداً! ما هو الأهم؟ هل نسحب الناس من التخشيبات ونجمِّد طابور المنتظرين شققهم لمدة سنة، أم نعذب أهل التخشيبات عشر سنوات ونضطرهم للعيش في ظروف لاإنسانية، لنعطي المنتظرين شققهم.

وعرضت الأمر في المكتب واتخذنا القرار الصعب: تجميد طابور الانتظار بحيث لن يحصل أحد على شقة خلال سنة باستثناء سكان التخشيبات. ويجب أن يفهم الناس الآن ضرورة مساعدة من يعيشون في ظروف أسوأ. وبالفعل، فقد لاقى القرار تفهماً من قبل الشعب، على الرغم من أن ترويج المسألة تتطلب تفسيراً وشرحاً دائمين. وطار صواب مدراء المؤسسات. كان ذلك بالنسبة إليهم ضربة حاسمة. فقد استفدنا من قدرتهم وقوتهم البنائية، أما هم فلم يحصلوا بالمقابل على شيء. ذلك أن الكلام على الأخلاقيات والمثل لم يكن يحرك فيهم عاطفة. الرئيسي في الأمر أنني تفهَّمت وضعهم. كنت أنا نفسي مديراً اقتصادياً وأعلم تماماً كم ينتظر الناس البناء الذي يشاد، ثم فجأة يعطى لآخرين غرباء. الأمر قاس.

وكي أنقذ الوضع توجَّهت إلى موسكو واليأس ينتابني، فلعلَّ وعسى. التقيت كيريلينكو وشرحت له الوضع قائلاً: «إذا وردت شكاوى فستكون اللعنات موجَّهة إلي، اصبروا على سنة وضعوها في الجارور. لا بد من القضاء على التخشيبات»، فوافقني. ثم توجَّهت إلى كوسيغين أيضاً وشرحت الوضع وقلت إنني لا أطلب شيئاً، لا مواد بناء إضافية ولا قوة عاملة، بل إن ما أحتاج إليه لا يتجاوز

الدعم المعنوي؛ ونلت موافقة ألكسي نيقولاييفيتش (كوسيغين) مع وعد بدعم من مجلس الوزراء.

هذا ما حصل بالتحديد. راح المدراء يكتبون الشكاوى والرسائل ويبعثون بها إلى موسكو، في الوقت الذي كنا نزيل فيه التخشيبات الواحدة تلو الأخرى، حتى لم يعد أحد من أهلها إلا ويسكن شقة حديثة بعد سنة من اتخاذ القرار.

لم أشعر أبداً في يوم من الأيام برغبة في تعداد نجاحاتي وإنجازاتي التي حققتها أثناء اضطلاعي بدور السكرتير الأول. ولم أفعل ذلك حتى بعد مداخلة ليغاتشيف ضدي في الكونفرنس التاسع عشر عندما أكّد قائلاً: «بوريس، لستَ على حق» وشدَّد على أنني نشرت الفوضى في العمل بسفيرلودفسك. وأعتقد أن الجميع يدركون أن هذا كذب، فلم أرد الانسياق في مناقشة لم أعتبرها مجدية.

ومع ذلك فقد عمَّ الرضا حيث بات الوضع التمويني أفضل، إضافة إلى شق طريق سفيردلوفسك - سيروف. وبالمناسبة، أقف الآن عاجزاً عن فهم كيفية نجاحنا في تنفيذ هذا المشروع الضخم من حيث الجهود التي بذلت والأهمية الكبيرة بالنسبة إلى إقليم سفيردلوفسك.

يتميز الإقليم بأن مساحته تشبه قلباً مقلوباً، إذ يمتد من الشمال إلى الجنوب آلاف الكيلومترات فيما لا تتجاوز المسافة من شرقه إلى غربه أكثر من خمسمائة كيلومتر. ساد وضع تاريخي كانت مجموعة مدن الشمال الكبيرة بسببه معزولة عن المركز، أي سفيردلوفسك وتاغيل السفلى لعدم وجود طريق تصلها بهما. وشمالنا غني بالمواد الخام والأحجار والمعادن الثمينة وصناعة التعدين واستخراج فحم كاربينسك وتورا.

وتستغرق الرحلة، إذا استخدمت السكك الحديدية، من كاربينسك وسيروف وسيفيروأورالسك وكراسنوتورينسك إلى سفيردلوفسك أياماً وليالي. وكانت فكرة وصل هذه المدن بمركز الإقليم بواسطة طريق معبَّدة قد نضجت منذ زمن، ولكن المهمة اتسمت بصعوبة فائقة. فالطريق يجب أن تمر عبر مستنقعات ووهدان وعدة أنهر، أما المسافة فتزيد عن ٣٥٠ كلم. ونظراً لطبيعة التضاريس فقد بلغت كلفة الكيلومتر الواحد مليون روبل. وهكذا، تعيَّن توفير مبلغ ٣٥٠ مليون روبل، ولكن من أين؟ ومع مرور الوقت كنا نشعر ضرورة هذه الطريق أكثر فأكثر.

وتوجَّهنا إلى هيئات التخطيط المركزية لرصد الأموال، ولكن سرعان ما وردنا الجواب بالرفض.

جمعت أمناء المنظمات الحزبية على مختلف مستويات المنظمة الإقليمية (مناطق، مقاطعات. . .) وقادة السوفياتات ورؤساء اللجان التنفيذية للتشاور في ما ينبغي عمله. هل باستطاعتنا جلب المساعدات! وتداولنا طويلاً في المسألة، وفي النهاية قررنا تنفيذ المشروع باللجوء إلى قوانا الذاتية فحسب. وقرَّرنا تقسيم الطريق إلى مراحل بحيث تصل كل مرحلة إلى مدينة من المدن المزمع ربطها. وفرضنا على كل مدينة تولِّي شق حصتها من الطريق وتعبيدها مستخدمة مؤسساتها وقواها البشرية والتقنية والتخصُّصية، فتشكل فرق العمل من عمال البناء والمتطوعين.

ولم يكن من الممكن استنهاض هذه الآلية من دون اعتماد تنظيم دقيق للعمل ومراقبة دائمة وعلى أعلى المستويات. فأنشئت لذلك غرفة عمليات أو هيئة أركان تلاحق العمل في كل مراحله، فكنا ننتقل إلى المواقع بالسيارات أو بطائرات الهيلوكوبتر. كان العمل شاقاً

لكثرة المستنقعات والصخور. . . وأعتقد أن الطبيعة فعلت كل شيء وأي شيء لتوقيفنا عن العمل! ورغم ذلك شققنا الطريق وعبدناها بطبقات عدة من الإسفلت حتى تصمد سنوات كثيرة.

وعندما لم يبق سوى عام واحد على الانتهاء من الطريق حددنا شهر الافتتاح، بل تاريخ يومه وساعته. واتفقنا على حجز باصات لِنُقِلَّ بها القيادات الحزبية والسوڤياتية في المناطق التي يعبرها هذا الشريان الحيوي، كما قررنا أن الجهة التي لم تقم بالتزامها أو تأخرت في تنفيذه لن يسمح لقادتها بمرافقتنا في الرحلة. . . وقد حصل ذلك بالفعل. هكذا ظهرت على الخريطة طريق سڤيردلوڤسك ـ سيروڤ الجديدة وليدة كل سكان الإقليم وابنتهم. كانت بالنسبة إلينا انتصاراً مشتركاً عزيزاً على قلوبنا.

قد يقال، الآن، أليس هذا أسلوباً إدارياً ـ أوامرياً مقيتاً. . أقول وماذا كان يمكن عمله. . كان الأسلوب الوحيد الذي أثمر آنذاك.

أنا ربيب هذا النظام. كان كل شيء غارقاً في طرائق القيادة الإدارية ـ الأوامرية، ولذا فقد سلكت الطريق نفسه. وقد آتى هذا الأسلوب أُكُلَه آنذاك، خصوصاً إذا تميَّز القائد بصفات إرادية معيَّنة. فبالتدريج كنت أحس أكثر فأكثر أن قرارات المكتب ـ الصحيحة والجيدة ـ لا تُنفَّذ فضلاً عن أن قادة المناطق والقطاعات من أمناء حزبيين ورؤساء لجان تنفيذية لم يكونوا ينفذون ما التزموا به من وعود. وهكذا لم تنفع الاجتماعات واللقاءات، وأطلَّ النظام برأسه يفرض نفسه.

وبالطبع، عكفنا لدى نهاية العقد، بعد أن فاض الكيل بما فيه، على التفتيش عن طرائق أخرى للعمل وصوغها إذا أمكن، وبات من

الصعب البحث عن مقاربات جديدة؛ علماً أننا كنا نجتمع في المكتب كل عام في كانون الثاني (يناير) ونتداول، بحثاً عن أشكال جديدة للعمل لاعتمادها في تسيير حياة المنظمة الحزبية الهائلة. ومع ذلك فقد أحسست ـ وأنا هنا أعترف للمرة الأولى ـ أن الرضا كان يتّجه هبوطاً. وبتُّ أراقب ذلك التعب الداخلي الذي يحز فيَّ.

وسارت الأمور في الإقليم كما كانت عليه في السابق، . . على نحو غير سيء.



يوميات الانتخابات

٢٢ شباط (فبراير) ١٩٨٩

انتهى اجتماع الدائرة الانتخابيـة الأولى في موسكـو حوالى السـاعة الثالثة صباحاً، وبعـد ثلاث سـاعات ركبت الـطائرة قـاصداً مـدينتي سفيردلوفسك. وطلبت من أعواني المـوثوقـين توجيـه برقيـات الامتنان والشكر إلى الدوائر التي رشحتني وإعلامها بأنني اتخذت قراراً بالترشّح عن دائرة أخرى لم أذكرها.

أمـا سبب رحلتي إلى سفـيردلـوفسـك فهـو أنني لم أستـطع إعـلام مـواطني عن نيتي ببرقيـة، أو ببساطـة لم أشأ ذلـك، وآثرت إعـلامهم شخصياً.

وقـد وصف كثـيرون، سـواء كـانـوا أعـداء أم مؤيـدين، فكـرتي بـالترشـح عن دائرة مـوسكو، والتخـلي عن الترشيحـات في الـدوائـر الأخرى حيث كان الفوز مضموناً مائة بالمائة، بـأنها غلطة كبيرة وثقـة زائـدة في النفس وغرور وغـير ذلك من الأوصـاف. ولم يكن لدي في الحقيقـة ما أرد بـه عليهم، إذ كان هنـاك فعلاً خـطر كبير ألّا أصبـح منـدوباً، وفي هـذه الحالـة كنت أجـرد نفسي بنفسي من آخـر مـوقـع سياسي أطل من خلاله على الناس.

وبالرغم من كـل شيء كان لا بـد أن أفوز بـالانتداب عن الشعب في الدائرة الرئيسية في البلاد، عنيت موسكو. ولم يكن يحركني جنـون

العظمة أو النرجسية، بل كان لا بد أن أثبت لنفسي ولكل الذين دعموني أن الزمن تغيّر. إن بوسعنا الآن تحديد مصيرنا بأيدينا، بغض النظر عن كل الضغوط الفوقية التي يرهقنا بها الجهاز والإيديولوجيا الرسمية، وأنه يمكننا الذهاب إلى قلم الاقتراع والإدلاء بأصواتنا بكل حرية.

فلو أنني انسحبت من دائرة موسكو وترشحت عن سفيردلوفسك مثلاً لكانت حملتي الانتخابية انتهت عند هذا الحد. ولم يبق إلا انتظار يوم ٢٦ آذار (مارس)، يوم الانتخاب، ومعرفة النتائج. ولم أشك لحظة في أن سكان سفيردلوفسك كانوا سينتخبونني لو أني ترشحت عن دائرتهم.

لقد اعتبرت حملتي الانتخابية في العاصمة - وفرصي بالفوز كانت بنسبة خمسين بالمائة - تكملة لمواقفي التي أعلنتها في دورة اجتماعات اللجنة المركزية المنعقدة في تشرين الأول (أوكتوبر). ولعل الفرق يكمن في أنني كنت وحيداً بوجه كل قيادة النظام الحزبي - البيروقراطي المنهار. . أما الآن فالوضع مختلف تماماً. والعدو ما زال هو هو، إلا أنني لم أعد وحيداً. . كان معي ملايين المواطنين الموسكوفيين.

وصلت سفيردلوفسك صباحاً. ومع أنني لم أغفُ لحظة واحدة، إلاّ أن مسقط رأسي، هذه المدينة العزيزة، أزال كل التعب وكل توتّرات الأيام الأخيرة. وتوجهت للقاء مواطني على الفور. استمر اللقاء الأول ثلاث ساعات تخلّلها عناق مع الأصدقاء، وعند انتهائه توجّهت إلى لقاء آخر في قصر ثقافة تابع لأحد المصانع، حيث كان في انتظاري ألف وخمسمائة ناخب طرحوا ما يزيد على خمسمائة سؤال: وكان ثمة سؤال من كل سؤالين: «بوريس نيقولاييفيتش، انسحب

من موسكو وتعال إلى هنا «سيذبحونك» في موسكو، قد يخونك الموسكوفيون».

ولم ينته لقاؤنا إلا في الأولى صباحاً. وقد شرحت لمواطني أهمية خوض معركة الانتخابات في موسكو، وبدا لي أنهم تفهّموا الوضع، ولكنهم قالوا لي، في الحقيقة، ألاّ أقلق في أي حال إذا أخفقت يوم ٢٦ آذار (مارس) في دائرة موسكو، لأنهم سيثبتون ترشيح كل مرشحيهم في سفيردلوفسك حتى يتسنّى لي الفوز عندهم في دورة الانتخاب الثانية. وعموماً كان مزاجهم رائعاً ومعنوياتهم مرتفعة وموقفهم حازماً. وأضافوا إن من يملك منهم الإمكانات المادية فسيطير إلى العاصمة للقيام بنشاط دعائي داعم.

ولم أستطع عملياً مجالسة أيٍّ من الأصدقاء أو تجاذب أطراف الحديث. كان ذلك محزناً، ولكن الوضع اضطرني للسفر على عجل، فالوقت لا يرحم. وعرجت على والدتي مودِّعاً.. رباه كم كان عليها أن تقلق في الآونة الأخيرة.

هل كنت منجذباً إلى موسكو، أم كان الأمر صدفة؟
كيف تمكّنت من العثور على شقة في موسكو؟

(من الأسئلة التي وجهها الموسكوفيون أثناء اللقاءات والاجتماعات الانتخابية)

في الثالث من نيسان (إبريل) ١٩٨٥ كان اجتماع مكتب منظمة الإقليم منعقداً، حيث تداول الأعضاء بالمشكلات المتعلقة بعمليات الزرع والبَذْر. كان الوضع حرجاً، إذ لم يتراكم كثير من الثلوج في الشتاء، وبالتالي فإن كمية المياه المخزَّنة في التربة ستكون عملياً غير

كـافية، وكـان رأي المختصين أنـه يجب الانتـظار بعض الـوقت قبـل المباشرة بالبـذر. والحقيقة أن الـرأي قرَّ عـلى ذلك، كـما قرَّرنـا القيام بجولات تفقُّدية على كل المناطق الزراعية والتشاور مع أصحاب الأمر على الأرض. وفي المساء جُلْتُ عـلى مخازن التمـوين. وقـد كنت من حيث المبـدأ أعـرف الـوضـع تمـامـاً، بيـد أنني أردت معـاينـة الأمـر شخصيـاً. طرأ بعض التحسُّن عـلى التموين فـظهـرت الـطيـور عـلى أصنـافها والجبن والبيض والسـلامي، ومع ذلـك لم يكن ثمـة كفـايـة ترضي.

ولم أعِ في هذا المساء بالتحديد أن أفكاري كـانت بعيدة في مكـان آخر. وفيما أنا راكب سيارتي رن جرس الهاتف، وكانت موسكـو على الخط: «عضـو المكتب السياسي المـرشح، سكـرتير اللجنـة المركـزيـة الـرفيق دولْغيخ يود التحدث معك». وتكلم ڤلاديمير إيڤانـوڤيتش ملقياً التحية وسأل مجاملاً عن الأوضاع لدينـا، ثم قال إن المكتب السيـاسي كلفه أن يقترح عـلي الانتقال إلى مـوسكو للعمـل في اللجنة المـركزيـة رئيساً لقسم البناء. وبعد تفكير دام ثانية أو ثانيتين أجبت بالرفض.

وفكَّـرت بيني وبين نفسي في مـا لم أقله لڤلاديمير إيڤانـوڤيتش، فهنا وُلِـدت وعشت وعملت. والعمـل هنـا يعجبني رغم بطء التـطور، ولكنه مع ذلك تطوُّر! والرئيسي في الأمر أن ثمة علاقـات قويـة كاملة مع الناس نشـأت خلال أعـوام مديـدة. ولأنني تعوَّدت العمـل وسط الناس، فقد كان من المستحيل أن أنتقل إلى مكان آخر دون أن أنهي العمـل حيث وجـدت. وكـان ثمـة سبب آخـر للرفض. ففي لحـظة العرض لم ترد على خاطري فكرة أنه ليس منطقياً بالنسبة إلى سكرتـير أول لمنـظمة إقليميـة ذي خبرة تتجـاوز التسـع سنـوات أن ينتقـل إلى منصب رئيس قسم البناء في اللجنة المركزية للحزب. . ولكن يبدو أن

هـذه الفكـرة كـانت مـوجـودة في وعيي. ذكـرت سـابقـاً أن إقليم سفيردلوفسك يحتل المرتبة الثالثة في البلاد من حيث الإنتاج، وبالتالي فإنه من الممكن الإفادة من سكرتير منظمة ضخمة كهذه على نحو أكثر فاعلية. ولقد كان هذا تقليداً متَّبعاً: فالسكرتير الإقليمي كيريلينكو رُقِّي سكرتيراً للجنة المركـزية وكـذا كان الأمـر بالنسبـة إلى ريابـوف، فلماذا أُعـيِّن أنا مجـرد رئيس قسم في اللجنة المـركـزيـة؟ ولكنني لم أرد الانجرار في تسمية أسبـاب الرفض، فقلت إنني غـير موافق، وانتهى حديثنا عند هذا الحد.

وبالطبع، فقد سهرت الليل أفكر عملياً في ما سيحدث لي، ومـاذا سيكون مصيري، مدركاً أن المسألة لم تنته مع انتهاء المكالمـة الهاتفيـة. وهـذا مـا حـدث بـالفعـل. ففي اليـوم التـالي اتصـل عضـو المكتب السياسي سكرتير اللجنة المركزية ليغاتشيف، الـذي كان عـلى علم بما دار بيني وبين دولغيخ، فجاء كلامه أكثر حـزماً. ولكنني استمـريت في الـرفض معللاً بأنـه من الضروري بقائي حيث أنـا، في هـذا الإقليم الفريد الضخم ذي الخمسة ملايين مواطن، وحيث تـوجد مشكـلات عـديدة لم أحلهـا بعد. لا، لن أستـطيـع مغادرته؛ وعنـدهـا تحـوَّل ليغاتشيف ليستخدم الحجة التي لا يربح معها المـرء، ألا وهي ضرورة الانصياع للانضباط الحزبي، فالمكتب السياسي اتخذ قراراً وعليَّ واجب التنفيـذ بوصفي شيـوعياً. عنـدئـذٍ أسقط في يـدي فقلت: «إذن، لا مفـر، سأنتقـل». وفي الثاني عشر من نيسـان (إبريـل) تسلَّمت عملي الجديد في موسكو.

اتَّسم فراقي مع سفـيردلوفسـك بالحـزن، ففيها تـركت الأصدقـاء والرفاق. فيها معهد البوليتكنيك الأورالي، وفيها راكمت خبرة العمل المنتج لأنتقل منه إلى العمل الحزبي.. فيها كانت كل حيـاتي.. زوجة

وابنتان وحفيدة أيضاً. وبعد كل ذلك، فليست الأربعة والخمسون عاماً بالشيء القليل. . هكذا يجب ترك كل شيء والتوجُّه إلى موسكو لعمل جديد.

يوجد في البلاد مرض اسمه موسكو، ما تلبث عوارضه أن تظهر أولاً في تلك العدائية تجاه الموسكوفيين، وفي الوقت نفسه في رغبة جامحة للتوجُّه إلى موسكو والاستقرار فيها والتحوُّل إلى موسكوفي. أما جذور وأسباب هذه وتلك فمفهومة، فمردُّها ليس إلى الناس بل إلى ذلك الوضع الاقتصادي ـ الاجتماعي المتوتر المتكوِّن عندنا. هي موسكو التي يرتادها الأجانب، لا بد أنها جذابة ولو من حيث الظاهر، كما لا شك في أن فيها تمويناً جيداً وسلعاً لا توجد في الأطراف. وهكذا يصلها مواطنو المدن الأخرى يقفون في طوابيرها ساعات وساعات للحصول على السلامي المستوردة، وفي صدورهم تشتعل نار الحقد على الموسكوفيين لكونهم حسني الحظ، أليس كل شيء بين أيديهم؟ أما الموسكوفيون فيلعنون بدورهم الوافدين من المدن الأخرى الذين تغصُّ بهم المخازن والذين لا يستطيعون بسببهم شراء شيء. وهكذا تحلم الأطراف بأن تهب أولادها لموسكو مهما كانت الظروف ومهما ساءت أو تواضعت. بل ظهرت مفردة جديدة لم تكن موجودة في قواميسنا منذ عهد قريب، وهي: **المحدود** (ليميتشيك) أي الشبان والشابات الذين يزاولون أعمالاً ليست بحاجة إلى تأهيل مهني، أملاً بالحصول بعد بضع سنوات على حق الإقامة والتسجيل في موسكو وليصبحوا مواطنين موسكوفيين كاملي الحقوق.

والحق يقال إنني أنا أيضاً كنت أشعر بالحساسية والحذر حيال الموسكوفيين. طبعاً لم يتسنَّ لي في السابق الاحتكاك بهم عن قرب،

فـاقتصرت لقاءاتي عـلى القادة الاتحـاديين والجمهـوريين، التي تـركت بدورها آثاراً غير محبَّبة. ذلك أنهم لم يخفوا شعورهم بالتفوق على أهل المنـاطق والنظرة الـدونيـة إليهم، فقمت بـدوري بـإعكـاس ذلـك ـ بشكل إنفعالي ـ على كل الموسكوفيين.

كـما وإنـه لم تـراودني من قبـل قط أي رغبـة أو تـطلُّع للعمــل في موسكو. فكم من المرات رفضت فيها مناصب اقتُرحت علي، بما فيهـا منصب وزيـر. لقد أحببت سفـيردلوفسـك وأحبها الآن، ولم أعتـبرها مدينة إقليمية تثير لدي مركَّبَ نقصٍ ما.

ما علينا، هـاأنذا رغم كـل شيء في موسكـو. أروني شقة، وكـان مزاجي معكراً ولذلك بـدا الأمر لي سيَّـان، فوافقت عـلى ما عـرضوه عــليَّ. شقـة في بنــاء قـرب محــطة قـطارات بيلوروسيــا، شـارع تفيورسكايـا ـ يامسكـايا. منـطقة ضـاجَّة صـاخبة قـذرة. أما قـادتنا الحزبيون فقد كانوا يسكنون عادة في منطقة كونتسيفـا الهادئـة النظيفـة المريحة.

وسرعــان ما انـدمجت في العمل وبـات القسم يعمـل بنشـاط. ولم يكن الجميـع يتقبَّل أسلوب عمـلي، وهو أمـر طبيعي. كنت أعود إلى البيت منتصف الليل أو بعده بقليل، لأعود إلى المكتب في الثـامنة من صباح اليوم التالي. لم أجبر الآخرين على اتباع النظام نفسـه، إلا أنني حاولت جرَّ مساعديَّ، وخصوصاً نوابي.

لم يخالجني أي خوف قدسي عندما تخطيت الحـواجز وبـدأت العمل في مقر اللجنة المركزية للحزب الشيـوعي السوفيـاتي القائم في سـاحة «ستارَيَا». فهذا المبنى بالذات هو عنوان السلطة في البلاد، وفيه يتركز جبروت الجهاز الحـاكم. من هنا تخـرج الأفكار والأوامـر والتعيينات. ومن هنـا تطلق الـبرامج التقليـديـة غـير القـابلة للتنفيـذ والشعـارات

الطنانة، وببساطة هنا ترتكب المغامرات والجرائم الحقيقية. هنا كانت تُحَلُّ في غضون دقائق مسائل هزّت العالم لسنوات، كقرار دخول الجيش السوڤياتي أفغانستان.

وعندما انخرطت هنا في العمل لم أفكر لحظة واحدة في كل ذلك. كان الأمر الرئيسي بالنسبة إلي يكمن في كيفية رفع مستوى قطاع البناء وتطويره. كنت بناءً وأعرف مشكلات هذا القطاع ومصائبه معرفة تامة.

كانت حياتي قد ترتّبت على نحو معيّن، بحيث لم أكن يوماً خاضعاً أو مرؤوساً. لم أكن يوماً نائباً لرئيس ما. ليكن رئيس موقع ولكن لا نائب رئيس موقع، وليكن رئيس إدارة ولكن لا نائب رئيس إدارة... وهكذا... ولأنني لم أكن أبداً في موقع نيابة الرئاسة فقد اعتدت اتخاذ القرارت وعدم رمي المسؤولية على كاهل الآخرين. أما هنا، في اللجنة المركزية، حيث تسود آلية الخضوع والطاعة والتراتبية الحزبية الصارمة التي تبلغ حدود اللامعقول، فكل شيء ينفذ بحذر ويناقش قبل أن ينفذ... وبالطبع لم تلائم طبعي الاستقلالي الاعتدادي هذه الأطر البيروقراطية الباردة، فكانت تجربة قاسية جداً. كان قسم البناء يقع تحت سلطة سكرتير اللجنة دولغيخ فكان الأول الذي اصطدم باستقلاليتي بحكم العمل والتراتبية.

أذكر أنه كان مرة يترأس اجتماعاً لرؤساء الأقسام وكنت أحضر مثل هذه الاجتماعات للمرة الأولى. كان دولغيخ يتحدث ويتحدث، وأنظر حولي لأرى الجميع يكتبون ويكتبون محاولين التقاط آخر كلمة وكل كلمة يتفوّه بها. أما أنا فكنت أسجل الأفكار الرئيسية والمبدئية على شكل موضوعات مختصرة. واسترعى ذلك انتباه دولغيخ الذي تعوّد على ما يبدو أن يسجلوا كل ما ينطق به، فتوجه إلي بلهجة

حانقة: «ولماذا لا تكتب؟». والحقيقة أنني لم أنبس ببنت شفة، إلى أن سألني في مرة ثانية: «هل لديك سؤال؟ هل لم تتـذكر أي شيء قلتـه؟ إسألني». قلت: «لا، أتذكّر كل شيء».

كان دولغيخ يـدرك أن وضعي مؤقت ومرشـح لأن يتغيّر جـذرياً في وقت قريب، فلم تقع بيننا نزاعات أو مشكلات.

استـوى العمل كثيفـاً فوق العـادة، ولا أشعر الآن بالأسف لأنني عملت في هذا القسم، إذ تعرَّفت على أوضاع البلاد عموماً وكانت لي اتصالاتي بالجمهوريات والأقاليم البعيدة مترامية الأطراف.

ونشـأت بيني وبين الأمـين العام عـلاقـات، ولكن عـبر الهـاتف. وأقـول الحق كنت أتعجب لماذا لم يـرد أن يلتقي بي ويبادلني الحـديث مواجهة. فقد كانت بيننا علاقات طبيعية أولاً، ثم إن غورباتشوف ـ ثانياً ـ كان يعلم تماماً أنه مثلي، جاء إلى اللجنـة المركـزية من منصب سكرتير أول لمنـظمة إقليميـة، علماً أن إقليمه كـان من حيث الكمون الاقتصـادي دون إقليم سفيردلـوف، ومع ذلـك فقد عُـيِّن سكـرتيـراً للجنـة المركـزية مبـاشرة. وأعتقد أن غـورباتشـوف أحس بمكنـونـات نفسي، ولكن أحداً منا لم يُظهر للآخر عن أفكاره.

بعد مضي وقت قصير انتقلت زوجتي مع ابنتنا وصهرنا وحفيـدتنا، وكانت ابنتنا الثانية انتقلت قبلنا إلى موسكو.

وعـائلتي الآن تتكـون من زوجتي وابنتينـا وزوجيهـما وحفيـد وحفيدتين... وقـد كان الانتقـال إلى موسكـو صعباً بـالنسبة إليهم، فهي مدينة ذات إيقاع مختلف عن إيقاع سفيردلوفسـك وستكون فيهـا علاقات جديدة. وجـرياً عـلى العادة يتـولَّى رب العائلة التخفيف عن أفرادها ويساعدهم على استيعاب الوضع الجـديد، ولكني لم أضـطلع

بهذا الدور. فلم يتوفر لـدي لا الوقت ولا القـدرة على متـابعة شؤون البيت. كنت غـارقاً تمـامـاً في العمـل، حتى أنـه لم تتسنَّ لي الفـرص لمعايشتهم بكل معنى الكلمة.

مـرت فترة قصـيرة، تحديـداً في دورة اجتماعـات اللجنة المـركـزيـة المنعقدة في حزيران، فانتخبت سكرتيراً للجنة المركزية لشؤون البناء. وبكـل إخلاص أقـول إنه لم تخـالجني أي أحاسيس مميـزة بالسعـادة أو الفرح، واعتبرت أن هذا هو مسار الأحداث الطبيعي، إذ كان لا بـد من مكافأتي على جهودي وخبرتي. وتغيَّر كل شيء، المكتب والوضع، وشاهدت بأم عيني كيف يعيش أرباب السلطة العليا في البلاد.

فإذا كان من المفـترض الحصول عـلى بيت صيفي ريفي بالمشـاركة مع عائلة أخرى ـ وكان شريكي لوكيانـوف وهو أيضـاً رئيس قسم في اللجنـة المـركـزيـة مثـلي ـ فـإنهم الآن، وبـوصفي سكـرتيـراً للجنـة المركزيـة، يعرضـون علي بيتـاً ريفياً كـان يشغله الرفيق غـورباتشـوف الذي انتقل إلى بيت آخر شيد حديثاً.

كان العمل كبيراً مفعماً بـالخطط والـبرامج، وقـد شملت الجولات جمهـوريات وأقـاليم قـريبـة وبعيـدة كـإقليم لينـنغـراد والشرق الأقصى وتركمانيا وأرمينيا وتومين وغيرها.

وكـانت ثمة رحلة سـأتصدى لهـا بالكتـابة خصيصـاً بـالتفصيـل. وصلت إلى طشقند لعدة أيـام بهدف حضـور اجتماع اللجنـة المركـزية الكـامـل للحـزب في أوزبكستـان، فـأقمت في الفنـدق. وقـد بلغ الكثيرين في المدينـة نبأ وصـولي فتجمَّع النـاس حول الفنـدق طالبـين السماح لهم بمقابلتي. وبـالطبـع أخذ الأمن يبعـدونهم، ولكني أبلغت المسؤولـين أنني سأستقبـل الجميع خـلال يومـين، وطلبت من حارسي متابعة الموضوع والتأكد من تلبية المواعيد فعلياً.

كان أول الذين التقيتهم أحد عملاء الـ «كي . جي . بي» الذي راح يروي عن الرشوة الفظيعة المستشرية في الجمهورية. فالوضع بعد رشيدوف(*) لم يتغيّر في الواقع، بل إن الأمين العام الجديد للحزب في الجمهورية يتلقى الرشاوى بالوتيرة والنجاح نفسيهما اللذين اعتمدهما سلفه. وقد أراني هذا العميل بعض الوثائق الخطيرة المتعلقة بنشاطات عثمان خاجايف وطلب مني المساعدة. فليس بوسع أحد، غير موسكو، اتخاذ التدابير، ذلك أن أي محاولة أو خطوة لتصحيح الأمور تلقيان هنا مقاومة شديدة من قبل الجهاز الفاسد المهترىء. ووعدت أن أطّلع بالتفصيل على الوثائق المقدّمة، وإذا وجدت أن ما فيها جديٌّ فعلاً فسأطرح الأمر بنفسي أمام القيادة العليا في موسكو.

وتلاه زائر ثان وثالث ورابع، وهكذا حتى استمعت إلى شكاوى المواطنين على مدى يومين. . كان ما سمعته مذهلاً: ولكن أبرزه ضلوع قيادة الحزب في أوزبكستان بقبول الرشاوى.

ومن كل ما سمعت استطعت تمثيل نظام متسق ومتماسك للرشوة يطال المسؤولين من تحت إلى فوق، وبحيث ينبغي للإنسان الشريف أن يتمتّع بشجاعة حقيقية حتى لا يصبح حلقة في سلسلة المرتشين هذه وكان من جاءني شاكياً ينتمي إلى هذه الفئة.

لقد أصبح الآن كل شيء معروفاً عن هذه «القضايا»، ولكنها، حينذاك، تركت عندي، لدى انقشاع صورتها الحقيقية، انطباعاً رهيباً ومزعجاً. وقررت أن أتكلم مع غورباتشوف عند عودتي إلى العاصمة.

(*) أمين عام الحزب الشيوعي في أوزبكستان، الذي طاله التطهير البيريسترويكي.

عندما هممت بالرحيل وقعت حادثة ذات دلالة. فقد طلبت فاتورة الحساب من الفندق كي أدفعها، فأبلغت أن الفاتورة قد سُدِّدت. فطلبت من كبير الحراس أن يشرح للمضيفين الكرماء أنني لا أنوي المزاح، ولا بد من إصدار الفاتورة. وعاد وقد ركبه اليأس ليقول إنه لا حساب لأنه دُفع بموجب مادة في نظام إدارة شؤون اللجنة المركزية في الجمهورية وأنه تأكَّد من ذلك. ولم أعد أستطيع كبح جماح نفسي وأخذت أصرخ مطالباً بالفاتورة...

بعد عودتي إلى موسكو قرأت الوثائق باهتمام شديد وتوجهت إلى غورباتشوف للقائه. ورويت له بالتفصيل ما سمعت ورأيت، وأنهيت حديثي قائلاً إنه لا بد من اتخاذ تدابير حازمة وسريعة، كما لا بد بادىء ذي بدء من حل مسألة عثمان خاجاييف. ولكن ما حصل أذهلني. فقد مسَّ غورباتشوف غضب شديد وقال إنني لم أفهم شيئاً، وإن عثمان خاجاييف شيوعي شريف مضطر إلى مكافحة أذناب رشيدوف وهو بسبب ذلك عرضة لتهجمات المافيا القديمة إياها وشكاويها وتلفيقاتها. فما كان مني إلا أن قلت: «ميخائيل سيرغييفيتش، لقد وصلت لتوِّي من هناك. لقد انخرط عثمان خاجاييف جيداً في نظام رشيدوف وهو الآن يستثمر وبصورة ممتازة بنيةً لم يكن له يد في إشادتها. ولكن غورباتشوف قال إنني ضُلِّلت، وعلى وجه العموم فإن ليغاتشيف يضمن عثمان خاجاييف. ولم أعثر على رد أجيب به طالما أن الضمانة صادرة عن الرجل الثاني في الحزب.. كانت القضية إذن جدية! وهكذا تمنيت على غورباتشوف في النهاية أن يعيد النظر كون القضية ذات أهمية استثنائية.

وعند هذا الحد انتهى حديثنا، وما وقع بعد تقديمي الاستقالة فمعروف جيداً، فقد عزل عثمان خاجاييف من منصبه وحُمِّل

المسؤولية. أما ما يتعلق بضمانة ليغاتشيف فقد أصبح الآن كثير من الأمور معروفاً.

ولكن، أشير بالمناسبة، أنني هربت إلى الأمام. ستقع أحداث قريبة. أما الآن فما زلت بعد سكرتيراً للجنة المركزية أعمل على وضع برنامج يخرج قطاع البناء من أزمته.

ولم يدر في خلدي أن مصيري قد تحدَّد. يرن جرس الهاتف في مكتبي، وأُستدعى إلى المكتب السياسي.



يوميات الانتخابات

٦ أذار (مارس) ١٩٨٩

كنت أفكـر، أحيانـاً، كيف يرتكب معـارضيَّ الخطأ تلو الخـطأ في قتالهم المرير ضدي، وكيف كنت تصرفت لو أنني تزعَّمت الحملة ضد يلتسين المرشح لمقعد مندوب عن الشعب؟

وأعرف تماماً أنني لم أكن لأرتكب الحماقـات التي ارتكبوهـا بحقي. كـان أول مـا يجب فعله أن أجـرد هـذا الاسم من السريـة والتعتيم اللذين أحـاطـا بـه، إذ لا بـد من جعله مـرشحـاً عـاديـاً كپـتروف وسيـدوروف مثلاً. ولكنت استـدعيت أيضاً الصحف والمجـلات على عجل لإجراء المقـابلات واللقـاءات، بحيث يصبح اسمـه بعد مضي شهـر مثاراً للملل، ولَمَّـا استثنيت بالـطبـع التلفـزيـون بكـل بـرامجـه السيـاسية والتـوجيهية من «سـاعة ريفيـة» و«أخدم الاتحاد السوڤيـاتي» و«وجهة نظر» و«الوقت» و«كشك الموسيقى» وغيرها، حتى أجعل مجرد ظهـوره أو ذكر اسمـه أو أفكاره يُشكـلان حساسيـة لدى القـارىء أو المشاهد والمستمع. كان ذلك كفيلاً بجعـل يلتسين ينـزلق ويزيـح من الدرب.

أما ما حدث في واقع الأمـر فنقيض ذلك. لقـد كان اسمي تـزداد هالته يوماً إثـر يوم. فالصحافة الرسميـة صامتـة لا تذكـر اسمي، ولا

مقابلات تجري معي إلا تلك التي أجرتها محطات الإذاعات الغربية. وكانت كل خطوة تتخذ ضدي تثير عطف الموسكوفيين وضيقهم أكثر فأكثر. ولأن الخطوات تعدَّدت فقد بات كل من اتخذها يعمل ما بوسعه، دون أن يدري، كي ينتخب الناس يلتسين نائباً عن دائرة موسكو الانتخابية.

سألني كثيرون بمزيد من الجدية: ألا يُعقل أن سكرتير منظمة موسكو الحزبية الأول ل. زايكوف هو أحد أعوانك الموثوقين السريين ويحمل الرقم أحد عشر؟ وعلى كل حال فقد نُصحت أن أتصل به إذا فشلت في الانتخابات لأشكره على «المساعدة والدعم» الكبيرين اللذين بادلني إياهما أثناء الانتخابات. فعدم الإدراك المطلق لقوانين النفس البشرية وعدم القدرة على الإحساس بالناس ورؤية ردات فعلهم كانا يوصلان معارضيَّ في كل مرة إلى نتائج عكسية منقلبة عليهم.

وغالباً ما طرح علي المراسلون الأجانب هذا السؤال: هل أتمتع بتكتيكٍ ما أعتمده في حملتي الانتخابية أو هل لدي أسرار ما؟ وكنت أجيب بكل بساطة مهما كان ذلك غريباً: لا تكتيك إلا واحداً وهو التفكير الصحيح، وألاّ تُرتكب أي تصرفات يمكن أن تشكل إهانة إلى منافسيَّ بوجه ما، وأن أقول الحقيقة، والحقيقة فقط، في الاجتماعات واللقاءات مهما كانت جارحة أو مسببة لي بخسارة ما، وأن أكون صريحاً إلى أبعد الحدود، وأن أحس بالناس دائماً. هذا هو الأمر الرئيسي.

كنت أجري كل يوم تقريباً لقاءات مع مجموعات كبيرة من الناخبين، وقبل شهر من يوم الاقتراع كنت أجري لقائين يومياً. ولقد أصابني من جراء ذلك إرهاق شديد بالطبع، ولكني كنت أخرج من

كل لقاء بشحنة كبيرة من الثقة بالنفس وبأن كل شيء سيكون على ما يرام. بل إن المسألة بالنسبة إلي لم تعد الفوز الذي أصبح همّاً تفصيلياً كما يقال، كل ما كان يهمّني أن إيماناً كبيراً برز، فمع هذه الجموع من الناس ومع هذا العطش إلى العدالة سيكون بمقدورنا حتماً انتشال الخير من الهاوية التي وقع فيها.

وأنا لا أحبُّ المهرجانات، وخصوصاً تلك التي تضمُّ ألوف الناس، ولكن كانت أيام احتشد فيها باللُّوجنيكي مائة ألف مواطن. لم يكن ممكناً هناك أن ترى لا وجوهاً ولا عيوناً. وهناك، في مثل هذا الحشد، لا يمكن للمرء أن يقيم صلة مباشرة مع الجو العام كما يحدث في صالة مقفلة. ومع ذلك فالمهرجان مدرسة جبارة وصعبة بالنسبة إلى رجل السياسة. ففيه ينبغي عليه استقطاب انتباه حشود الجماهير بكلمة واحدة... وبعبارة واحدة يمكنهم رميك عن المنبر.

أشعر بأسف شخصي لأن غورباتشوف لا يشارك في المهرجانات، فهو أمر مفيد له. فبالنسبة إليه، وهو الذي اعتاد على التوجُّه إلى أناس جاهزين منتقين محمولين بالباصات «ممثلين للكادحين»، كان يمكن أن تكون تجربة مهرجانات اللّوجنيكي درساً قيماً. ومن الممكن أن هذا سيحدث...

ومرة أخرى أكرر القول: إن المهرجانات أداة خطيرة جداً في الصراع السياسي. فهنا لا تُكبح العواطف والانفعالات ولا تُستخدم التعابير البرلمانية. ولذا يجب أن تكون الخطب متزنة وموزونة ودقيقة. كانت تتكون عندي أحاسيس مركّبة عندما أطل برأسي على جماهير الناس فتصرخ بعنف: «يلتسين! يلتسين!..».. رجال ونساء وفتيان وفتيات، شبان وشيب... وأقول بإخلاص إنه لم يكن يخالجني لا الرِّضا ولا الفرح. إذ يجب الصعود إلى المنبر بسرعة والتقاط

الميكروفون والبدء بالكلام حتى يتمكن المرء من صدّ هذه الموجة من الحماس الجيّاش وامتصاصها. فعندما يصغي الناس يتبدل الجو. وأنا أنظر إلى هذا الحماس بحذر داخلي أيضاً لأننا نعلم جميعاً كم من السهل أن يتحمّس المرء ليفقد بعد ذلك الإيمان بالسهولة نفسها.. ولذا، ينبغي هنا ألاّ ينساق مع الأوهام.

ولطالما تجادلت مع مساعديَّ في صدد مسألة: أنه كلما علا الصراخ باسمي كلما كان المهرجان أنجح.. هذا هذر.

وعموماً، فإن مساعديَّ خليط خاص من الناس. ولهؤلاء علي واجب الشكر على دعمهم اللامحدود وإخلاصهم وتضحياتهم وإيمانهم بي. وقد أسرَّ لي كثيرون بأنني أقترف خطأ جسيماً لا يغتفر لأنني اجتذبت مساعدين غير محترفين وليسوا سياسيين ولا علماء، بل أشخاص عاديون وأذكياء وإنسانيون. لم أعرف منهم أحداً قبل الحملة الانتخابية، إذ كانوا يتصلون بي ويأتون إلي ويقولون: نود أن نكون مساعدين. وكنت أجيبهم: شكراً، ولكن فكّروا جيداً، فالأمر سيكون صعباً؛ وكانوا يقولون: نعرف. كانوا يأخذون إجازات إدارية على حسابهم ويتفرغون للعمل في حملتي الانتخابية ليل نهار دون مبالغة... وكان يرأس فريق المساعدين ليف يفغينيفيتش سوخانوف المخلص، الذي أخذ على عاتقه مسؤولية تنسيق الحملة.

إنهم أشخاص رائعون. شكراً لهم...

أي نقائص شابت عملك أثناء تولّيك مهام سكرتير أول منظمة مدينة موسكو الحزبية؟

هل نقيصة التسلّط والهيمنة من تلك النقائص؟

هل صحيح أنك تسلّمت في أول لقاء لك مع الموسكوفيين رسالة من رؤوس المافيا الحزبية وزوجاتهم يعدون فيها «بتقطيع أوصال البيريسترويكا»؟

(من الأسئلة التي وجهها الموسكوفيون أثناء اللقاءات والاجتماعات الانتخابية)

عملت سكرتيراً للجنة المركزية عدة أشهر، وفجأة استدعيت يوم ٢٢ كانون أول (ديسمبر) ١٩٨٥ إلى المكتب السياسي. عمَّ يمكن أن يدور الحديث؟ لم أكن على علم بشيء، ولكن عندما لاحظت أن الاجتماع مقتصر على أعضاء المكتب السياسي، ولا يحضره أمناء آخرون للجنة المركزية، أدركت أن الحديث سيتناولني بشكل أو بآخر على ما يبدو. وبدأ غورباتشوف الكلام على هذا النحو تقريباً: «لقد تشاور المكتب السياسي وقرر أن تترأس منظمة مدينة موسكو الحزبية» ـ وهي تضم حوالى مليون ومائتي ألف عضو، أما عدد سكان المدينة فيربو على تسعة ملايين نسمة ـ. كان القرار بالنسبة إلي مفاجئاً تماماً. نهضت ورحت أقوِّم القرار ومدى صحته: أولاً أنا مهندس مدني وعندي خبرة عمل طويلة وغنية، ولدي آمال عريضة في إخراج قطاع البناء من أزمته، ولعله من الأصلح والأفضل أن أبقى في منصبي سكرتيراً للجنة المركزية لشؤون البناء؛ أضف إلى ذلك أنني لا أعرف أحداً تقريباً من كوادر منظمة موسكو وسيكون من الصعب علي أن أعمل في مثل هذه الظروف.

ويبدأ غورباتشوف وأعضاء المكتب السياسي بإقناعي بأن هذا ضروري جداً وأنه يجب إقصاء غريشين وأن منظمة مدينة موسكو الحزبية باتت هرمة متهتكة، حيث أنها لا تمثل قدوة للمنظمات الحزبية

الأخرى بأسلوب عملها ونمطه فحسب، بل باتت متخلفة عن كل المنظمات. وقالوا إن غريشين لا تشغل باله أمور الناس وحاجاتهم ومتطلباتهم وأنه يفشل الأعمال القائمة ولا يهمه إلا استعراض نفسه وتنظيم الاحتفالات المسبقة البرمجة. . . وبشكل عام يجب إنقاذ منظمة الحزب في العاصمة.

كان الحديث في المكتب السياسي صعباً. ومرة ثانية ذُكِّرت بالانضباط الحزبي مردفين بالقول إنهم يعرفون أنني سأكون هناك مفيداً. . . وعموماً فقد وافقت على مضض، إذ أدركت الحالة المزرية التي تعيشها المنظمة وأنه لا يجوز ترك الحبل على غاربه خشية أن يعمد المكتب السياسي إلى تعيين أي شخص آخر يمكنه أن يسيء إلى الوضع أكثر مما هو سيء.

ولم يكن من النادر فيما بعد أن أتأمَّل في كيفية وصول غورباتشوف إلى ترشيحي لقيادة منظمة موسكو. فلعله ـ على ما يبدو ـ أخذ بحسبانه خبرتي الممتدة عشر سنوات في قيادة إحدى أكبر منظمات الحزب في البلاد، إضافة إلى الخبرة التي راكمتها في الإنتاج. . . وهو دون شك كما يعرف طبعي تماماً ويثق بقدرتي على نفض القديم ومجابهة المافيا، نظراً لما أتمتع به من شخصية قوية وشجاعة، ما يمكِّنني من تغيير الكوادر جذرياً. كل ذلك كان معروفاً سلفاً. كنت في تلك الفترة، بالفعل، المرشح الأنسب لتحقيق الأهداف المذكورة التي وضعها. وجاءت موافقتي على تسلُّم المنصب الجديد موافقة صعبة. لم أتهيَّب المصاعب، وكنت أدرك أنهم يستخدمونني لدكِّ فريق غريشين، ولم يكن هذا بالطبع شخصاً ذا ذكاء لامع، كما كان لا يتمتع بأي استقامة خُلُقيَّة. . أجل، لم يكن مستقيماً، بل مفاخر منتفخ ويمتاز بمستوى مرتفع من المداهنة. فقد كان يعرف ماذا عليه أن يفعل دائماً،

وفي أي وقت، حتى يصانع القيادة ويمالئها. وكان شكّاكاً كبيراً. كان يهيِّىء نفسه ليصبح أميناً عاماً للحزب، وقد قام بكل ما في وسعه ليقبض على زمام السلطة، وحمداً لله أنه لم يُسمح له بانتهاز هذه الفرصة.

لقد أفْسَدَ الكثيرين، وبالطبع ليس الجميع، في منظمة موسكو، بل في قيادتها تحديداً. هيمن في الجهاز أسلوب قيادة تسلُّطية. والتسلُّط دون ذكاءٍ كافٍ أمر رهيب، ممّا انعكس ذلك على القضايا الاجتماعية ومستوى معيشة المواطنين ومظهر موسكو الخارجي. وبدأت العاصمة تعيش حالة سيئة، بل أسوأ مما بدت عليه قبل عدة عقود خلت.. باتت مدينة قذرة ترتسم فيها طوابير الانتظار التي لا تنتهي وتعجُّ بحشود كبيرة...

انعقد اجتماع منظمة موسكو الحزبية الكامل يوم ٢٤ كانون أول (ديسمبر)، وألقى فيه غورباتشوف خطاباً. وأُقصي غريشين عن منصب السكرتير الأول، كالعادة، وفقاً لرغبته وبمناسبة إحالته على التقاعد.. وهذا نمط كلاسيكي مُتَّبع لإبعاد غير المرغوب بهم عن مواقع السلطة. وأعلن الأمين العام ترشيحي، الأمر الذي لم يثر - بحسب رأيي - عند أحد لا تعجباً ولا سؤالاً. واقتصرت كلمتي على الإعراب عن الشكر للثقة التي وُضعت في شخصي، واعداً بخوض غمار عمل شاق وصعب... ومرَّ الاجتماع الكامل بهدوء.

وفي شباط (فبراير) حُدِّد موعد كونفرنس المنظمة لمناقشة التقرير وانتخاب القيادة الجديدة، وخالجني اعتقاد أن فيه ستنفجر المعركة الرئيسية، فسيحاول لواء غريشين إياه قلب الأمور والعودة إلى الوراء لا في موسكو وحسب.

وتطلّب الأمر التركيز على التحضير للكونفرنس. وأثناء كتابة التقرير التقيت بالعشرات من الأشخاص وجُلْتُ على مؤسسات العاصمة محلِّلاً ومحاولاً العثور مع الاختصاصيين على المخرج الأنجع والأفضل من الحالة المتأزِّمة السائدة. واستمر تقريري في الكونفرنس ساعتين، وبعد انتهائي منه قال لي غورباتشوف: «هبت ريح قوية منعشة».. ولم تكن الابتسامة التي لاحت على وجهه مرحبة كما لم تَبْدُ على وجهه ملامح الرضا.

كان لا بد أن أبدأ عملياً من الصفر. وأول شيء ينبغي القيام به تغيير جهاز مكتب قيادة المنظمة حيث كان ينتشر «أزلام» غريشين. لقد تحوَّل غريشين منذ زمن إلى مجرد قربة منفوخة بالهواء، إذ لم تكن له سمعة أو هيبة في أي وقت، وها هي عجلة البيريسترويكا بدأت تدور، فكان وجوده في المكتب السياسي، وبكل بساطة، يعرقل أعلى هيئة تنفيذية في الحزب. وكان غورباتشوف دائماً غير حاسم في اتخاذ القرارات، فأطال مع غريشين اللعب، وكان المفروض أن يُزاح منذ زمن عن مناصبه. وعندما تصديت لكوارث موسكو الحزبية التي سبَّبها مع تابعيه لم يُبْدِ أي مظهر من مظاهر الاعتراض. ولكن قيل لي إن بعض ممارساتي أزعجته، وهذه مجرد أقوال.. إذ لم تصدر عنه أي خطوات إجرائية ملموسة.

وجرت محاولات لإدانته في دسائس متنوِّعة، ولكن القضاء لم يعثر على أي وثائق تدينه، فقيل لي إنه لمن المعقول أنها قد أُتلفت. وأنا لا أستثني أن يكون ذلك قد حصل فعلاً، لأننا لم نعثر حتى على المواد التي تقدم بها في خطاباته أثناء الاجتماعات الحزبية، وكان لا بد أن تكون موجودة. وبشكل عام فثمة حملة إشاعات خاصة بغريشين ولكنها كلها غير مثبتة. وأكرر القول إنني حين تسلمت مهامي كانت

خزنته خالية من أي أوراق، ولعل كل المواد المتعلّقة به موجودة في لجنة أمن الدولة «كي. جي. بي» المركزية. لا أعرف.

وافترضت أنه سيحاول مضايقتي في أقسام الكوادر، وصحّ الافتراض، إذ تم ترشيح أحد أزلامه ـ وعن طريق زمرته ـ لمنصب رئيس اللجنة التنفيذية لسوفيات موسكو. وعلى وجه العموم، ففي كل مرة كان يطرح فيها أمر أحد المناصب المفصلية، كنت أفكر أن أحد أتباع غريشين سيحتله، الأمر الذي جعلني أتخذ خطوات معيَّنة تسد الطريق بوجه مثل هذا الاحتمال. وكنت أعتقد أن جهاز مكتب قيادة المنظمة، وخصوصاً أولئك الأشخاص الذين عملوا مع غريشين سنوات طويلة، ينبغي أن يتغيَّر بالكامل. لقد كان هؤلاء الجهازيون ملوثين بأسلوب عهد الركود المفعم بالمهالأة والمصانعة والمداهنة. كان كل ذلك قابعاً في وعيهم، ولم يكن من الممكن إعادة تأهيلهم، فوجب استبدالهم، وهذا ما فعلته.

أما المساعدون فقد غيَّرتهم بسرعة، ولكن أعضاء مكتب القيادة وجهاز المنظمة الحزبية بقوا إلى أن تم إقصاؤهم بالتدريج وبصورة واثقة حاسمة. وبدأت أبحث عن أشخاص ملائمين. ورُشّح أ. زاخاروف من قبل جهاز اللجنة المركزية لتولي منصب السكرتير الثاني في المنظمة، وقد عمل في قسم العلوم التابع للمركزية وكان قبل ذلك السكرتير الأول لمنظمة منطقة لينينغراد.

وكان يشغل منصب رئيس اللجنة التنفيذية لسوفيات موسكو بروميسلوف الذي لم يكن معروفاً من قبل الموسكوفيين فحسب، فقد شاعت بين الناس نكتة لا تخلو من أساس تقول: «إن بروميسلوف توقف في موسكو لفترة قصيرة في طريقه من واشنطن إلى طوكيو جواً». فقد زارني هذا الشخص في اليوم التالي لانتخابي سكرتيراً أول

وقـال دون مقـدِّمـات: «كـان من المستحيـل أن يعمـل المـرء مـع غـريشـين»، وأردف ذلـك بكثـير من الاستغيـاب بحق المسؤول السابق. ثم قال أيضاً فجأة: «إنني سعيـد، بوريس نيقـولاييفيتش، كـونكم أصبحتم السكـرتـير الأول!». وختم قـائـلاً إنـه الآن كمن انفتحت أمامه الآفاق وعاد يتنفَّس ثانية ويشعـر بملء القـوة بما يؤهله، على الأقل، لأن يتم الخطة الخمسية. وكان لا بد من إيقافه عند حده وإعلامه بأن الحديث سيتناول أموراً أخرى. وقلت له بقسـوة كافيـة: «يجب أن تخرج». وحاول مرة ثانيـة سلوك أقنية أخـرى للتقرُّب مني، ولكني قلت: «أرجو أن تحضر لي استقالتك غداً قبـل الثانيـة عشرة». وعند وداعه زدت قائلاً: «أرجو ألَّا تتأخر». وفي اليوم التـالي لم يحضر في الموعد المضروب، فاتصلت به هاتفياً وقلت: يبدو أنك لم تنتبـه إلى ما قلته البارحة، إنني أقترح أن تستقيل بالحسنى وإلا فبالإمكـان اتباع طـريقـة أخـرى... وقـد فهم، ولم تمض عشرون دقيقـة حتى تقـدَّم باستقالته.

بعد يومـين اقترحت عـلي أربع مجمـوعات أربعـة ترشيحـات لملء منصب رئيس اللجنـة التنفيذيـة الشاغـر، وكانت كـل واحدة تـدفـع بـرجلها. ولا بـد أن الجميع يـدرك مدى أهميـة منصب محافظ المـدينة وماذا يترتب عليه. بيد أنني قرَّرت اعتماد خيار غير قياسي، غير متَّبع. ذهبت إلى مصنع سيارات «زيل» وأمضيت هناك وقتاً امتد من الثـامنة صباحاً حتى الثانية بعـد الظهـر. تجوَّلت في الأقسـام والعنابـر وقابلت عمالاً ومستخدمين وأخصائيين وحزبيين وقادة أقسام ومصمِّمين. كان هذا إحدى الزوايا. والزاوية الثـانية، أنني سعيت للتعـرُّف إلى المديـر العام ف.غ. سايكـين، وجهدت ألَّا تفـوتني أدق التفاصيـل - مثلاً كيفية تحادثه مع العمال والمرؤوسين وسكرتير المنظمة الحزبية في المصنع

ومعي - وبعد تحليل استغرق يومين اقتنعت بالفكرة أن بوسعه أن يكون محافظاً جيداً، وبالطبع ليس على الفور، بل هو في حاجة إلى المساعدة والدعم. وتحادثت مع غورباتشوف تليفونياً فاستحسن الفكرة.

ومن الأشخاص الذين تغيّروا أيضاً أمناء منظمة المدينة.

وقمت بزيارة مكاتب تحرير جريدة «موسكوفسكايا پراڤدا» وعقدت اجتماعاً مع المحرِّرين والمستخدمين استمر أربع ساعات ونيف جرى فيه حوار صريح مفتوح. كان هناك رئيس تحرير جديد هو ميخائيل نيكيفوروڤيتش پولتورانين عمل سابقاً في صحيفة «پراڤدا». كان هذا الشاب صحفياً لامعاً ومبدئياً سرعان ما غيَّر الأجواء في الجريدة، إذ بدأت تظهر فيها مقالات أخافت الكثيرين وجعلتهم يتخذون جانب الحذر. ومن المقالات المهمة أذكر تلك التي بعنوان «عربات عند مداخل البنايات» وتتناول السّيارات «الخاصة» الشخصية، وقد أثارت ضجَّة كبيرة في موسكو. ولم تكن هذه المقالات حادة فقط، بل أستطيع القول إنها كانت، آنذاك، مفعمة بالتحدي. وقد استدعي پولتورانين إلى اللجنة المركزية وكانوا قد اتصلوا بي قبل ذلك وسئلت عن رأيي؟ أجبت أن تقويمي جيداً وأرى الأمر طبيعياً. هذا، وقد أثارت مجموعة مقالات عن المخدرات والمدمنين والدعارة والجريمة المنظمة كانت نشرت في جريدة «موسكوفسكي كومسوموليتس» ردود فعل عاصفة، وكان المتبَّع أي يجري التعتيم حول هذه المواضيع. وبشكل عام امتنعت صحف العاصمة عن أن تكون هادئة مطيعة، الأمر الذي رحَّبْتُ به أيّما ترحيب. وعندما هُمِسَ لي أن الأمر لا يستأهل كل هذه الانتقادات المتصدية لمشاكل المدينة، وهي العاصمة، أجبت: «هل هذه الظاهرات السلبية موجودة؟ أجل، موجودة؛ وبالتالي فنحن لن نصحح الأوضاع ولن نعالج هذه

التقرحات والدمامل بتغطيتها بالكريما اللذيذة لإخفائها عن العيون. يجب الحديث عن أي ظاهرة سلبية مهما كان الأمر موجعاً».

والتقيت كذلك بهيئة تلفزيون موسكو، وقد عُيِّن رئيس جديد لها، وبدأت تظهر على الشاشة برامج ممتازة، وأهم ما فيها أنها برامجنا الموسكوفية الخاصة بنا.

ومن الطبيعي أن الصحافة والتلفزيون الموسكوفيّين أصبحا يثيران بعد فترة قصيرة ردود فعل سلبية. وكما أسلفت، فقد تم استدعاء پولتورانين مرات عديدة إلى اللجنة المركزية. وفي مرة من المرات جعلوه ينتظر بضع ساعات قبل استقباله، وكان ذلك مهيناً، فانبريت أدافع عنه بكل قوتي. كانوا يشكونه لغورباتشوف الذي كان يقول لي أثناء انعقاد المكتب السياسي: «هاك صاحبك پولتورانين!...»، فأقول: «صاحبنا پولتورانين يقود الجريدة جيداً، والطبعة تزداد حجماً؛ والأفضل أن تنتبهوا لصاحبكم أفاناسييف». وبات واضحاً في تلك الفترة أن الاشتراكات في «البراڤدا» تتدنّى، علماً أن الشيوعيين كانوا ملزمين في الاشتراك في صحيفة الحزب الرئيسية.

وعندما عزلت من مناصبي كان واضحاً أن پولتورانين لن يبقى في عمله، وهذا ما حدث فعلاً بعد وقت قصير.

حدث ذلك فيما بعد، أما الآن فما نزال نخوض المعارك من أجل موسكو.

كان كل شيء مهملاً على الإطلاق: الكوادر والمجال الاجتماعي والتخلف الذي تدل عليه المؤشرات الهابطة ضمن الخطة العامة لتطوير العاصمة والموضوعة منذ عام ١٩٧٢. فبسبب استجلاب المحدودين من العمال من كافة أرجاء البلاد (وقد بلغ عددهم حوالى

سبعمائة ألف عامل محدود) تبين أن عـدد سكان العـاصمة فـاق الرقم الموضوع بحوالى مليون ومائة ألف نسمة. فإذا أضيف إلى هـذا العدد الوافدون والزوار فقد كان يصل صيفاً إلى حدود ثلاثة مـلايين نسمـة وشتـاءً إلى مليوني نسمـة. وهذه الـزيادة لم تكن حصتهـا محسـوبـة في قـطاع الخدمـات الاجتماعيـة، ممـا سبب نتـائـج مؤسفـة انعكست في ظـاهرات القـذارة وطوابـير الانتظار ومحـطات المترو المختنقـة بالبشر، فضلاً عن ازدحام المواصلات العـادية. وبـات وجود المـدينة يتـأرجح عند حدود الممكن. والنتـائج المؤسفـة نفسها انعكست أيضـاً في مجال الثقافة، ويكفي أن نشير إلى أن عدد المقاعد في المسارح للألف نسمة تدنى إلى ما تحت المستوى الذي كان عليه عام ١٩١٧.

وقد حاول أمناء اللجنة المركزيـة وأعضاء المكتب السيـاسي مدَّ يـد العون في الفترة الأولى، بفضـل حث غوربـاتشوف لهم للسـير في هذا الاتجاه، خصوصاً في السنة الأولى. وقتـذاك بالتحـديد تـولَّدت لـدي فكرة تنظيم المعارض الدائمة غير الموسمية. وأقيمت في المساحات غير المبنية الأكشاك والأكواخ، وعقدت اتفاقيات مباشرة مع المدن الأخرى والجمهوريات لـتزويدهـا بالخضـار والفاكهـة. وبدأت هـذه المعارض عملهـا، ومع أنها لم تنجـح في كل المنـاطق بـالنسبـة نفسهـا، إلا أنها تحوَّلت نوعاً من الأعياد العائلية المريحة. كـان هذا شـأناً مهـماً، حيث افتقرت موسكو إلى ما يكفي من الأعياد. ومُذَّاك تعيش هذه المعارض في العاصمة وقد اعتاد أبناؤها عليهـا، وأعتقد أنهم يعتـبرونها وليدتهم ولا يستطيعون تصوُّر مدينتهم خالية منها.

وتابعت السير في موسكو على بعض التقاليد التي كانت مألوفة لدي في سفيردلوفسك كالالتقاء بسكان المدينة. وكان أول لقاء أجريته مـع القيمين على شؤون الدعاية في العاصمة وقد غصَّت قاعة قصر الثقافة

السياسية بحوالى الألفي شخص. ألقيت في البدء كلمة قلت بعدها إنني على استعداد لأن أجيب على الأسئلة مهما كانت، حتى المزعج منها. ولحسن حظي أن عدد الأسئلة المزعجة كان ضئيلاً، ومع ذلك فقد طرح بعضها من نوع: «ما الذي دفعك الآن، يا يلتسين، لمجابهة المافيا الموسكوفية. هذا أمر عرفناه في السابق وخاصة قبلك خروتشوف، أراد أن يلبسنا معطفاً فماذا حصل؟ الجميع يعرف. إذا استمريت فلن يمر عامان حتى يجلس مكانك آخر». والطريف في الأمر أن هذا وقع فعلاً. فما إن مرت سنتان حتى أُقصيت من مهام السكرتير الأول وخرجت من المكتب السياسي. ولا أعتقد أن للمافيا في هذا دور، بل لعلها مصادفة بكل بساطة. وسأروي هنا بعض الوقائع والحوادث.

بدأت أتسلّم مجموعات من الرسائل عن الفساد والرشوة في التجارة والميليشيا(*). وأُجْرِيَ تحقيق خارجي لم ينفذ إلى عمق النظام، فإما أن المحققين لم يستطيعوا أو إنهم لم يريدوا. واشترك في التحقيق هيئات في وزارة الداخلية وأمن الدولة والقيادات الجديدة في قطاعي التجارة والتموين. وبدأت حملة تغيير المسؤولين، ولكن ما لبثت الدائرة أن انعقدت من جديد..

وكانت ثمة حقائق تَتْرىَ من مشاهدات الناس ورسائلهم. ولكن سأروي ما حدث معي أو ما اصطدمت به شخصياً. تتالت الحوادث في مسلخ إحدى المناطق بموسكو حيث يجري «ذبح» الحيوانات النافقة فضلاً عن الرشاوى والسرقات. كان يغطي كل هذه العمليات سكرتير المنطقة. وبنتيجة الأمر تداولنا في القضية في اجتماع مكتب منظمة المدينة.

(*) أي الشرطة.

وفي يوم من الأيام أُبلغت بأنه وصلت إلى المخازن كميات من لحم غنم، فذهبت ووقفت في الطابور، إذ لم يكن وجهي مألوفاً بعد لدى الناس. يصل دوري للشراء فأطلب كيلوغراماً من الغنم، فأُجاب: «يوجد ضان ولا يوجد غنم». أقول: «هذا غير صحيح، أين المدير». بدأ الناس حولي يعون الأمر فارتفعت الأصوات. وأصرَّيت على الدخول إلى المخزن. ورأيت لحم الغنم بأم عيني يُحَمَّل إلى الخارج عبر شباك كبير. خلعنا الإدارة وأتينا بأخرى.

في مطعم أحد المصانع: «لماذا ليس هناك جزر؟»!.. «لم يجلبوا جزراً». ونحقق في أمر الجزر مع إدارة المصنع. جلبوا الجزر وأعادوا شحنه في اليوم نفسه. هذا ما قاله الحمَّالون، ولا وثائق تسليم أو تسلُّم.

في مكتب مدير أحد المخازن التموينية ثمة بضع لفائف حلويات. «لمن؟» - «توصيات» «هل يمكن لأي كان أن يحجز أو يوصي؟». لا جواب. ونبدأ النظر في الأمر مع المدير: فاضطر إلى الاعتراف بأن التوصيات ترد وفق التراتبيَّة التالية: اللجنة التنفيذية للمنطقة فوازرة الخارجية فلجنة المنطقة الحزبية فدوائر المدينة وغيرها.. وهي توصيات مختلفة من حيث الوزن والنوعية..

وراجعت الميزان العام للمدينة في مجال المنتجات السكرية. غريب الأمر. يُجلب في كل طلبية بضعة آلاف من الأطنان أكثر مما يُستهلك هذا مع احتساب كمية التلف الرسمية.

وهكذا، لا أحد يستطيع كشف خبايا النظام المقفل. ومع ذلك فقد وفقت إلى حدٍّ ما. فقد باتوا يعرفون أنني أكثر من جولاتي على المخازن التموينية والتجارية، ويعرفون بم أنا مهتم. ويبدو أنهم

خافوا. مرة، وفيما أنا خارج من أحد المخازن إذا بامرأة شابة تبادرني بالقول: «يجب أن أتحدث إليك بأمر فائق الأهمية». فحدَّدت لها يوم وساعة اللقاء في مكتبي.

لا يسعني الآن أن أتذكر ما روته لي دون أن يخالجني شعور عام بالضيق. فقد حكت لي عن نظام الرشوة القائم، الذي حاولوا جرَّها إليه وإغراقها فيه منذ فترة قصيرة، فلم تستطع أن تتحمَّل. والعجيب أن كل مفاصل هذا النظام مدروسة حتى آخرها ومحبوكة جيداً. إذ «يجب» على البائع أن يخطىء الحساب مع الزبون مما يوفر مبلغاً من المال يومياً يُعطى إلى الشخص المسؤول وهنا يجري التوزيع بين إدارة المخزن وبين المستخدمين. بعدئذٍ تقتسم المبالغ في الإدارة من تحت إلى فوق، وإذا توجهت إلى مخزن الجملة فعليك هناك دفع الأتاوة المتعارف عليها. وكل واحد يعرف شخصين أو ثلاثة. وفوق هذا النظام يوجد نظام آخر أكبر وأوسع وأشمل.

وفعلت ما بوسعي حتى لا يعرفوها. فقد أصابها الرعب وطلبت الحماية، وبعد وقت قصير تم نقلها إلى مخزن آخر. وقررت مناقشة الأمر ضمن حلقة ضيقة من الموثوقين، فقررنا ألا نحدث تغييراً في مكان واحد بل أن يشمل التغيير قطاعات وأقساماً ومخازن وعنابر بأكملها، ونزرع الطاقات الشابة «غير الملوثة». وتمكنَّا من محاكمة ثمانمائة شخص خلال عام واحد.

ولكن هؤلاء لا يشكِّلون سوى جزء بسيط من المافيا لا يتجاوز نسبة ١٥٪ من اقتصاد الظل، أما المافيا السياسية فإننا لم نستطع حتى بلوغها. لم نُمكَّن من ذلك. وانتهت المدة: ها هما العامان قد انقضيا.

وبمضي الوقت لم تعد منظمة المدينة مهتمة كثيراً بهذه المسائل.

أما في ما يتعلق بـالاجتماعـات التي كنت أعقدهـا مع العـاملين في الحقل الإيديولوجي، فإنَّ موسكو التي تعوَّدت على التقارير الغريشينية الطويلة المملة المثيرة للنعاس، اعتبرت هذه الاجتماعـات وما دار فيهـا من حوارات مفتوحة وصريحة حدثاً. أما بالنسبة إلي فقد كـان مفرحـاً أن ألتقي رفاقي بالفكر فلا أتهيب الخوض معهم في أي من المواضيـع أو الأعمال مهما صعبت.

أما وأن العمل ينتظرنا عند المنعطف ـ وأي عمل صعب هو ـ فلا أحد يراوده الشك. فمن بين ثلاثة وثلاثين سكرتير منطقة وجب تغيير ثـلاثـة وعشرين. ولم يخـرج هؤلاء كلهم بسبب عجـزهم عن إدارة منظماتهم، بل إن بعضهم نال ترقيـة. وأما البـاقون فقـد اضطروا إلى تـرك كراسيهم مكـرهين بعـد كلام قـاس وصريـح معي أو في مكتب منظمة المدينة أو في مؤتمرات منظمات المنـاطق. واعترفت الأكـثرية أنها لن تستطيع العمل وفق النمط والأسلوب الجديدين. وكان لا بـد من إقناع بعضهم. وعلى وجه العموم، كانت هذه العملية قاسية ومؤلمة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن التعيينـات الجديـدة لم تكن كلها متَّسمـة بالدقة أو الصحة. فثمة مثل روسي يقول: مبادلة المخرز بالصابـون، وما أعنيه أننا أجرينا تغييرات غير ذات معنى لم تستطع تغيـير الأوضاع بـاتجاه تحسـين أسلوب الأداء والعمـل في بعض المنـاطق. ولقـد كـان لـذلك عـدة أسباب: أولاً، وكـما قلت، لم أكن أعرف الكـوادر كلها معـرفة جيـدة؛ وثانيـاً أن الاختيارات الجـديدة تمَّت وفق مـواصفـات اللوائح الموجـودة، وهي لوائـح مليئة بـالمغالـطات ومبنية عـلى أساس النظام المهترىء المعمول به. وفي جـوهر الأمـر، لم يكن الشخص هو موضوع الاختيار بل ملفه الذي في الـلائحة. ولهـذين السببين كـانت الأخطاء.

وفي نتيجة الأمر، عندما بدأت الانتقادات تُوَجَّه إلي كـوني تعاملت بصورة قاسية مع أمناء منظمات المناطق بإقصائهم عن مناصبهم يميناً وشمالاً، عمدت إلى تحليل الوضع الناشىء فتبين أنه تم تبديل ٦٠٪ من أمناء منظمات المناطق الحزبية في عهدي. بالمقابل تم تبديل حوالى ٦٦٪ من أمنـاء منـظمات الأقـاليم في عهد ميخـائيـل سرغييفيتش غورباتشوف. وإذن، كان ثمة أساس للنقاش مع الرفيق غورباتشوف حول من منا بالغ في مسألة الكوادر أكثر.

ولكن القضيـة أنه لم يكن أمـامه أو أمـامي مخرج آخـر غـير تغيـير أولئك الذين شكلوا عقبة كأداء في وجـه عملية البـيريسترويكـا. كان هؤلاء غـارقين حتى آذانهم في مستنقـع الركـود، يـرون إلى السلطة ـ ويمـارسونها ـ بـوصفها أداة لتحقيق المكـاسب الشخصيـة وللعيش في جنون العظمة. كانوا أباطرة صغاراً عـلى مستوى المنـاطق، فهل كـان من المعقـول تـركهم في منـاصبهم يعيثـون؟ وبـدا كـما لـو أنـه وجب إبقاؤهم.. وعموماً، صارت سياستي في تجديد الكوادر موضوع انتقاد شديد وقاس.

وقد خلقت الحادثة المأساوية التي أنهت حياة السكرتير الأول لمنظمة منطقة كييف (في موسكو)، انطباعـاً مريـراً لدي، حيث انتحـر ملقياً بنفسه من الدور السابع. وقتها لم يكن يعمل في المنـظمة الحـزبية بـل انتقـل إلى وزارة المعادن ليشغـل منصب نـائب رئيس إدارة الكـوادر. كان الوضع على مـا ظهر جيـداً لا يعكر صفـوه شيء، ثم فجأة يقـع هـذا الحادث المؤسف. ثمـة من اتصل هـاتفياً، وإثـر الاتصـال رمى بنفسـه من شباك مكتبـه. فيما بعـد، وعنـدمـا بُـدىء بتسميم وضعي وتنظيم حملة معادية لي، حاول بعضهم اللعب بهذه الورقة الرابحة.

وهاكم مشهداً آخر من شريط نشاطي العاصف عندما كنت أشغل

منصب السكرتير الأول، وهو مشهد سيظلون يذكرونني به طويلاً، عنيت به الوضع مع منظمة «پاميات» («الذاكرة»).

اتصل بي قادة إدارة الشؤون الداخلية، وبصوت ملؤه الرعب أبلغوني أن حشداً من منظمة «پاميات» يتظاهر في وسط موسكو التجاري، وأن المتظاهرين يرفعون بعض الشعارات والمطالب.

كانت هذه أول تظاهرة غير مصرح بها في العاصمة. فقد خرج حوالى ثلاثمائة أو أربعمائة، وربما خمسمائة مواطن، للتظاهر في ساحة الذكرى الخمسين لثورة أوكتوبر، واحتشدوا هناك طويلاً رافعين شعارات اتسمت بالرزانة بخصوص البيريسترويكا وروسيا والحرية وتعفُّن الجهاز. وكان هناك شعار: «نطالب بحضور يلتسين أو غورباتشوف». وقد حضر سايكين عدة مرات ليقابل المتظاهرين، ولكنهم لم يتفرَّقوا. ومرت بضع ساعات وبدأ الحشد يتعاظم. كان لا بد من إجراءات ما.

ولأننا في حياتنا الواقعية لم يكن يُسمح لنا بالتظاهر إلا في مناسبتين هما: الأول من أيار (مايو) والسابع من تشرين الثاني (نوفمبر)، بغض النظر عن أن الدستور منحنا أشياء كثيرة، فقد كان ثمة طريقة ناجعة ومجرَّبة للتعامل مع ظاهرات مماثلة.. كان ينبغي استدعاء الميليشيا فتحاصر المتظاهرين وتطلب إليهم للمرة الأخيرة أن يتفرَّقوا، فإذا لم يفعلوا تبدأ المطاردةُ وليُّ الأيدي والاعتقالات فينتهي كل شيء على نحو جيد وعادي. إلا أنني قرَّرت التصرف بطريقة مغايرة.. وقلت إنني سوف ألتقيهم. ومُذّاك يعمد من لا يكنُّ لي العاطفة (!) إلى اتهامي بالصداقة مع «پاميات». فلو أن المتظاهرين تلقوا الضرب على الرؤوس لكان ذلك أرضى معارضيَّ تماماً.

وقلت لسايكين أن يبلغ قادة «پاميات» ـ وكان زعيمهم وقتذاك ڤاسيلييف على ما أظن ـ موافقتي على لقائهم، واقترحت ثلاثة أمكنة: قصر السوڤيات ومقر قيادة منظمة الحزب وقصر الثقافة السياسية. واختاروا أن يتم اللقاء في قصر السوڤيات إلى حيث توجَّهوا سيراً على الأقدام. اجتمعنا في القاعة الكبرى التي تتسع لألف شخص. وعندما استقر الجميع في أماكنهم طلبت منهم الإعراب عما يريدون وطرح مطالبهم. وتكلم عدة أشخاص فعبروا عن أفكار كانت بمعظمها أفكاراً متزنة وحكيمة. فقد طالبوا، مثلاً، بضرورة الاهتمام الجدي باللغة الروسية، وعرضوا مشكلة تشويه التاريخ الروسي وضرورة حماية معالم البلاد وصيانتها، وغير ذلك من الأفكار. ومع ذلك فقد كانت هناك أيضاً أفكار متطرفة. وفي نهاية اللقاء تحدثت فقلت إنه إذا كان مصير الپيريسترويكا والبلاد هو فعلاً ما يقلقكم، وليست الطموحات الشخصية، فإنه باستطاعتكم أنتم أن تقضوا على التطرف في صفوفكم. هاتوا برنامجكم ونظامكم الداخلي وتقدموا بطلب لنيل رخصة بوصفكم منظمة اجتماعية وبما يوافق الدستور، وابدأوا العمل. كان هذا ما انتهى عنده اجتماعي بمنظمة «پاميات». كانت هذه الأشياء المملَّة، كأطر الدستور والبرنامج والنظام الداخلي، آخر ما يهمُّهم. وحدث في أوساطهم انشقاق خرجت منه مجموعة متزنة. ولم يحدث فيما بعد أنني التقيت مرة ثانية بهم...

في تلك الفترة كنا نعمل بروح معنوية عالية. وكانت قيادة البلاد تثق بي وتقدم لي المساعدة مدركة ماهية موسكو وضرورة تنظيمها ووضعها على السكة. وبُدِّل قادةُ إدارة الشؤون الداخلية ولجنة أمن الدولة ونوابهم وكثيرٌ من رؤساء الإدارة الأساسية..

وطالبت قيادتي إدارة الشؤون الداخلية ولجنة أمن الدولة بتقديم

تقارير دورية عن أوضاع المدينة. وفي الوقت نفسه بذلت المساعدة عن طريق إشراك الأوساط الاجتماعية والهيئات الحزبية والسوفياتات والمؤسسات الصناعية للمساهمة في فرض النظام بالعاصمة، وكانت تنظم دوريات تفتيشية مفاجئة في كل أنحائها، فجرى تفتيش كل حوش وقبو وبيت مهجور في المناطق الواحدة تلو الأخرى. وقد أثمرت هذه الحملات نتائج ممتازة، إذ تم القضاء على بؤر التوتر والأماكن التي كانت تتجمّع فيها العصابات والمدمنون على الكحول والمخدرات، فضلاً عن أن الميليشيا عثرت على مطلوبين للعدالة على مستوى الاتحاد السوفياتي ككل، الأمر الذي لم تكن تتوقّع حدوثه. والرئيسي في أمر هذه الحملات أنها لم تتسم لا بالاستعراضيَّة ولا بالآنية. وكنا نعمد إلى تغيير إيقاعها الزمني كي لا ينشأ لدى هؤلاء الذين يخشون مواجهة الميليشيا أي نوع من التكيُّف إزاء عمليات تطهير المدينة وفرض النظام فيها.

وكما ذكرت آنفاً، كانت موسكو تختنق بفائض البشر فيها، وأردت التأكد بنفسي، وليس فقط عن طريق الإحصائيات والأرقام، من أوضاع المواصلات التي بلغت شأواً بعيداً من التوتر. ووضعت نصب عيني مهمة معرفة كيفية وصول الموسكوفيين إلى أماكن عملهم، وليس فقط أن استقل المترو أو الباصات في أوقات الازدحام المعروفة.

وعلى سبيل المثال، عرفت أن كثيراً من عمال مصنع خرونيتشوف يقطنون في منطقة نموذجية حديثة اسمها ستروغينو. وصلت إلى هذه المنطقة في السادسة صباحاً وركبت الحافلة مع العمال شبه النائمين ثم قمت بتحويلة إلى المترو. وفي الطريق سمعت من هؤلاء الناس المتعبين المتوترين أموراً كثيرة عنا وعن الرؤساء الذين خرَّبوا البلاد.. . ثم انتقلت بعد المترو إلى حافلة، وما كادت الساعة تبلغ

السابعة والربع تماماً، موعد بداية يوم العمل، حتى كنت واقفاً أمام مدخل المصنع. هذا مشهد واحد من جولات كثيرة مماثلة قمت بها.

كانت ردة فعل المكتب السياسي على رحلاتي في وسائل النقل العام متميزة. فقد كان واضحاً أن أحداً من أعضائه لم يبد اعتراضاً علنياً، ولكن بلغتني موجات ما كانوا يشعرون به من الاستفزاز. وعندما آن أوان الانتقاد انفجر ما كان متراكماً، إذ اعتبرت هذه الرحلات محاولة رخيصة لكسب الشعبية.

غباء، فالأمر الرئيسي الذي كان يعنيني هو تلمُّس مشكلات المواصلات بنفسي، لمعرفة ماذا ينبغي فعله بصددها وكي نزيل الضغط في ساعات الازدحام شيئاً فشيئاً. وقد عمدنا بالفعل إلى وضع نظام مرن بشأن بداية يوم العمل في المؤسسات والمصانع الموسكوفية وأطلقنا مزيداً من وسائل النقل في خطوط جديدة مستحدثة وغيرهما من التدابير العملية.

وأود هنا التحدث قليلاً عن الشعبية. فما أعجب له أن أحداً غيري لم يرد أن يكتسبها طالما أن اكتسابها أمر سهل! إذ يكفي أن يستقل الساعي وراءها وسيلة نقل عامة؟! أم لعلها الرغبة في ألاّ يُتعب نفسه لمعرفة ماهية الشعبية، وهي مسألة نسيها الجميع منذ زمن بعيد. لا. ليس الأمر في هذا ولا في ذاك، بل في أن ركوب الـ «زيل» الفخمة أسهل وأكثر ملاءمة وراحة بالفعل؛ فلا زحام ولا محطات... ناهيك عن الضوء الأخضر الذي لا ينطفىء والتحيات التي تؤديها شرطة المرور... هذا أفضل دون ريب...

وبشكل عام، لم تفاجئني ردود الفعل على تنقلاتي العامة. ففي سڤيردلوڤسك كان ذلك ظاهرة طبيعية، بل إن الناس لم يلقوا إليها

بالاً أو اهتماماً. . وماذا في الأمر إذا استقل سكرتير منظمة الحزب الإقليمية الأول الترام؟ يفعل ذلك، إذن فهذا ضروري. أما في موسكو فقد تحوَّل الأمر قضيةً مثيرة.

وأثناء تولِّيَّ منصب سكرتير منظمة موسكو اتُّخذت عدة قرارات مبدئية حاسمة. فقد أقر المكتب السياسي وثيقة تتعلق بتطوير العاصمة، كنت قد تقدَّمت بمشروع صياغتها. وقد تضمَّنت هذه الوثيقة قراراً مهماً بوقف استجلاب المحدودين من العمال من أرجاء الاتحاد. فقادة المؤسسات الذين كانوا يستجمعون المحدودين عمدوا إلى الإفادة منهم في مختلف أنواع الأعمال الأشد وضاعة والأقل تصنيفاً بأبخس الأجور. والاعتماد على هذه الفئة كبح عملية تحديث المؤسسات والمصانع، لأنه كان من الأسهل استجلابها من مدن أخرى بالمقارنة مع الجهد الضروري بذله لتحسين ظروف الإنتاج.

وهكذا، فقد شكَّل المحدودون عبيداً من نوع خاص مجرَّدين من أي حقوق لمجتمع الاشتراكية المتطورة في نهاية القرن العشرين، إذ كانو مشدودين إلى المؤسسات التي يعملون فيها حتى الموت، بالارتهان لإقامة مؤقتة في موسكو والعيش في مساكن جماعية، أملاً بالفوز بإقامة ثابتة. وكان من الممكن إنزال العجائب بهم، حتى ما يخالف القوانين، دون خوف من أن يعمدوا إلى الادِّعاء أو توجيه شكوى. . وإلاّ فستُسحب الإقامة المؤقتة، وهاكم أربع أرجاء البلاد. . . وبسبب كل هذا التحقير والظلم انكب كثيرون منهم على معاقرة الفودكا. كانت مآوي «المحدودين» بيئة خصبة لحالة إجرامية ما فتئت تزدهر توتراً. وبالمناسبة، أُشير هنا إلى أن الإقامات المؤقتة أعيدت مجدَّداً إلى بعض المؤسسات لاستجلاب المحدودين، وذلك بعد إقصائي عن مهامي الحزبية.

ومن القرارات المهمّة، التي اتخذناهـا في إبان تلك الحقبـة، القرار المتعلّق بتحديد المؤسسات الواجب نقلها من موسكو كبعض المصانـع والفبارك التي تلوِّث أجواء المدينة، وتنتج سلعاً تُصَـدَّرُ إلى خارجهـا. كـما حُدِّدت بـرامـج تستهـدف تحسـين بنيـة العـاصمـة، إذ كـان من الضروري إخـلاء المناطق السكنيـة في مركـزها التجـاري وإعـطائهـا للمخازن والمسارح والمتاحف والمطاعم لاستثمارها.

وأجرينا تحقيقات كبرى في بعض الإدارات والـوزارات ـ كوزارتي التجارة الخارجية والشؤون الخارجية ـ وعندما جهزت تقارير اللجـان المتعلقة بأوضـاعها أُميط اللثـام عن فضائـح مثيرة تـدعو إلى القـرف، ليس أقلها علاقات القربى والصفقات. . .

إن وضـع هذه الإدارات يثـير العجب، وهو يعكس مجمـل جوهـر المجتمع الذي يتميز بازدواجيـة الأخلاق والنفـاق العلني. فقد كـانت هستيريا الكلام على فساد الرأسمالية وأمراض المجتمع الغربي الفظيعـة وقذارة نمط حياتِـ «هِم»، تنفجر من كل منابرهـا صغيرهـا وكبيرهـا. وفي الـوقت نفسه، كـان الآباء الـرؤساء المعيَّنـون وفق النومنكـلاتورا يفعلون الممكن والمستحيـل لإلحـاق أبنـائهم بـالمعـاهـد التي تعـدُّ الديبلوماسيين كيما يتم إرسالهم في بعثات إلى الخـارج. كان بـإمكانهم تدبيج أي كذب وتأليف أي خرافة في موضوعة «الاشتراكيـة المتطوِّرة» وفي الغرب الذي يعيش آخر أيامه، لقاء السفر ولو بمهمـة إلى الخارج لفـترة شهر أو سنـة لممارسـة التعفُّن هناك! وفي الخـارج سيكون ممكنـاً شراء آلات الستجيـل بنقود المُهمَّـة، ليصار عنـد العودة إلى بيعهـا في مخازن القومسيون للحصول على كمية ضخمة من المال.

وهكذا، تصدينا لفرض النظام في هذه المنظمات التي ظلت سنوات طـويلة مغلقـة دون النقـد. وكـان الأمـر سهـلاً في مـا يتعلّق بـوزارة

الخارجية، إذ تولّى الوزارة شيفارنادزه وسوّى أمر أولئك الخبراء الكذبة التي غصّت بهم مرجعية البلاد الرئيسية في السياسة الخارجية. أما في وزارة التجارة الخارجية وغيرها من الإدارات العامة فقد جرت تسوية الوضع ببطء وهدوء فخلعت القيادات الحزبية والإدارية واستبدلت بأخرى، فتحسّنت الأوضاع فيها نوعاً ما.

كان دوام عملي مرهقاً وضاغطاً وأنا الذي أتّسم بالصبر: يبدأ يوم عملي في السابعة صباحاً حتى منتصف الليل أو بعده بساعة أو اثنتين. أما السبت فكان يوم عمل كاملاً. وفي الآحاد كنت أعكف على كتابة الخطابات والتقارير والردود على الرسائل، وأجول على المعارض الدائمة وقت الظهيرة.

وعندما أسمع من يقول إن القائد الذي يعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم يعتبر منظِّماً رديئاً لأنه لا يستطيع تنظيم نشاطاته، فإني أعتبر هذه الأحاديث غير جدية البتة. وبالطبع، كان بإمكاني مثلاً العودة إلى البيت والعائلة بعد اجتماع للمكتب انتهى في الثامنة مساء، فيُعتبر ذلك تنظيماً جيداً للعمل، أما إذا نزلت بعد العمل لأتجوّل في المخازن بهدف معرفة أوضاع التموين ولأعرج على مصنع للقاء عماله ومحاورتهم ولأرى بنفسي كيف تنظم ورديات العمل الليلية لأعود إلى البيت عند منتصف الليل، فيعتبر هذا تنظيماً سيئاً للعمل. لا . . وهذا ما تفتّقت عنه قريحة الكسالى لتبرير وضعهم الشخصي. في تلك الفترة لم يكن عندي وقت اسمه وقت فراغ.

أذكر أنني في إحدى الليالي، ولدى وصولي إلى البيت، فتح مرافقي باب الـ «زيل» فلم أقو على الخروج من السيارة، وظللت جالساً فيها نحو خمس أو عشر دقائق. كانت زوجتي تقف وراء زجاج نافذة الشقة وقد أخذ منها القلق مأخذاً وهي ترمقني بنظرات

متسائلة. لم يكن لدي قوة كافية كي ألوح لها بيدي من شدة الإرهاق.

وأنا، بالطبع، لم أطالب الآخرين ببذل عطاء كهذا في العمل، إلا أنني لم أكن أطيق هذه الأحاديث عن المسؤول الذي لا يعرف كيف ينظم نشاطاته..

وبغض النظر عمّا بدا أنه يحسّن الأحوال، شعرت وكأننا بدأنا ندق رؤوسنا بالحائط. لن نتمكّن بكلمات جديدة وجميلة عن البيريسترويكا هذه المرة أن نتذرع ونبرّر. فالمطلوب استكمال التغيير بخطوات ملموسة كي نتقدّم إلى الأمام، بيد أن غورباتشوف لم يرد أن يخطوها. وكان أكثر ما يخشاه التعرض للماكينة الحزبية - البيروقراطية، قدس أقداس نظامنا. وكان واضحاً أنني ابتعدت كثيراً في مداخلاتي أثناء لقاءاتي بالموسكوفيين، ومن الطبيعي أنه كان يتلقّى تقارير دورية عما يصدر عني.. وساءت الأحوال.

وبالتدريج، أصبحت أستشعر التوتر الذي يسود اجتماعات المكتب السياسي ليس حيالي فحسب، بل حيال كل المسائل التي كنت أطرحها، وهكذا حلّ الشعور بالغربة. وتوتر الوضع أكثر إثر عدة صدامات جدية مع ليغاتشيف في المكتب السياسي بصدد التسهيلات والامتيازات، وبلغ التوتر ذروته عندما عارضته بشأن قرار لمكافحة الإدمان على المسكرات، حيث طالب بإغلاق معمل البيرة في موسكو وتصفية كل مجموعات الاتجار بالمشروبات الروحية حتى النبيذ والبيرة.

وبصورة عامة كان من المذهل أن تتسم كل حملته ضد السكر والإدمان بالأمية والغباء. إذ لم يأخذ بعين الاعتبار لا الجانب الاقتصادي ولا الجانب الاجتماعي من المسألة، بل توغّل في الأمر

بشكل عبثي وبلا معنى، مما جعل الأوضاع تسوء أكثر فأكثر مع مرور الأيام والأشهر. وقد تكلمت مراراً في هذا الشأن مع غورباتشوف، ولكني لم أعِ تماماً ماذا كان يقصد باتخاذه موقف المترقِّب، مع أنه كان من الواضح أن التخلص من هذا الشر القديم قدم القرون لا يمكن أن يتم بمجرد قفزات فروسية. وبدأت التهجُّمات على تشتد وتقسو. وبُسِطَتْ لي الأمثال والإحصائيات من الجمهوريات: ها هي ذي أوكراايينا قد تقلَّص فيها بيع المشروبات الروحية بحدود ٤٦٪، فأردُّ: انتظروا لنرى ماذا سيحدث هناك بعد ثلاثة أشهر. وبالفعل، لم يمض وقت قصير حتى أخذ المتعاطون في كل مكان يشربون كل ما هو سائل! وسرعان ما بدأوا أيضاً يشمون ما شئت من القذارات، وتعاظم عدد مقطِّري الفودكا البيتيَّة، المكثَّفة، السيئة، كما ازداد عدد مدمني المخدرات.

إذن، لم ينقص استهلاك الخمور، ولكن المدخول الناتج من بيعها تحوَّل إلى جيوب المقطِّرين ومافيات السوق السوداء. ونمت حوادث التسمُّم بصورة كارثية، وكانت تنتهي غالباً بالموت. وفيما الوضع المتوتر يهيمن في الواقع كان ليغاتشيف يعلن بحماس عن النجاحات التي تحقَّقت في مكافحة السكر والإدمان. وقتذاك كان يعتبر الرجل الثاني في الحزب الآمر الناهي يميناً وشمالاً، فكان من المستحيل إقناعه بشيء على الإطلاق. ولم أستطع والحالة هذه تقبُّل عناده وسطحيته، إلا أنني لم أحصل على مساندة من أحد. وحانت لحظة التفكير في ما ينبغي عمله لاحقاً.

وفي كل الأحوال كنت ما أزال آمل بدعم غورباتشوف، وآمل أنه سيفهم عبثية سياسة أنصاف الحلول والمراوحة في المكان. فبدا لي أن براغماتيته وحدسه الطبيعي، ببساطة، يكفيان ليدرك أن الأوان قد

حان لخوض المعركة ضد الجهاز، وأن استرضاء كـلا الشعب ونافـذي النومنكلاتـورا لن ينجح، إلا إذا كـان يمكن الجلوس على كـرسيين في آن.

وطلبت موعداً لأثير حواراً حاداً. وتم لقاء استغرق ساعتـين وثلث الساعة قلت فيهـا كل مـا كان لـدي من أفكـار. أذكـر أنني عنـدمـا خـرجت من لقائـه كنت حانقـاً جداً، وكـانت وقائـع الحوار مـا تزال حية، فأسرعت أسجلها.

وبالنسبة لي كانت رنة الجرس الثالثـة ـ كما يقـال في المسرح ـ قد أزف مـوعدهـا أثناء إحـدى جلسـات المكتب السيـاسي حـين نـوقش مشروع التقرير الذي سيلقيه غـورباتشـوف بمناسبـة الذكـرى السبعين لثورة أكتوبر، وكان قـد وزع علينا، نحن أعضـاء اللجنة المـركزيـة، قبل الاجتماع، فمُنحنا ثلاثة أيام لدراسته كما ينبغي.

كـان النقاش مختصـراً جداً وبـالدور، فقـد اعتبر الجميـع أنه يجب الإدلاء ببضـع كلمات، فأجمعوا على بعض المـلاحظات غـير المبدئيـة. وعندما حـان دوري حدَّدت عشرين مـلاحظة جـدية تنـاولت الحزب والجهـاز وتقويمـاً للماضي وتصوُّرات لآفـاق تـطور البـلاد وغـيرهـا من المسائل المهمة.

وحـدث غير المتوقَّع: لم يتحمَّـل غـوربـاتشـوف فقـطع الاجتماع وانسحب من القاعة. فوجىء الجميع. ظـل أعضاء المكتب السيـاسي والأمنـاء في أماكنهم صـامتين لا يـدرون مـاذا يجب عمله. . واستمـر الوضع كذلك حوالى نصف ساعة. ثم عاد غـورباتشـوف وبدأ يـوجه كلاماً إلي شخصياً عازفاً عن الرد عـلى ملاحـظاتي. . ويبدو أنـه فجَّر كـل ما راكمـه حيالي في الفـترة الأخيرة، معتمـداً لهجة تقـرب من أن تكون هستيرية. وكانت تتنازعني في ذلك الوقت رغبة في الخـروج من

القاعة حتى لا أصغي إلى مـلاحظاتـه التي كانت أقـرب ما تكـون إلى الإهانات.

قـال إن الوضـع في موسكـو من سيء إلى أسوأ وإن الجميـع لديـه انتقـادات علي وإن لـدي شخصية صعبـة سماتهـا معقدة، وأنني دائم الانتقاد، حتى في المكتب السياسي أدلي بملاحظات ذات طابع معـين. وقـال إنه انكب عـلى إعداد مشروع هـذا التقريـر وقتاً طـويلاً، ومـع علمي بذلك، فقد سمحت لنفسي بتقويمـه على النحـو الذي فعلت. تكلم طويلاً واستفاض، وأنا طبعاً لم أنتبه للوقت، ولكنـه استغرق في الكلام على ما أعتقد حوالى أربعين دقيقة.

ودون أدنى ريب كـان غـورباتشـوف في تلك اللحـظات يكنُّ لي الكراهية بكل بساطة: وأقول بكل إخلاص لم أكن لأتوقَّع كل ذلك. كنت أعلم أن كلماتي قد تستفزُّه ولكن ليس بالشكل الذي به انفعل، كـما لو أننـا كنا في بـازار، غـير مـدرك عمليـاً أي شيء ممـا قيـل!.. وبالمناسبة، فيما بعد، تم تبديل أجزاء كثيرة من التقـرير وأُخذت بعض ملاحظاتي بعين الاعتبار أيضاً.. وبالطبع لم يكن ما حدث كل شيء. شيء.

جلس الآخرون صامتـين يحسبون ويحلمـون.. ولم ينبر أحـد منهم للدفـاع عني أو للتعبير عن استهجـانه... كـان الوضـع صعباً. ولمـا انتهى نهضت وقلت: «إنني طبعاً سأفكر في بعض الملاحظات الموجهة إلي وفي ما إذا كانت منصفـة أم لا. فإذا كـانت منصفة فسـأراعيها في سياق العمل، ولكني أرفض معظم الاتهامـات.. إني أرفضها لمـا فيها من تحامل وبسبب الشكل الفظ الذي قيلت به».

وقـد انتهى النقـاش عنـد هـذا الحـد، وتفـرق الجميـع منكِّسي

رؤوسهم. وقد اعترتهم الكآبة، وكنت في طليعتهم. وكانت هذه البداية بداية النهاية. بعد ذلك بات غورباتشوف لا يلحظ وجودي، بالرغم من أننا كنا نلتقي رسمياً مرتين على الأقل أسبوعياً: أيام الخميس في اجتماعات المكتب السياسي وفي غيرها من الاجتماعات واللقاءات. بل إنه لم يعد يمد يده ليسلّم علي فيحييني بصمت وعن بعد، ولم نعد نتبادل الحديث.

وأحسست أنه قرر، آنذاك، قطع آخر خيط، وهكذا بدوت غريباً وسط فريقه المطيع.

يوميات الانتخابات

١٠ آذار (مارس) ١٩٨٩

لن أعتاد على ذلك. ففي كل مرة تنهمر على رأسي الافتراءات والاستفزازات المتلاحقة، أشعر بضيق وانزعاج رهيبين، وأعاني من جرائها، علماً بأنه آن الأوان لتقبُّل الأمور بهدوء ودون انفعال. ولكني لا أستطيع!

ومنذ وقت قصير اتصلوا بي من عدة مواقع منبئين عن إطلاق كرّاس من عشر صفحات مجهول المؤلف في منظمات المناطق الحزبية، يتناول طرائق التشهير بالمرشح يلتسين. وتمكّن أعواني من الحصول على نسخة منه وأكرهت نفسي على قراءته.. مرة أخرى انتفضت غضباً، لا لخشيتي من أن ينفضّ المقترعون من حولي، فالإنسان الطبيعي، المحترم، لن يتقبل على ما أعتقد افتراء وضعه مجهول، ولكن ما أذهلني تلك الدرجة من التشوُّه الخلقي وانحطاط جهازنا الايديولوجي الذي يقوم بأكثر التصرفات وضاعة وإثارة للخجل.

ولم نستطع العثور على الجهة التي وضعت الكراس، بيد أنه صدر عن جهات عليا نظراً لكونه مرشداً لممارسات سريعة وناشطة. وهكذا، عمد أمناء منظمات المناطق الحزبية إلى جمع نشطاء المؤسسات والمنظمات في قاعات منظماتهم وراحوا يقرأون على مسامعهم محتويات

هـذا الكراس الهجـائي. وأكاد لا أمسـك نفسي عن إيراد مقتـطفات مثيرة منه:

«من مفـارقـاتـه أنـه وفي الـوقت الـذي يـبرز فيـه نصيـراً للطرائق الضاغطة والسلطوية الهيمنية في عمله مع الكوادر، فهو يعتبر الدخول في السوفيات الاجتماعي «ميموريـال» أمراً عـادياً. أليس عـظيماً مـدى شمولية عواطفه السيـاسية؟ هكـذا، إذن، في الـ «ميموريـال» حيث شكل مع سولجنتسين فريقاً واحداً، ومع الـ «باميات» التي هـرع إلى الالتقاء بها بعـواطف مشبوبـة عام ۱۹۸۷. أليست هـذه هي المرونـة التي تسيرها في الواقع اللامبدئية؟».

«إنـه يناضـل بنشـاط من أجـل الـترشيـح في انتخـابـات منـدوبي الشعب، وهو في الواقع يكشف كل أوراقه»..

«ما الذي يحركهم؟ أهي مصالح الناس البسـطاء؟ وإذا كان ذلـك صحيحـاً فلماذا لا يدافعـون عن هذه المصـالح وهم راهنـاً في مواقـع الوزراء؟ بل إن ما يحركهم فعـلاً تلك الأنانيـة المتمكنة والـطموحـات التي لم يستـطيعوا التغلّب عـلى سلطانها، والقبض على زمـام السلطة. ولماذا يجب أن يتحوَّل الناخبون بيادق بين يدي يلتسين؟».

«يتكـون انطبـاع أنه يسعى إلى النيـابة عن الشعب لأنـه يجد فيهـا «سقفاً سياسياً» من السهل تحقيقه».

«إنه ليس برجل سياسة، بل هو محدود سياسي».

كـان من المفروض أن يتفـرق الحزبيـون بعد سـماعهم قـراءة هـذه الوثيقة ليبثـوا ما سمعـوه بين قـواعدهم ولفتـح أعين الكـادحين عـلى صورة يلتسين السيئة البغيضة.

ولكن الخطة أخفقت. ذهب الدعاة الإيديولوجيون بالطبع إلى القواعد الحاشدة، وهناك كان لهم استقبال!.. طبعاً كثيرون لم يحضروا هذه الاجتماعات، لا بل انبرى بعضهم يطالبون بوقف هذه الاستفزازات ضد المرشح يلتسين. وبصورة عامة نشأت ردود فعل متباينة، ولكن الجدير ذكره أن خطة الجهاز الافترائية لم تثمر إطلاقاً أي تأثير. وشكراً لصحيفة «موسكوفسكيي نوفوستي» التي أحبطت هذا النشاط.

خلوت مرة إلى نفسي أحسب بهدوء كم من الممارسات المفتعلة ضدي الكبيرة منها والصغيرة ـ وكلها تهدف إلى الحؤول دون انتخابي ـ فهالني عددها، حيث بدت كافية للتشويش على كل أعضاء مجلس السوفيات الأعلى. فمن الممارسات أيضاً منع الاجتماعات مع الكادحين في القاعات مما سبَّب توقفها، فضلاً عن تشويه السمعة ونشر الأكاذيب المطبوعة والخداع...

وبات الأمر محزناً عندما تولَّت القضية اللجنةُ المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي. جرى ذلك في اجتماعها الكامل، الذي تضمن بالمناسبة انتخابات مخجلة لمرشحي الحزب كونه منظمة اجتماعية، فاتُّخذت توصية خاصة تتعلق بي. ففي اليوم الثاني نشرت الصحف القرار القاضي بتشكيل لجنة برئاسة عضو المكتب السياسي ف. أ. ميدفيديف للتحقق في المداخلات والآراء الصادرة عني في اللقاءات مع الناخبين.

بدأ كل شيء عندما ألقى العامل تيخوميروف عضو اللجنة المركزية كلمة في الاجتماع، وهو نموذج العضو الطيع المطيع المنفذ المستعد.

في الماضي القريب كان أمثاله من الأعضاء كثراً، ذلك أن ما كانوا

ينطقون به اعتبر معبِّراً عن مواقف الطبقة العاملة، الأمر الذي يلقى ترحيب القيادة وتأييدها، فتعكسه قرارات مغامرة تصدر عن الحكومة، بدءاً باجتياح تشيكوسلوفاكيا وإبعاد سولجنيتسين والتشهير بساخاروف، وانتهاءً بإسداء المساعدة العسكرية العاصفة لأفغانستان. ولتحقيق هذه الأهداف كان دائماً يتوفر أشخاص مثل تيخوميروف جاهزون، ولقد صدق الكاتب دانييل غرانين حين أطلق عليه لقب: «تيخوميروف النومنكلاتورا».

ألقى صاحبنا بياناً جاء فيه إنه «لم نعد نستطيع السماح لأشخاص مثل يلتسين بالبقاء في عداد لجنتنا المركزية المتماسكة. فهو يخطب أمام الناخبين مفترياً على الحزب ويسمح لنفسه بمهاجمة المكتب السياسي، وهو نفسه فضلاً عن ذلك بيروقراطي رغم أنه يشتم البيروقراطية في مداخلاته. ولقد حاولت أن أقصده شخصياً في مكتبه فجعلني أنتظر أربعين دقيقة، أنا عضو اللجنة المركزية».

كان ذلك كذباً عادياً. لقد أتى بالعفل وانتظر أيضاً أربعين دقيقة، ولكنه لم يطلب موعداً، وفي هذا الوقت كنت مجتمعاً باختصاصيين روّاد في حقل البناء والإسكان. ولكن ما إن أعلمتني سكرتيرتي أن في غرفة الانتظار تيخوميروف، حتى طلبت من الرفاق المجتمعين الاستراحة قليلاً، وتبادلت الحديث معه بشأن مسألة تافهة. عندئذ تولَّدت لدي الشكوك: «لماذا ظهر الآن تيخوميروف؟..». وعندما ظهر على خشبة الاجتماع الكامل للجنة المركزية أصبح كل شيء واضحاً.

وقاطعته قائلاً إن ما يقوله غير صحيح وإنه افتراء. كان من المفترض أن يدين غورباتشوف الاستفزاز ضدي ويخفِّف من وقعه، إلا

أنه لم يتحرك، فبدا أنه انزلق نهائياً، لا بل بدا أن كل شيء محضّر سلفاً. وهكذا اقترح تشكيل اللجنة المذكورة.

وقد سبَّبت الأخبار انفجار الناس أكثر فأكثر، إذ وردتني في الأيام التالية رسائل وبرقيات كثيرة من جميع أنحاء البلاد تستنكر إنشاء اللجنة. وبصراحة، فقد زاد قرار اجتماع المركزية رصيدي عند الجماهير ورفع من نسبة تأييدهم.

هل يعلم قادتنا الحزبيون أن الأشياء الضرورية والأكثر بدائية معدومة في البلاد: فلا غذاء ولا لباس ولا صابون؟ أم أنهم يعيشون وفق قوانين أخرى؟

في حقبة المكاشفة والغلاسنوست بدا أنهم حكوا كل شيء، حتى أسرار السلطة السياسية «غير البعيدة في الزمن. ولكن لماذا يسود صمت مطبق عن قادة السلطة الحاليين؟

لماذا لا يعلم الناس شيئاً عن قادتهم ومداخيلهم وأسلوب حياتهم؟ أم أن هذا سر لا تجوز معرفته؟

إحكِ لنا كيف كان شعورك عندما وجدت نفسك في «فردوس النومنكلاتورا»؟. وهل صحيح أن الشيوعية تسود فيه منذ زمن بعيد بثبات؟

(من الأسئلة التي وجهها الموسكوفيون أثناء اللقاءات والاجتماعات الانتخابية).

شاع كلام كثير حول انتخاب غورباتشوف أميناً عاماً للحزب في آذار (مارس) ١٩٨٥ في اجتماع اللجنة المركزية الكامل. ومن

التخرُّصات التي سمعناها أن أربعة من أعضاء المكتب السياسي حدَّدوا مصير البلاد بدفعهم غورباتشوف إلى الأمام وانتخابه أميناً عاماً. وقد أعلن عن ذلك ليغاتشيف صراحة أثناء الكونفرنس الحزبي التاسع عشر، فأهان برأيي غورباتشوف نفسه وكل من شارك في انتخابه. وبالطبع كان الصراع موجوداً فعلاً، إذ عثرنا ـ كما ذكرت آنفاً ـ على لائحة للمكتب السياسي الذي عمل غريشين على تأليفه عندما قرر أن يصبح زعيم الحزب.. كانت التركيبة المزمع إعلانها لا تضم إلا أزلامه، وبالتالي فقد خلت من غورباتشوف وغيره.

وبالرغم من كل شيء فقد قرَّرت اللجنة المركزية هذه المرة مصير الأمين العام. لقد أدرك كل المشاركين في دورة الاجتماعات، بمن فيهم أمناء المنظمات الإقليمية الناضجون المجرِّبون، أن خوض التجربة مع غريشين يكاد يكون مستحيلاً.. بل إن نهاية البلاد والحزب مضمَّنة فيها. ولو قُدِّر له أن يتولَّى الأمانة العامة لتمكَّن من إفراغ تنظيم الحزب على مستوى البلاد، كما سبق له وفعل في موسكو، في غضون فترة زمنية قصيرة. إذن، كان لا بد من الحؤول دون وصوله كما لم يكن من الجائز أن تُغفل صفاته الشخصية: من تيهه وخيلائه إلى زهوه وثقته العمياء بنفسه إلى إحساسه بتنزُّهه عن الخطأ وهوس السلطة.

وأجمعت آراء فئة واسعة من الأمناء على دعم ترشيح غورباتشوف لمنصب الأمين العام من بين كل أعضاء المكتب السياسي.. فهو شخص يتميَّز بالحيوية والذكاء وذو سن مناسبة تماماً، فقرَّروا ترشيحه. وبدأوا يجولون على بعض أعضاء المكتب السياسي بمن فيهم ليغاتشيف. كان رأينا بشأن غورباتشوف متطابقاً مع رأيه لأنه كان يخاف من غريشين قدر خوفنا منه. وبعدما بات واضحاً أن هذا هو

رأي الأغلبية قرَّرنا وقوف الموقف نفسه بوجه أي ترشيحات محتملة أخرى، سواء كان المرشح غريشين أو رومانوف أو غيرهما.

ويبدو أن تداولاً جرى في المكتب السياسي، حيث كانت وجهة نظرنا الحازمة معروفة من أعضائه، فأيَّدها أيضاً غروميكو. فهو الذي تكلم في اجتماع اللجنة المركزية الكامل وطرح غورباتشوف مرشحاً لمنصب الأمين العام. ولم يغامر غريشين وزمرته في اتخاذ خطوات مغايرة، وذلك أنهم أدركوا ضآلة حظهم بالفوز بل إن فرصهم كانت تساوي صفراً في الواقع، ولذا مرَّ ترشيح غورباتشوف دون أي عقبات تذكر. كان ذلك في آذار (مارس).

وفي ٢٣ نيسان (إبريل) ١٩٨٥ بدأت دورة اجتماعات اللجنة المركزية المشهورة، حيث أعلن غورباتشوف مفاصل نهجه المستقبلي - نهج البيريسترويكا.

وثق الناس بغورباتشوف وآمنوا به سياسياً واقعياً وتقبلوا تفكيره السياسي الدولي الجديد. وقد فهم الجميع أنه لم يعد ثمة مجال للعمل والعيش كما عملنا وعشنا في السابق سنوات كثيرة. فالنمط القديم كان بمثابة نحر للبلاد. تحققت خطوة صحيحة رغم كونها طبعاً ثورة من فوق، ومثلها من الثورات ينقلب حتماً في نهاية الأمر ضد الجهاز إذا لم يكن ذا قدرة على الأمساك بالمبادرة الشعبية والسيطرة عليها في لحظة من لحظات الانعطاف. وها هو الجهاز بدأ يقاوم البيريسترويكا ويكبح جماحها ويصارعها حتى تمكَّن منها ونجح عملياً في تجميدها. أضف إلى ذلك أن مفهوم البيريسترويكا نفسه لم يكن مشغولاً بعمق أو لم يخضع لتفكير عميق. وبدا أنها مجرد مجموعة من الكلمات والشعارات والنداءات الرنانة إلى حد بعيد. ومع أن هذه الكلمات ليست جديدة على الإطلاق، إذ يمكن العثور عليها حتى عند كانط،

فهي معروفة منذ بضعة قرون . . .

فعندما قرأت كتاب غورباتشوف «الپيريسترويكا والتفكير الجديد» كان يحدوني الأمل بإيجاد جواب على السؤال التالي: كيف يتصوَّر المؤلف ستكون طريقنا مستقبلاً؟ ولا أدري لماذا لم يتكوَّن لدي انطباع حول الكُلِّية النظرية للكتاب. إذ ليس واضحاً مثلاً كيف يرى إلى إعادة بناء بيتنا، وطننا، وبأي المواد يزمع المباشرة بإعادة البناء ووفق أي تصاميم؟ إن مصيبة غورباتشوف تكمن في أنه لم يملك، ولا يملك، في هذا الصدد مخطَّطات نظرية واستراتيجية معمَّقة. ثمة فقط شعارات. ومن المثير للعجب أنه انقضى منذ إعلان الپيريسترويكا في نيسان (إبريل) ١٩٨٥ أكثر من أربع سنوات، ومع ذلك ما زالوا يصفون المرحلة بأنها البداية أو المرحلة الأولى أو الخطوات الأولى . . أربع سنوات كاملة!

في الواقع إنها فترة طويلة . . فهي تشكِّل في الولايات المتحدة عهداً رئاسياً ينبغي فيه على الرئيس أن يحقق كل ما بوسعه تحقيقه من الوعود التي قطعها عند انتخابه. فإذا لم تتقدم البلاد إلى الأمام لا يُعاد انتخابه. مثلاً، حدثت تغيُّرات إيجابية في مختلف القطاعات والمسائل إبان عهد ريغان، ولذا فقد أعيد انتخابه لولاية ثانية. فقد تبين أنه ليس بسيطاً كما تهيأ لنا أو كما صوَّروه لنا. ومع ذلك بقيت أمراض عديدة لم يتمكن خلال ثماني سنوات من معالجتها، وبالمقابل كان واضحاً أن تقدماً كبيراً حصل، خصوصاً في الاقتصاد، إذ أمسى أكثر استقراراً.

أما عندنا فقد ازداد توتر الوضع إلى درجة أصبحنا معها نخشى اليوم ممَّا سيحمله الغد، وخصوصاً تلك الحالة الكارثية في الاقتصاد. وإن مصيبة غورباتشوف الكبرى تكمن في خوفه من اتخاذ القرارات

الحاسمة الفائقة الضرورة، وقد ظهرت هنا بأجلى مظاهرها.

ولكن، دعونا لا نستعجل الأمور. فبعد أن توليت منصب سكرتير اللجنة المركزية لأصبح إثر ذلك عضواً مرشحاً إلى المكتب السياسي، استغرقتني حياة جديدة تماماً، فشاركت في جميع جلسات المكتب السياسي وبعض جلسات الأمانة العامة. وكان المكتب السياسي ينعقد يوم الخميس في الحادية عشرة قبل الظهر لينتهي في ساعات متأخرة من المساء.

لم تكن اجتماعات المكتب السياسي من هذه الناحية شبيهة بتلك التي ترأسها بريجنيف، عندما كانت تُحضَّر مشاريع القرارات بسرعة لتقر في غضون ١٥ ـ ٢٠ دقيقة.. لا اعتراضات؟ إذن، لا اعتراضات، وينفضّ الاجتماع! في تلك الفترة كان بريجنيف مولعاً بالصيد فقط، هذه الهواية التي منحها كل وقته.

أما في عهد غورباتشوف فقد اختلفت الأمور كلياً. كانت الاجتماعات تبدأ عادة على النحو التالي: يجتمع أعضاء المكتب السياسي في إحدى القاعات، وأما الأعضاء المرشحون ـ وهم الفئة الثانية وفق التراتبية ـ وأمناء اللجنة المركزية ـ بوصفهم الفئة الثالثة ـ فيقفون بالصف في القاعة التي ستنعقد فيها الجلسة، وذلك بانتظار ظهور الأمين العام يتبعه أعضاء المكتب السياسي بحسب رتبة كلٍّ منهم. وعادة كان ثاني السائرين وراء غورباتشوف غروميكو يليهما ليغاتشيف وريجكوف، والباقون وفق أبجدية أسماء عائلاتهم. كان مرورهم أمام صفنا أشبه بمرور فريق لاعبي الهوكي، فيصافحنا كل منهم ليتجه إلى اقتعاد كرسيه المخصص له على جانبي الطاولة التي يجلس على رأسها الأمين العام.

ومن الملفت للنظر أننا على هذا الترتيب كنا نتناول الغداء أيضاً. وأتذكر هنا بالمناسبة عندما كنت أحوِّل الغداء في الاستراحة بين جلستي مكتب الإقليم إلى تداول غير رسمي بمختلف المسائل المطروحة وتبادل للآراء.. وكان أمناء المكتب وأعضاؤه (وأحياناً المدعوون من رؤوساء الأقسام) يحلون جملة مسائل خلال الثلاثين أو الأربعين دقيقة التي استغرقها الغداء.

أما هنا، في القمة، أو في ما يمكن تسميته بالأولمب الحزبي، فقد كان يُمارس الطقس بنوع من الدقة المتناهية.

ثم لا يلبث الأمين العام أن يفتح الجلسة بتلاوة جدول الأعمال، الذي لم يكن يسأل ما إذا كانت لدى أحد تعليقات عليه أو إضافات إليه.. ولا يرى مانعاً من البدء بمبادلة المجتمعين ذكريات ما عما كان شاهده في مكان ما أو في موسكو. وأذكر أنه خلال عامي الأول في أمانة منظمة موسكو لم أسمعه يتحدث على هذا النحو، أما في العام الثاني فحدِّث ولا حرج.. بدأت الملاحظات تكثر: ثمة شيء في موسكو ليس على ما يرام و... و... وكأنما كان يريد دَوْزَنَتي عاطفياً ومن الداخل.

وما تلبث أن تبدأ مناقشة الوزراء الذين كان يتباحث غورباتشوف معهم دون مجالستهم. وكان يُستدعى وزير المستقبل إلى الاجتماع، يقف المرشح عادة خلف المنبر فتطرح عليه أسئلة عادة ما تكون ليست بذات أهمية، ولعل الهدف منها سماع صوته واستشفاف شخصيته والوقوف على آرائه في قضايا محدَّدة. كان يستغرق إقرار ترشيح كل مرشح خمس أو سبع دقائق.

وكانت مناقشة أي مسألة تبدأ من تعرُّف مبدئي على مواد جدول

أعمال جلسة المكتب السياسي، التي كانت توزع برأيي قبل وقت قصير، بحيث لم نتمكن من دراستها بصورة كافية، أحياناً كنا نُعطى أسبوعاً، وفي الغالب يوماً أو يومين. كان من الضروري استعراض بعض المسائل مع خبراء يملكون الحلول. . ولكن الوقت قصير، إما لأنه لم يكن متوفراً وإما لأن هذا التصرف كان مقصوداً أو بسبب التنظيم غير الكافي. ولم يكن نادراً أن تبرز مسائل أمانة اللجنة المركزية على عجل فتعالج بانفعال وبلا تأهيل. كان ليغاتشيف خصوصاً يعشق هذه التعرجات عند ترؤسه اجتماعات الأمانة. وهو لم يكن الشخصية الثانية في قيادة الحزب من الناحية القانونية، أما من الناحية العملية فإن من يقود سكريتاريا اللجنة المركزية فلا بد أن يكونها.

كانت تنعقد اجتماعات سكريتاريا اللجنة المركزية كل ثلاثاء. وعملياً يمكن اعتبار فصل الهيئتين القياديتين المذكورتين (المكتب السياسي وأمانة اللجنة المركزية) فصلاً شرطياً. وفي أي حال كانت سكريتاريا اللجنة المركزية تلتزم دراسة المسائل الأقل أهمية، أما المسائل المهمة فكانت تعرض في اجتماع مشترك للهيئتين. ومع ذلك، وبغضّ النظر عن الديموقراطية الظاهرية كانت المناقشات جهازية، إذ كان الجهاز هو الذي يحضّر المشاريع ليصار فيها بعد إلى إقرارها مسلوخة عن واقعها الحياتي ودون دراية بالأوضاع الملموسة. وثمة مسائل كانت تناقش بحضور بعض المدراء وخصوصاً أولئك الذين اشتركوا في إعداد المشاريع التي يقدّمها الجهاز. وهكذا، يتبيّن أن الدائرة مقفلة. وبالطبع كنت أعرف ذلك جيداً كوني عملت نصف سنة رئيساً لقسم في اللجنة المركزية، أي إنني رأيت كيفية سير العمل من الداخل.

كلمة الافتتاح عـادة كان يلقيهـا غورباتشوف مسهبـاً، ومستشهداً أحياناً ببعض الرسائل ليؤكد أفكـاراً محدَّدة. . كـانت الرسـائل طبعـاً تُحضَّر له فيقرأها الواحدة تلو الأخرى. كل هذه البشارف والمقدمـات حدَّدت عادة النهايات التي ستنتهي إليهـا مشاريـع القرارات والـوثائق والبيانات المُـعَدَّة من قبل الجهاز. إذن، ينجم في نهاية الأمر أن الجهاز هـو الجهة الفعليـة التي كانت تـديـر كـل شيء، أمـا أعضـاء المكتب السياسي فقد كان يشاركـون في مناقشـة المسائـل شكلياً. وقـد حاول ريجكوف في الفترة الأخيرة كسر هذه الممارسة وتجاوزها وذلـك بعرضـه المسائل المبحوثة على مجلس الوزراء وعلى الخبراء لمناقشتها بصورة أولية قبل عرضها على المكتب السياسي.

وبعـد انتهاء الأمـين العام من كلمتـه يعرب الأعضـاء عن آرائهم باقتضاب شديد (من دقيقتين إلى خمس دقائق) مبيِّنين جوهرها، وذلك بالدور من الشمال إلى اليمين، وتطن الكلمات: أجل ـ أجل، جيد، سيؤثر، سيرفع المعنويات، سيوسِّع، سيعمِّق، البيريسترويكا، إشـاعة الديموقراطية، التسريع، الغلاسنوست، البديـل، الخيار، . . . بـدأوا يعتادون على الكلمات الجديدة ويردِّدونها بحبور.

في البـدء لم تكن ثرثـرتنا الفـارغـة ملحـوظـة في الجلسـات، ومـع انقضاء الوقت أصبح واضحاً أن نشاطنا لا يتسم بأي فعاليـة أو تأثـير كبير. وازداد خوف غورباتشوف أكثر فأكثر من نفسه ومن مداخـلاته. كان يدور ويدور ـ وهو يحب ذلك ويتقنه ـ وتبين أن السلطة تبتلعه، فأخذ يفقد الإحساس بالواقعية ويعيش فيه الوهم بأن البـيريسترويكـا تتطور وتتَّسع وتتعمَّق فعلياً، وبأنها تتـوغَّل في المنـاطق ولدى الجـماهير بسرعة. ولكن ذلك لم يكن واقع الحياة على الأرض.

ولا أذكـر أن أحداً حـاول ـ ولو مـرة واحدة ـ أن يقـول «لا» بمـا

يكفي من الحدة، ومع ذلك فقد أزعجتُ بعض الخواطر. بدايةً، كنت أصغي أكثر، وفيما بعد أصبحت أدلي برأيي بهدوء، خصوصاً إذا تمكَّنت من دراسة المشاريع المقدمة إلى المكتب السياسي، وفي مرحلة تالية رفعت صوتي أكثر. بعد ذلك بدأت أعترض بإصرار عندما كنت أرى أن مسألة ما تُحلُّ بصورة خاطئة.

كان الجدل أساساً يدور بيني وبين ليغاتشيف وسولومينتسيف، أما غورباتشوف فكان يتخذ موقفاً حيادياً، رغم أن موضوع الجدال قد يكون أحد تلك المواضيع التي نظر فيها هو مبدئياً. وهكذا، فقد فاض كيله وكان متوقعاً أن يسدِّد ضربته الحتمية.

وأود هنا التحدث قليلاً عن زملائي الذين عملت معهم في المكتب السياسي.

ولعله من المفيد أن أبدأ بالكلام على أ. أ. غروميكو، عضو المكتب السياسي، رئيس مجلس السوفيات الأعلى آنذاك. كان يضطلع بدور غريب: فهو كان موجوداً على نحو ما، بل وعمل على ما يبدو، وكان يلتقي بشخصيات ويلقي الكلمات، ولكن في الواقع بدا كما لو أنه لا حاجة إليه. فبوصفه رئيساً لهيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى وطبقاً للبروتوكول فقد كان من المفروض أن يجري الاجتماعات والمحادثات الدولية ويستقبل الضيوف الرسميين، غير أن غورباتشوف هو الذي كان يقوم بكل ذلك، وأحياناً قاما به سوياً، وهكذا بدا وكأنه أتى من الحياة السياسية الفعلية ليتحوَّل بكل بساطة إلى رمز، الأمر الذي لم يعه حتى النهاية. وكأن غروميكو حُمِلَ إلى الحاضر من ماض بعيد، بل بعيد جداً. وفي ظل هذه الظروف، كان من الطبيعي ألّا يفهم جيداً وبقوة ما يجري حوله وعمَّ يدور الحديث. وكان غالباً ما يتحدث في اجتماعات المكتب السياسي، وفي أي

موضوع . . وكـان حديثـه دائماً طـويلاً، خصـوصاً إذ تعلّق المـوضوع بشأن خارجي دولي، حيث كـان يعتبر من الضروري جـداً أن يتذكّـر السنوات الغابرة حين عمل في أميركا، وكيف كانت الأوضـاع، وحين شغـل منصب وزير الخـارجية وكيف التقى ببعضهم ـ وهـو أمر يجب أخذه بعين الاعتبار لأهميته وضرورة الاعتبار منه ـ، فضلاً عن تذكره جلسات الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة. . . إلخ . . كـانت هذه ذكـريات عجـوز غـير مثـيرة للغضب، ولكن غـير مـلائمـة من حيث تـوقيتها وغـير ذات معنى،. تمتد نصف سـاعة، حتى أن غـورباتشـوف نفسه كان يعوزه الصبر للاستماع إليها.

كـانت هذه السنـوات الأخيرة التي يعيشهـا سيـاسي عتيق في عـالم خاص معزول خلقه بنفسه. كانت ملاحظاته المفاجئة التي يدلي بها في اجتماعات المكتب السياسي من نوع: «هل تتصوَّرون أيهـا الرفـاق أنه في المدينة الفلانية لا يوجد لحم؟»، وكانت تحدث إنعـاشاً وحيـوية في الاجتماعات. أما كون اللحم غير موجود فهو واقـع معروف منـذ زمن بعيد، وكان الحاضرون يعرفون ذلك جيداً. كان دوام عمله حـراً إلى أقصى الحدود. يصل إلى مكتبه في التاسعة أو الحادية عشرة ويغادره في السـادسـة، أمـا أيـام السبت فلم يكن يعمـل . . وبـاختصـار لم يكن غروميكو يرهق نفسه، وهـذا ما لم يكن مـطلوباً منـه أن يفعله، فمن الأهمية بمكان أن يضطلع بدوره المرسوم. . كان غير مزعج البتة.

وكان موقفه مني عاديـاً، بل إنـه لم يتوقف عن مصـافحتي ومبادلتي الحديث حتى بعد كلمتي في دورة اجتماعات اللجنة المركزية في تشرين أول (أوكتـوبـر) ١٩٨٧، وكنت مـا زلت بعـد عضـواً في المكتب السياسي.

أمـا رئيس مجلس وزراء الاتحاد السـوفياتي ن. إ. ريجكـوف فكـان

دائماً في الظل بغض النظر عن علو شأن منصبه. وإثر الكوارث المأساوية التي ألمّت بأرمينيا، عندما اضطر في ظروف استثنائية أن يهز بيديه أركان آلية الإغاثة الصدئة والسهر ليالي طوالاً، عرف الشعب ولأول مرة أن ثمة رئيساً للوزراء يعمل من أجله. ومع ذلك فإنني أعتقد أن منصب رئيس مجلس الوزراء كان حملاً ثقيلاً عليه.. وخصوصاً الآن عندما يتوجب إخراج البلاد من الفوضى الاقتصادية المستشرية. ومن الهاوية الساقطة فيها.

وفيما بعد، عندما تولّيت مهام وزير البناء، كان علي حضور جلسات مجلس الوزراء. وقد حضرت مرتين وخرجت باستنتاج أن امرءاً ذا تفكير حكيم وطبيعي لا يمكنه أن يواظب على تحمُّل هذه الفوضى الرهيبة. فذا وزير يشكو من وزير آخر ووزير ثالث من رابع... وهلمجرا، فضلاً عن «تدفيشهم» بعضهم بعضاً أمام الميكرفون الموضوع على المنبر وعدم تحضيرهم كلماتهم العملية، بحيث كان طبيعياً ألاّ يصدر أي قرار مُجْمَع عليه، كون الأمر فائق الصعوبة. آمل أن جلسات مجلس الوزراء الآن تجري في اتجاه مغاير لما عاينته. ومنذ ذلك الوقت قرَّرت ألاَّ أضيِّع الوقت فاستنكفت عن حضور جلسات المجلس. ولا بد أن أشير إلى أن الوزراء، مع ذلك، شكلوا المظهر الجدي لمجلس السوفيات الأعلى، فضلاً عن أن الوضع في البلاد لم يعد يحتمل إهدار الوقت لجعجعة غير مثمرة.

وكان يشغل منصب رئيس لجنة الرقابة الحزبية، عضو المكتب السياسي م.س. سولومينتسيف. في الآونة الأخيرة تصرَّف كما لو أنه فقد الثقة بنفسه أو أن شيئاً توقع حدوثه. ونادراً ما كان يتكلم في الاجتماعات. والحقيقة أنه كان يوافق ليغاتشيف ويدعمه عندما كان يدور الكلام على مسائل معينة كمسألة مكافحة السكر والإدمان على

سبيل المثال. . كأنما وجد أحدهما الآخر. وعندما أُحيل سولومينتسيف على التقاعد شعر ليغاتشيف بالغربة لعدم وجود مؤيد آخر يعتمد عليه في المسألة المذكورة! وقد جمعتنا الأقدار - سولوميتسيف وأنا - عندما كُلِّف برئاسة لجنة للتحقيق في أقوال صدرت عني ونشرتها الصحافة الغربية. ومن المفهوم أن الحوار سار في وجهة لم يكن سولومينتسيف يريدها. ولم أعترف أو أعلن الندم، لأنني اعتبرت نفسي محقاً على وجه الإطلاق، كما أن أياً من آرائي أو أقوالي المتعلقة بانتقاد أعضاء المكتب السياسي أو تكتيك البيريسترويكا لم يتعارض لا مع الدستور ولا مع النظام الداخلي للحزب الشيوعي السوفياتي. كان سولومينتسيف أثناء الجلسة متوتراً وغير واثق من نفسه، ويبدو أنه عانى في أوقات معينة من الشعور بالأسف والندم لأنه كلف بمهمة لم يستطع القيام بإنجازها. إنها لصورة محزنة فعلاً.

ونصل إلى تشيبريكوف. في البداية لم يتكلَّم رئيس الـ «كي. جي. بي» إلا فيما ندر، . كأن ينطق مثلاً حين تناقش مسألة عدد المواطنين الذين يجب السماح لهم بالسفر إلى خارج البلاد. ولم يمضِ وقت قصير حتى عين سكرتيراً للجنة المركزية فخرج من رئاسة أمن الدولة. كانت هذه الحركة الشطرنجية ملائمة لغورباتشوف حيث وُلِّي كريوتشكوف المخلص والمطيع. وواقع الأمر أن الهيئات الأمنية وأمن الدولة ظلت كما في السابق تحت يدي رئيس الـ «كي. جي. بي» الأسبق الذي ما فتىء يحتفظ بنفسية رجل الأمن، فيرى في كل مكان مؤامرات الغرب وفي كل شخص مشبوهاً بالتجسس. . إلخ. فبالنسبة إليه كانت الغلاسنوست مثل سكين طعنت القلب أو كضربة وُجِّهت إلى جهاز أدَّى وظيفته بامتياز فترة طويلة.

ولسوء حظ ب. إ. دولغيخ أن غريشين ضمَّنه لائحته من المقربين والمؤيدين وأزمع ضمه إلى المكتب السياسي الذي كان ينوي تأليفه مقترحاً تعيينه رئيساً لمجلس الوزراء. وبالطبع فإن كل من وقع ضمن فريق غريشين بات مجرداً من الثقة، وبالفعل طلب كثير منهم إعفاءهم من كراسيهم، ولكن دولغيخ استمر في عمله. . وأقول الحق إنه كان من أكفأ أمناء اللجنة المركزية من حيث المهنيَّة، وقد كان شاباً نسبياً، إذ لم يكن قد بلغ بعد الخمسين من عمره حينما أصبح سكرتيراً بعدما نُقل من مدينة كراسنويارسك. وقد اتسم بفكر منظم واتزان ـ إذ لم يصدر عنه أي قرار متعجل وغير مدروس ـ واستقلالية في حدود المعقول.

وعندما بُحث في المكتب السياسي أمر ترشيحي لمنصب سكرتير اللجنة المركزية عمِد الجميع إلى التأييد (وقد جرى البحث في غيابي)، مدركين أنني مرشح غورباتشوف. وحده دولغيخ عبَّر عن وجهة نظره بالقول إن يلتسين انفعالي كثيراً في بعض الأحيان. وتم انتخابي سكرتيراً. فيما بعد، أُعلمت طبعاً بكلمات دولغيخ، فاقتربت منه محاولاً بالطبع لا توضيح العلاقة، بل سماع رأيه مباشرة دون نقل عن آخرين، وكان من مقاصدي أيضاً التعرُّف على أخطائي، فأنا على أي حال بدأت عملي كسكرتير للتو. وبهدوء كرَّر أمامي ما صدر عنه في المكتب السياسي وقال إن قرار تعييني سكرتيراً قرار صحيح تماماً، ولكن علي كبح جماح عواطفي والإمساك بزمام طبعي الانفعالي. وليس غريباً أن هذا المشهد غير المعتاد لم يبعدنا عن بعضنا، لا بل على العكس قرَّب بيننا، فظهر اتصال إنساني خاص وثقة متبادلة: وهما شيئان نادرا الوجود داخل مبنى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي.

وفي جلسات المكتب السياسي كنـا نجلس جنباً إلى جنب ونتنـاقش بصراحة في مشكلات البلاد الناشئة وكيف يجري حلها بقرارات قافزة متسرِّعـة. ولم يكن يحب أن يوجـه انتقادات في مـداخلاتـه، بل كـان يطرح اقتراحـات شخصية، دقيقـة، واضحة، معمَّقـة. وبرأيي كـان وجوده في المكتب السياسي مفيداً، ولكن سرعان مـا «أخرجـوه» محالاً على التقاعد.

وأما أ. إ. لوكيانوف فقد ظل فترة طويلة الشخصية الأقل بروزاً في هذه الهيئة العليـا للسلطة الحزبيـة. كان يشغـل منصب النائب الأول لـرئيس مجلس السوڤيـات الأعلى في الاتحـاد السوڤيـاتي. وبعـد نشـوء أوضـاع جديـدة ناجمـة عن انتخابـات مؤتمر منـدوبي الشعب ودورات اجتـماعات مجلس السـوڤيات الأعـلى، تعاظم دوره فتكشَّف عن جملة مـزايا بـيروقراطيـة ـ حزبيـة لرجـل الجهاز الأعـلى، منها الـلامرونـة وانعـدام كلا الحـرية الـداخلية وسعـة الفكر. فهـو عـاجـز عن إدارة الأوضـاع غير القيـاسية أو غـير الموصَّفـة التي غالبـاً ما تنشـأ في سياق نشاط مجلس السوڤيـات الأعلى، إذ يصـاب بالـرعب ويبدأ بـالغضب حتى حـدود الصراخ والضرب على الـطاولة بقبضـة يده. والآن فهـذا المنصب يلائمه تماماً لأنه يوافق التركيبة القـائمة، أمـا في وضع نـاجم عن انتخابات حرة طبيعية (والتي أؤمن رغم كل شيء بحدوثهـا) فلن يكون بوسعه الصمود في منصب كهذا مطلقاً.

ولنتحدث عن د. ت يازوف. إنه مقاتل حقيقي ومندفع ومخلص. من الممكن ائتمانه على قيادة موقع جبهوي أو هيئة أركان ولكنه لم يكن مهيّـأً لمنصب وزير الدفاع. فهو محدود لا يتحمل انتقاداً ولولا ضغوط غورباتشوف الفائقـة على منـدوبي الشعب لم يتم التصديق عـلى تعيينه وزيراً. كيف يمكن أن نتوقَّع من نتاج الآلة العسكرية القديمة الخالص

مطلق تغييرات في الجيش أو مقاربة جديدة لحل مشكلات قدرة البلاد الدفاعية. . هذا ما لم يكن واضحاً بالنسبة إلي. جنـرال، إنه جنـرالنا مواطننا الرَّاني إلى سكان البلاد المدنيـين وفي أعماق روحـه يراوده حلم بجلب كل القادرين على حمل السـلاح لتطويعهم عسكـرياً إلى الأبـد. إنني أبالغ بالطبـع، ولكني أكن إعجابـاً شخصياً للتقليـد الأميركي في تعيين وزير الدفاع. . فهو لا يكون إلا مدنياً. وهذا صحيح بالمطلق. فـالعسكري المحـترف يتصف عادة بـدماغ تسيِّره موجـة عسكـريـة، بحيث يجعله التهديد بالخطر غريب الأطوار فيعـتريه بـاستمرار نـزوع للقتال. . ولو قليلاً.

وإليكم شـيربيتسكي السكـرتـير الأول للجنـة المـركـزيـة للحـزب الشيوعي في أوكرايينا. فواقع استمرار وجود هذا الشخص في تـركيبة المكتب السياسي يعكس ـ وبأجلى صورة ـ اللاحزم وأنصاف الحلول التي ميَّزت ممارسات غورباتشوف. وأنـا واثق مائـة بالمـائة أنـه عندمـا سيتسنى للقـارىء مطالعـة هذا الكتـاب، سينـزعـون شربيتسكي من مكانه(*). ولكنه الآن، في آب (أغسطس) ١٩٨٩، مـا يزال مقتعـداً كـرسيه. فغـورباتشـوف يخشى إزاحته تمـاماً كـما خشي سابقـاً من حل المشكلة العالقة مع علييف، في وقت أصبح فيـه واضحاً لـدى الجميع إن إبقـاء هذا الإنسـان الملوث السمعة واليـدين من جـراء مصـالحـه الخاصة، الكبـيرة والصغيرة، عضـواً في المكتب السياسي لم يعـد ممكناً البتة. وذهبت إلى لقاء غـورباتشـوف خصيصاً للتـداول في هذا الأمـر مصطحباً معي ملفاً يضم وثائق دامغـة، استمر اللقـاء ساعـة حاولت

(*) هذا ما حدث فعلاً، فعندما حُضِّرت المخطوطة لطباعتها، كان ينعقد اجتماع اللجنة المركـزية (أيلول ـ سبتمـبر) الذي أحـال شربيتسكي على التقـاعد ـ (المؤلف).

فيه إقناعه: «ميخائيل سيرغييفيتش، إنه لمن المخجل الجلوس معه، لا يجوز أن نعرِّض بالمكتب السياسي على هذا النحو». ولكنه لم يصغ إلي آنذاك. صحيح أن علييف أحيل في نهاية المطاف على تقاعد شخصي مشرِّف، ولكن لماذا كان يجب تأجيل البت في هذه المشكلة الصارخة الحاملة حلها أصلاً منذ فترة طويلة؟!

أ. ن. ياكوفليف، سكرتير اللجنة المركزية، عضو المكتب السياسي. السياسي الأعمق رؤية والأذكى والأحكم. كنت دائماً أشعر بالرضا لدى سماعه يعبر عن ملاحظات وصياغات دقيقة متعلقة بالمسائل المطروحة في المكتب السياسي. كان بالطبع حذراً، إذ طالما حاول ألّا يدوس طرفاً من أطراف ليغاتشيف كما فعلت أنا. . ودون أي ريب كان الاثنان قطبين متناقضين تماماً. فنموذج الاشتراكية بالنسبة إلى ياكوفليف يختلف جذرياً عن نموذج ليغاتشيف الثكني - الكولخوزي. كانا مجبرين على التعايش وعلى التأكيد على وحدة المكتب السياسي إثر كل كلام يدلي به غورباتشوف.

ف. أ. ميدفيديف، سكرتير اللجنة المركزية، عضو المكتب السياسي. إثر المناقلات التي قام بها غورباتشوف وأسفرت عن تغيير موقعي الإيديولوجيّين الرئيسيين ياكوفليف وليغاتشيف - الأول عُين مسؤولاً عن الشؤون الدولية والثاني عن الشؤون الزراعية - أصبح ميدفيديف إيديولوجي البلاد الرئيسي، وبصعوبة كبيرة تمكّن من القيام بموجبات منصبه الجديد، والأصح القول إنه لم يتمكّن من القيام بها بالمرة. ولعل الفضائل الرئيسية التي دفعت بغورباتشوف ليوليه هذا المنصب تكمن في اثنتين: الطاعة وغياب الأفكار الجديدة. وما أثبتته الأيام أنه بصفات كهذه لا يمكن القيام بالواجب والمرحلة عاصفة محمومة. فلأجل الدفاع عن الجهاز البيروقراطي الحزبي

والإداري ـ الأوامري في عصر الپيريسترويكا والغلاسنوست لا بد من شخصية أخرى أكثر مرونة وذكاء وقّاداً. أذكر عندما عملت سكرتيراً أول في سڤيردلوڤسك، التقى ميدڤيديڤ بسكان المدينة فغادر المنبر بعد حوالى ثلاثين دقيقة قبل إنهائه كلمته يجرُّ أذيال الخيبة. فقد كان من غير المحتمل ولا الممكن، حتى في تلك الآونة، الاستماع إليه وهو يطلق عباراته المنمطة الجاهزة والبدائية. فمن المفهوم الآن أنه يقود العمل الايديولوجي بجهوده ومقدراته المتواضعة، وليس عجيباً أن صحيفة «الپراڤدا» جريدة الحزب الرئيسية في البلاد وملاذ القوى المحافظة تخسر مشتركيها باطّراد. ومع ذلك، فما زال ميدڤيديڤ جالساً في مكانه وسيظل كذلك إلى أن يقضي على الايديولوجيا قضاءً مبرماً.

لقد أعدت قراءة هذه الصفحات عن زملائي السابقين في المكتب السياسي فأحسست بالألم. . فهو غرفة عمليات الپيريسترويكا الرئيسية، ودفاع الحزب وقدرات البلاد الألمع.

وبالمناسبة، إلام أهدف؟ وماذا أريد؟ وهل كنت أتوقع غير هذا من أولئك الذين في المكتب السياسي؟ فهم إما أشخاص وصلوا إلى مناصبهم بتسلّق سُلَّم اللجنة المركزية التراتبي درجة درجة (كلوكيانوف وميدڤيديڤ ورازوموڤسكي)، أو هم أشخاص «كانوا أمناء لمنظمات إقليمية أو مناطقية (مثل غورباتشوڤ وليغاتشيڤ). ولن أنسى هنا الإشارة إلى يلتسين أيضاً الذي حقّق مستقبله المهني الحزبي في عصر الركود البريجنيفي.

كنت أفهم تماماً لماذا كان كثير من الناس الشرفاء ينظرون إلى بعين الشك، حتى عندما وقعت ضحية النقمة. . فمن يكون يلتسين سوى موظف جهازي حزبي وسكرتير أول سابق لمنظمة إقليمية. فلا يجوز الوصول إلى هذا المركز الرفيع، ومن ثم الانتقال إلى صفوف اللجنة

المركزية، مع بقاء المرء شريفاً وشجاعاً وحر التفكير. فلكي يحقق المرء هذه الإنجازات ـ وهـذا رأي شعبي واسع ـ يجب أن يكـون خبيثاً، منكيِّفاً، دوغمائياً، يقول شيئاً ويفعل شيئاً آخر، ولا مجال هنا للتبرير، فإذا كان الـوضع عـلى هذا النحـو ينبغي أن يُقَوِّم المـرء بحسب عمله وموقعه الذي به يحوز ثقة الناس.

وأطـرح أحيانـاً على نفسي سؤالاً: كيف حـدث فـأصبحت بينهم؟ لماذا توقف فجأة نظام انتقاء الأشخاص المحـدَّدين الطيِّعـين الخاصِّـين من أبنائه ليكونوا قادته، وهو الذي صمد سنوات كثيرة وقام بـوظيفته الدقيقة على أكمل وجه؟ هاأنذا لم أطق الوضع وشذذت عن القاعدة، وهذا لم يحدث أبـداً على مـدى عقود من السنـين. يبدو أن آليـة ما لم تدر عجلتها، أو كان ثمة صدأ تربَّص في مكان ما منها. . .

فالعادة أن يجري بحث دقيق ودراسة مستفيضة لكل مرشح مقترح ليصبح عضواً في أمانة اللجنة المركزية أو في المكتب السياسي. فلا بد أن يكون كل شيء عنه معروفاً: كيف يفكر، مـاذا يريـد، وأن يكون خلواً من الألغاز من أي نوع. كانت سماتي الشخصيـة ومميزات طبعي واستقلالية أحكامي وآرائي معروفة من قبل غورباتشوف. ولربمـا كان يعتـبر أنه من الضروري وجـود شخص في المكتب السيـاسي يتصرف باستقلالية ويشاغب، وذلك في سياق تصـوُّره لقضايـا البيريسـترويكا المستقبلية وتخطيطها. إلا أنه من المحتمل أن يكون غيَّر رأيه بالتـدريج حيـال هذه القضـايـا جـراء انـزلاقـه أكـثر فـأكـثر إلى عمليـة السلطة والعطش إلى الحكم، إذ كان يـريد أن يحس هـذه السلطة دائماً، بـل وفي كل دقيقة. أصبح يريد أن تنفذ توجيهاته وحده لاعتقـاده أن رأيه فقط هو الرأي الصحيح. وسرعان ما تعوَّد على ذلك، بحيث لم يعـد بحاجة إلى شخص قادر على خوض أي نقاش معه.

وأخـذت نمط النَّعَمِ الموافقـة تُبـذل لغـورباتشـوف من قمـة هـرم السلطة الحزبية حتى قاعدته. وبشكل عام، يعتبر عمل جهاز اللجنـة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ظاهرة فريـدة. فنحن عادة ننحي باللائمـة على الـوزارات كونها لا تنتـج شيئاً وتـرزح مثل أثقـال على كاهل المؤسسات التابعة لها. ولكن يمكن رغم ذلـك تقويم نشـاطاتـها ولـو بشكـل غـير مبـاشر عـبر تقويم النجـاحـات المحقَّقـة في مختلف القطاعات. ولكن هاكم اللجنة المركزيـة!... إنها لا تنتج شيئاً على وجـه الإطـلاق.. لا شيء البتـة غـير الأوراق. فنجـاح هـذه الهيئـة الحزبية الـرفيعة يتحـدَّد بهذه التـلال من الأذونات والتقـارير والـردود والخطابات والتحاليل ومشاريع الوثائق... التي لا يحتاج إليها أحـد. فـالجهاز في الـوقت الراهن عـلى مثال وصـورة المكتب السياسي، فيـما وضع اللجنة المركزية نفسها ليس أفضل ولا أسوأ منهـما. فهي ليست مـوجودة كي تنكب عـلى تحليل الأوضـاع وصوغ اسـتراتيجية الحـزب وتكتيكه، بل إن دورهما يتجسَّد في دور الخـادم الإيديـولوجي للهيئـة الحزبية الأعلى رتبة.

منذ عهد غير بعيد تكلم بريجنيف على الاشتراكية المتطورة، فبدأت تلك الآلـة الضخمة تنتـج «جبالاً» من الخـرافات والأسـاطـير عنهـا: انـظروا كيف أصبحت الحيـاة جيـدة في ظلهـا، وانـظروا كيف تتـطوَّر وكيف ستتـطوَّر، وهـاك نـظريـات عن مـراحلهـا والـطرق التي ستسلكها...

وكان لدى غورباتشوف تصوُّرٌ خاص به للبيريسترويكا، تصوُّرٌ أكثر حذراً مما عليه الآن، وما لبثت الآلة نفسها أن بـدأت تُنشيء تفسيرات لمفهـوم تـطورنـا المُـحْتَبِس.. المتحفِّظ. ومـع مـرور الـوقت اضـطر غورباتشوف إلى «الميل يساراً» حيث أكرهته الظروف والأوضاع، فراح

جهاز اللجنة المركزية الطائع يُنشيء تفسيرات أخرى لطريق التطور - مرة أخرى - الصحيح الوحيد، الذي صمَّم مفاصله الأمين العام.

كل شيء يوافق مبدأ: «تجدون عندنا ما تريدون».

ولعل الجميع يذكر تلك الحادثة المأساوية التي وقعت إثر وصول غورباتشوف لزيارة مصنع «ڤاز» للسيارات في تولياتي، عندما أعلن أنه ينبغي علينا أن نصبح «واضعي قوانين الموضة» في صناعة السيارات. فما كان من الصحافة والتلفزة - كعادتها دائماً - إلا أن روَّجت لهذا الشعار الذي سيحقق إنجازات وانتصارات وآفاقاً جديدة. أما الخبراء فلم يعرفوا شيئاً وباتوا يدارون أعينهم من الخجل والامتعاض. إن إعلاناً كهذا يعني عدم إدراكٍ كلي في أي بلد نحن نعيش وفي أي وضع يجد نفسه. فالسيارة ليست مجرد حديد ومحرك، إنها سلسلة معقدة من حلقات متماسكة كالتصميم والهندسة والثقافة المنتجة، إنها طرق وخدمات... إلخ. وتكفي إزالة حلقة واحدة حتى ينفرط عقدها وينهار كل شيء.. ولن تحصل لا على سيارة جيدة ولا على سيارة متوسطة الجودة.. لا، سنصبح واضعي قوانين الموضة!. والواقع أن غورباتشوف نفسه لم يفكر في هذا الموضوع.. بل ثمة من همس في أذنه. وإذا كان صاحب الفكرة فبإمكانه أن يفسر أو يصحح حتى لا يصاب بالخيبة. ولكن لا، فالمتّبع عندنا هو العكس، ذلك أن أي تخرُّص سخيف يتحول بفضل الجهاز الإعلامي النشط إلى ذروة في الفكر الإنساني والألمعية والحكمة.

إن الجهاز ضروري بالطبع، على ألا يكون متضخّماً. يجب أن يكون مُقلَّصاً إلى أدنى حد، تعمل فيه أفضل أدمغة الحزب القادرة على تحليل الأوضاع وتوقُّع منعطفات الأحداث الممكنة ورؤية طرق التطور اللاحق ومسالكه. وهذا بالتحديد أمر بالغ الأهمية نظراً

للدور الذي يضطلع به الحزب راهناً في حياة المجتمع.

ولكن، هاتوا وضعاً نزاعياً واحداً جرى التنبؤ به والاحتياط منه، هاتوا حدثاً متأزماً واحداً حُلَّ بشكل صحيح؟ ها هي ذي قوانين المؤسسات الحكومية والتعاونية، ووناغورني كراباخ والبلطيق... إلخ.. فكل وضع محتدم بلغ نقطة التأزم الحرجة، لم توضع له سوى حلول غير صحيحة - وكأن ذلك مقصود - مما جعل من تسويته بعد بضعة أشهر مسألة بالغة الصعوبة.

كم من الكلام سُفح عن كذب الدعاية البرجوازية في ما يتعلق ببروتوكولات اتفاق مولوتوف - ريبنتروب السرية؟! كم من المرات قال فيها الجهاز الدعائي إن كل ذلك ليس سوى تلفيق وتزوير؟!، علماً أن أي إنسان ذا عقل يعرف منذ زمن بعيد أن البروتوكولات المذكورة موجودة فعلاً ولا يجوز إنكار وجودها. ومر الزمن وكشف عن وجودها، فكم من الاحترام والسمعة خسرنا جراء كذبنا وإنكارنا.

هكذا يمارس جهاز اللجنة المركزية وظيفته ناشراً التوجيهات وموزعاً الأوامر على البلاد أجمع. بيد أنني أكرر القول إنه لا علاقة للجهاز بكل ذلك، لأن قيادة الحزب العليا هي التي تريده على هذا النحو: جهازاً طيعاً طائعاً ملبياً. إن اللسان يعجز عن نطق هذه التركيبة من المفردات: لجنة مركزية للحزب الشيوعي السوڤياتي بذاتها مستقلة وموجهة.

والطاعة والانصياع يكافآن بتسهيلات وامتيازات: مستشفيات خاصة، منتجعات خاصة، مطاعم مميزة رائعة خاصة، ومكتب توصية على المأكولات والمواد الغذائية، نقل ومواصلات ممتازة خاصة. وكلما ارتقيت في سلم الخدمة كلما أمطرت عليك الخيرات والنعم، وبالطبع

يصبح الاستغناء عنها مؤلماً ومُغْضِباً. . كلما علوت كلما أُطِعْتَ ونُفِّذَتْ رغباتك. كل شيء مدروس بعمق. فرئيس القطاع مثلاً لا يحق له بسيارة ولكن له الحق في أن يحجزها لنفسه ولمساعديه. أما نائب رئيس القسم فقد منح سيارة «ڤولغا» خاصة به، ولرئيسه ڤولغا أخرى. وهكذا يصبح وضع الاتصالات والمواصلات الخاصة أفضل!

أما إذا تمكّنت من القفز جيداً ووصلت إلى قمة هرم النومنكلاتورا الحزبية فسترى هناك، فوق، أن الشيوعية قد تحقّقت! وأن لا ضرورة للثورة العالمية ولإنتاجية العمل المرتفعة وللتناغم الكلّي، إذ يمكن بناؤها في بلد على حدة من أجل أناس، أيضاً، مأخوذين على حدة!

وكلامي هذا على الشيوعية ليس فيه مبالغة. . ولنتذكر المبدأ الأساسي للمستقبل الشيوعي المشرق: «من كل بحسب قدرته، ولكل بحسب حاجاته». وفوق. . الوضع هكذا تماماً. أما القدرات فيا للأسف ـ وكما أسلفت ـ ليست كثيرة، وأما الحاجات فحدِّث ولا حرج! . . . إنها عظيمة الحجم لدرجة أنه أمكن بناء الشيوعية لعشرين شخصاً فحسب.

والشيوعية تخلقها الإدارة التاسعة في الـ «كي. جي. بي».

إنها الإدارة الجبارة التي تستطيع أن تأتي بكل شيء. فحياة القائد الحزبي أمانة تسهر عليها عينٌ لا تغفو ولا تطرف، رؤوم، حنون، تلبي كل الرغبات. بيت يحيط به سياج أخضر على ضفاف نهر موسكو، وسط مساحة شاسعة عبارة عن حديقة وملاعب رياضية، مع حراسة تغطي كل نافذة بجهاز إنذار. وأنا المرشح لعضوية المكتب السياسي كان عندي ثلاثة طباخين وثلاث خادمات ومدبرة منزل وبستاني. وقد اعتدنا أنا وزوجتي وباقي أفراد العائلة أن نقوم بخدمة

أنفسنا بأنفسنا، أما هنا فالاستقلالية بكل بساطة ممنوعة. . أمر عجيب، ولكن هذا الترف لم يخلق لنا جواً من الارتياح والحرية. فأي مرمر هذا الذي في بيت سكني يمكن أن يشع دفئاً؟

أما أن تلتقي أحدا أو تنشيء علاقة ما معه، فهو أمر مستحيلٌ. وإذا شئت ارتياد السينما أو المسرح أو المتحف أو أي مكان اجتماعي، فلا بد، أولاً، أن تتوجه فرقة كاملة من الكشافين الأمنيين للتنقيب والتفتيش. ثم بعدئذٍ يمكنك الظهور فيه. وفي هذا البيت المنعزل توجد صالة عرض سينمائية حيث يأتي الميكانيكي كل جمعة وسبت وأحد مصطحباً مجموعة أشرطة.

أما الطب فالأحدث بكل جوانبه. أجهزة كلها مستورد، عبارة عن آخر ما أنجزه العلم والتكنولوجيا. الغرف شقق كاملة واسعة حيث الرفاه والبذخ من كريستال إلى سجاد إلى ثريات. . . أما الأطباء فلا يتفرَّدون مطلقاً في اتخاذ القرار، بل يعملون جماعاتٍ جماعاتٍ خوفاً من المسؤولية. قد يصل عدد الأطباء في المجموعة إلى عشرة من الاخصائيين رفيعي المستوى. أما في سڤيردلوڤسك فكانت تشرف علي طبيبة صحة عامة واحدة هي تامارا باڤلوڤنا كروشينا. كانت تحفظني بامتياز، ولم تخطىء مرة في تشخيص أي حالة، كانت تتخذ وحدها دائماً قرار العلاج. . .

لطالما نظرت إلى هذه المجالس الاستشارية الطبية غير المسؤولة، التي كانت تعقد في الإدارة الرابعة، بمنتهى الحذر والريبة. ذلك أنني عندما صرت أتوجَّه إلى مركز طبي عادي تابع لإحدى المناطق في موسكو، لم أعد أشعر ـ بوجه عام ـ بالصداع وتحسَّنت صحتي. . حتى أنني لم أعد بحاجة للذهاب إلى الطبيب منذ أشهر. كان ذلك مجرد صدفة ولكنها تحمل دلالة ما. أما إذا كنت عضواً كاملاً في

المكتب السياسي فثمة طبيب خاص مفصول لخدمتك، يعاينك يومياً، ولكن انعدام الحرية المهنية الإنسانية يبدو كسيف ديموقليس مسلط فوق رأسه.

أما «حصَّة الكرملين» الغذائية فتُقَدَّم بنصف ثمنها وتشتمل على أجود المنتجات المنتخبة. وأما عدد المستفيدين من هذه الحصة - وهي متعددة الأنخاب والفئات - فيبلغ أربعين ألف شخص في موسكو. وثمة أقسام خاصة أو فروع «للغوم» (مخزن كبير، أو سوبر ماركت تملكه الدولة) مخصصة للنخبة الرفيعة. أما النخبة الأرفع فلها مخازنها الخاصة بحسب الرتبة. كل شيء خاص **(special)**. خدمات خاصة، عيادات خاصة، مستشفيات خاصة، منازل خاصة، مجمعات سكنية خاصة، رعاية خاصة... أي كلمة هذه الـ «خاص»! أتذكرون مفهومي «التخصص» و«الأخصائي» ماذا يعنيان؟ والآن...؟ لـ «الخاص» الآن معنى خاص نفهمه جميعاً! إنه يعني منتجات ممتازة النوعية تصنع في أقسام خاصة من المعامل وتخضع لفحص طبي دقيق؛ والدواء مثال جيد.. يوضب أكثر من مرة ويراقب من أطباء يوقعون على أذونات إطلاقه.. مثل هذا الدواء فقط يمكنك استعماله.. وكم من «خاص» ينتج بكميات ضئيلة جداً و«خصيصاً» للذين فوق.. في النظام!

وإليكم العطل. اختر أين تريد أن تنتجع، في أي مكان من جنوب البلاد، وستحصل على منزل ريفي خاص.. أما في الأوقات الأخرى فالمنازل هذه كانت تبقى فارغة من الساكنين.. وثمة إمكانات أخرى للانتجاع، فعدا العطلة الصيفية هناك العطلة الشتوية ولهذه أمكنتها أيضاً.. أسبوعان تقضيهما في منشآت رياضية رائعة أيضاً للاستعمال الخاص.. وهناك المسابح والسُّونا...

أما الطيران فيخصص له طائرات خاصة. تقلع طائرة «إيل ـ ٦٢» أو «تو ـ ١٣٤» وعلى متنها سكرتير اللجنة المركزية، أو عضو مرشح للمكتب السياسي أو عضو في المكتب السياسي. شخص واحد يصحبه فريق الأمن والخدم!

والطريف في الأمر أن المرء هنا لا يملك شيئاً.. فكل شيء جميل.. كل شيء أفضل، ملك للنظام.. الذي هو يعطي، وهو الذي يأخذ. والفكرة من حيث الجوهر عبقرية.. يوجد شخص ما لا فرق إن كان فلاناً أو علاناً، لا يهم، المهم أنه شخص يرتقي سلم الخدمة ويتعاظم كل ما ارتقى. والنظام يؤمن له الامتيازات الخاصة.. خاصة بكل درجة، وكل درجة أعلى لها امتيازاتها الخاصة فيشعر بسعادات الحياة الخاصة ومتعها تنهمر عليه. وهكذا، يدخل في روع فلان أنه شخصية عظيمة. فقد نال ما يحلم الآخرون بنيله... بيد أن فلاناً الغبي لا يفهم أنه ليس هو العظيم، بل المكان الذي يشغله. وإذا ما قصَّر فلان عن خدمة النظام، إله النِّعَم، فثمة علّان سيظهر ليحل محله. لا شيء ملكك، بل هو النظام الذي يملك. فقد تفتق ذهن ستالين عن إبداع هذه الآلة التي اقتربت من حدود الكمال، حتى أن زوجات أقرب مقربيه وزملائه في السلطة لم يكنَّ ينتمين إلى أزواجهم.. ذلك أنهن انتمين إلى النظام. والنظام يستطيع تفريق الزوج عن زوجته ـ كما حدث مع زوجتي كالينين ومولوتوف، اللذين لم يجروءا أن ينبسا ببنت شفه ـ.

وقد تغيرت الأحوال بالطبع الآن، ولكن الجوهر لم يتغير فبقي كما كان عليه سابقاً. وعلى سبيل المثال يؤثث المكان الذي يشغله الشخص المهم بكل ما هو مطلوب، لكن كل شيء مختوم بطابع الإدارة الرابعة، بدءاً بالكرسي وانتهاء بالدواء، وهو ختم النظام،

كي لا ينسى المرء المالك الحقيقي لهذه الخيرات.

سأتابع حديثي عن التسهيلات. تخصص لكل سكرتير في اللجنة المركزية ولكل عضو مرشح أو عضو في المكتب السياسي فرقة حراسة على رأسها رجل أمن ينظمها ويديرها. وكان ناظري الأمني شخصاً اسمه يوري فيدروفيتش، الذي تتلخّص مهمته الرئيسية في تنظيم أي طلبات تصدر عن. . سيّده، إذا جاز التعبير، أو وصيه.

فقد تحتاج إلى بذلة جديدة: وفي الوقت المحدَّد تماماً يدخل الخياط ويفرش بضاعته ويقيس، وفي اليوم التالي يجري قياساً ثانياً، وهاك البذلة جاهزة بين يديك.

ولا بد من هدية تقدم إلى الزوجة في عيد ٨ آذار (يوم المرأة العالمي)، وهنا أيضاً لا مشكلة: يحضرون لك كاتالوغاً فيه الكثير الكثير من صور الهدايا التي ترضي كل الأذواق، حتى الذوق النسائي الصعب. . اختر! وبشكل عام، هناك نظرة احترام عميق حيال العائلات. أوصلوا زوجتي إلى العمل، ومنه، والأولاد إلى البيت الريفي ومنه، أليس لهذا الهدف خُصِّصت سيارة «ڤولغا» مع السائق. أما سيارة «الزيل» فقد خُصِّصت لرب العائلة.

والطريف في الأمر أن هذا النظام الوقح في جوهره يصبح وقحاً ومستهتراً فجأة بحق أهل بيت المسؤول. فعندما كان الحراس ينفذون مهمات تتعلق بالزوجة والأبناء، كان يطلب إليهم عدم تزويدي بالخضار والفواكه المجلوبة من السوق، إذ قد تكون هذه المنتجات مسمومة. وعندما سألت ابنتي مرة بخفر هل بإمكاننا أن نأكلها جاءها الجواب: أنتم تستطيعون، أما هو فلا. . أي يمكنكم أن تتسمّموا أما هو فقدسي. . .

والموسكوڤيون، عادة، يتوقفون عندما تنهب سيارات «الزيل» الحكومية الطرقات بسرعتها الرهيبة. إلا أنهم لا يتوقفون بسبب احترام كبير يكنُّونه للجالسين في هذه السيارات، ولكن يحدوهم فضول المشاهدة التي تثير لديهم انطباعات معينة. إذ لا تكاد «الزيل» تخرج من أبواب المبنى حتى تكون نقاط شرطة السير قد جمّدت الحركة على الشارع الذي ستسلكه، ويضاء النور الأخضر عند كل التقاطعات فتسير دون توقُّف.. شيء لطيف فعلاً. ويبدو أن القادة الحزبيين الرفيعين نسوا مفاهيمَ كالضوء الأحمر وشارات السير وغيرها...

وأعضاء المكتب السياسي تواكب سياراتهم سيارات «الڤولغا» الكشّافة. فعندما تلقيت بعض التحذيرات والتهديدات خصصت لي أيضاً «ڤولغا» كشّافة، فطالبت بردِّها فكان الجواب إن كل ما يتعلق بالإجراءات الأمنية ليس من شأني. وهكذا، فقد مرت فترة كان من المستحيل أن أُغتال خلالها، إذ كانت الحراسة مشدَّدة للغاية. ولحسن حظي أنهم رفعوا عني الحماية بعد وقت قصير.

كانت «الزيل» تحت تصرُّفي ليل نهار، فأينما كنت، لا بد أن توجد بالقرب مجهزة بكل وسائل الاتصال. فإذا أردت مثلاً تمضية الليل في البيت الريفي كان يقيم السائق في بيت خاص يمكنه تركه في أي لحظة فيكون تحت تصرفي.

أما عن البيت الريفي فإليكم هذه الحكاية. قبل استخدامي إياه كان غورباتشوف يستخدمه، فتركه لينتقل إلى بيت آخر بني خصيصاً له.

في المرة الأولى، وعندما اقتربت من البيت، استقبلني رئيس

الحرس وأخذ يعرفني على الطباخين والخدم والحرس والبُستاني. ثم بدأنا جولة في البيت والأنحاء الملحقة به. داخله لا يوصف.. في الصالون الواسع (مساحته خمسون متراً مربعاً) تتصدره مدفأة حجرية ويُغطي أرضه المرمر والسجاجيد، وتتدلى من سقفه الثريات الفاخرة، وتنتشر في أرجائه قطع الأثاث الرائعة.. ودخلنا غرفة تلتها أخرى.. أربع غرف في كل منها تلفزيون ملوَّن وأثاثها الملائم.. وهنا، في الطبقة الأولى شرفة واسعة وصالة عرض سينمائي وطاولة بليارد.. أما عدد الحمامات والمراحيض فقد اختلط علي، حتى أني لا أذكره..

وعندما انتهت الجولة سألني كبير الحرس بسعادة: «ما رأيكم؟»، صمتُّ ولم أجب بشيء، أما عائلتي فقد أصيبت بالوجوم والذهول.

هذا اللامعنى، الذي هيمن على كل شيء، كان قاتلاً. وإنني هنا لا أقصد العدالة الاجتماعية ولا انقسام المجتمع إلى طبقات ولا الاختلاف الكبير بين مستويات العيش، فكل ذلك مفهوم. ولكن لماذا الأمر على هذا النحو؟ لماذا يتمّ تحقيق حلم إشباع رغبات عظمة النومنكلاتورا الحزبية على هذا النحو العبثي؟ من يحتاج إلى كل هذه الغرف والحمامات والتلفزيونات مرة واحدة؟

ومن ذا الذي يدفع ثمن كل ذلك؟ هي الإدارة التاسعة في الـ «كي. جي. بي». ولكن من المثير أن نعرف وفق أي بنود تنفق هذه الأموال؟ هل هو بند مكافحة التجسُّس أم بند رشوة المواطنين الأجانب، أو بند التجسُّس الفضائي مثلاً وهو الأكثر رومانسية؟...

ولقضاء العطلة فهناك مروحة واسعة للاختيار: پيتسوندا، غاغاري، ڤالداي، وغيرها من المناطق الجميلة الرائعة. وكان كبير الحرس يُعطى - إذا لم أخطىء - حوالى أربعة آلاف روبل،

مصروف جيب كما يقال! أي أنه ليس مجبراً على إنفاق راتبه أثناء العمل. والأمر نفسه بالنسبة إلى العطل التي يقضيها المسؤول في بيوت الراحة صيفاً، فإذا أراد الذهاب إلى شاطىء البحر فلا بد أن يستقل السيارة إياها حتى ولو لم يبعد الشاطىء أكثر من مائتي متر. وكنت أفضل السير على الأقدام معتبراً ذلك رياضة أشعر بالحاجة إليها. وباختصار حاولت أن أنعش هذه الواحة الشيوعية المقطّرة المصفّاة بممارسات إنسانية عاصفة مليئة بالحركة.. ولا بد من الاعتراف، هنا، وبكل إخلاص أنني نجحت في ذلك، ولكن بصعوبة.

وأود هنا أن أعبّر عن وجهة نظر نقاشية. فأنا أعتقد أن البيريسترويكا لم تكن لتتوقف البتة - حتى ولو ارتكبت كل الأخطاء التي ارتكبتها في التكتيك - لو استطاع غورباتشوف مغالبة مغريات التسهيلات الخاصة الشخصية، لو أنه رفض كل تلك الامتيازات المعتادة والمتبعة، ولكن غير الضرورية.. لو أنه لم يعمد إلى بناء بيت في «لينينسكيي غوري» وبيت ريفي في «بودموسكفوي» وترميم ثالث في «بيتسوندا»، ومن ثم بناء رابع جديد فائق الحداثة والتجهيزات في «فوروس». وفي نهاية الأمر يقف ليخطب في مؤتمر مندوبي الشعب بحماس ليقول إنه لا يملك أي بيت ريفي شخصي.. كم كان ذلك مرائياً، أو لم يدرك هو شخصياً خطل ما يقول؟ كان يمكن للأمور أن تتجه في مسار آخر تماماً لو لم يفقد الناس إيمانهم وثقتهم بالشعارات والدعوات المرفوعة. ومن دون الثقة لا يمكن تحقيق أي تغييرات مهما سمت وعلت. والناس يفقدون آخر قطرات الثقة عندما يرون أن المسؤول لا يغير الأوضاع بل يستفيد منها كما تستفيد كل الشريحة الحزبية العليا.. لماذا لم يستطع غورباتشوف أن يغيّر فعلاً؟ أعتقد أن

ذلك يعود إلى نوعيته الداخلية. فهو يحب أن يعيش مرتاحاً مرفَّهاً يملأ الجمال أعطافه، وتساعده في ذلك عقيلته. فهي، بكل أسف، لا تلاحظ كيف تنظر إليها ملايين النساء السوفياتيات بفضول الحانق، أضف إلى ذلك رغبتها في أن تضطلع بدور ملحوظ في حياة البلاد وعلى رؤوس الأشهاد. كان من الممكن أن يكون هذا التصرف عادياً وطبيعياً في مجتمع شبعان وغني وراضٍ، أما في مجتمعنا فلا، على الأقل ليس الآن. إن من أخطاء غورباتشوف أنه لا يشعر بردود فعل الناس.

وأين يمكن له أن يحس بها إذا كان حبل الاتصال مع الشعب ـ إليه ومنه ـ غير موجود أصلاً؟ فلقاءاته بالناس وأحاديثه معهم مجرد مهرجان استعراضي، حيث تجتمع حفنة قليلة العدد من الكادحين، محاطين بسلسلة من الحرس ورجال الأمن. . أما هؤلاء، الكادحون الذين يمثِّلون الشعب، فقد أُنتُقوا انتقاءً أميناً موثوقاً، وأُقِلُّوا بباصات خاصة. . . وبالتالي فإن الحديث الذي يجرى لا يعدو كونه مونولوجاً. .

وماذا عن «الزيل» لزوجته؟ ثم ماذا عن مبادرته الرامية إلى رفع رواتب أعضاء المكتب السياسي؟ فلا بد أن الناس ستعرف لاحقاً كل هذه الأمور بطريقة ما، إذ لا يمكن إخفاؤها. إن ابنتي تُعطى كل شهر، في العمل، قطعة من الزبدة بالكاد تكفيها. وعندما تضطر زوجتي للذهاب إلى المخزن مرة أو مرتين أو ثلاثاً فلا تستطيع شراء الضروري من المنتجات لتكفي البيت، فإنها وبرغم هدوئها واتزانها تنزعج وتتوتر أعصابها.

وبالطبع لن تفر قيادة النومنكلاتورا من الحساب، سيكون عليها أن ترد كل البيوت الريفية الانتجاعية والوقوف أمام الناس بسبب تشبثها

بالخيرات والامتيازات بأيديها وأرجلها وأسنانها. وقد بدأ بعضهم الآن يسدِّد فواتير العظمة النومنكلاتورية عن طريق إخفاق مرشحيهم الحزبيين وموظفيهم في السوفياتات في الانتخابات.. إنه الجرس يُقرع أول مرة. فهم مجبرون الآن على تقديم التنازلات بتلبيتهم مطالب الكادحين، بيد أنهم لا يبدون مستعدين للاستنكاف عن التمتع بالامتيازات..

منذ وقت قريب أعلن ريجكوف أن توزيع الحصص الغذائية سيتوقف، وأن المخزن المخصص لها في شارع غازنوڤسكي قد أُقفل. وقد أُقفل المخزن فعلاً، ولكن الحصص ما زالت توزع كما في السابق، بعد أن زوِّدت بها أقسام الحجوزات والتوصيات! وبقي كل شيء على قديمه. يحمل سائقو السيارات السوداء ما لذ وطاب من الحصص إلى رؤسائهم. من هم هؤلاء السائقون؟ إنهم سائقو القادة الحزبيين وقادة السوڤياتات والوزراء والأكاديميين ورؤساء تحرير الصحف والمجلات وغيرهم من مسؤولي النظام.

إنني أكتب هذه الأسطر ولا أعلم شيئاً عن النتائج التي توصَّلت إليها تحقيقات اللجنة المكلفة بقضية الامتيازات والتسهيلات. ولست أدري ماذا سيقرر مؤتمر مندوبي الشعب الثاني لدى بحثه هذه المسائل. ولكن أقول إن شيئاً لا يمكن أن يتفوق على هذه الصفاقة. وكلي أمل أن نتمكن من الخروج إلى الأبد من مجتمع توزيع الخيرات وفق النومنكلاتورا المميزة إلى مجتمع حضاري، حيث يعتبر الروبل المقياس الوحيد للقيم المادية وللثروات... الروبل المحصَّل بالجهد وبالعمل.. أملي بذلك كبير جداً.

وعندما يُشَيَّع من ورائي أنني رفضت كل الامتيازات ـ حصص، بيت ريفي، طب خاص،... إلخ ـ سعياً وراء الشعبية ولمداعبة

مشاعر الناس العطشة إلى المساواتية والمطالبة بأن يعيش الجميع بالمستوى السيء نفسه، فإنني لا أغضب ولا ألقي بالاً إلى مثل هذا الكلام، وإنه لمن الواضح بالنسبة إلي عمَّن يصدر ولماذا. ولكن، هناك أناساً آخرين، بل من نوعية أخرى ـ كأصدقائي وحلفائي وأولئك الذين يكنون لي العطف والتأييد ـ يسألونني أحياناً ـ وخصوصاً عندما ينشأ وضع خاص ملموس ـ: لماذا احتجت إلى رفض تقديمات الإدارة الرابعة؟ فمن أين لك الآن تدبُّر الدواء (وفي هذه الحالة كنت مصاباً بنزلة برد)، فلا شيء البتة: لا مضادات حيوية ولا أسبرو ولا ڤيتامين «C»؟!.

وإليكم هذه الحالة الطازجة. الوقت صيفاً والدورة منعقدة وأنا منكب على كتابة هذا الكتاب استرق الوقت إما ليلاً أو إثر العودة من الاجتماعات أو أيام الآحاد.. وبكلمة، لم يكن عندي وقت كاف للقيام بعمل طبيعي عادي ومتكامل. وفي آب (أغسطس) ذهب النواب في إجازة فقررت التفرغ للعمل في الكتاب. طبيعي أنه لا يمكن العمل في المكتب، حيث توجد مليون مشكلة، وكذلك في البيت حيث لا ينقطع رنين الهاتف، فقررت استئجار بيت ريفي في «پودموسكڤوي» غير بعيد كثيراً عن العاصمة، حيث لا يعثر علي أحد. ويتضح أن إيجاد بيت في آب مستحيل، فالبيوت الريفية تؤجر في أوائل فصل الربيع. وأبدأ حملة تفتيش عن كوخ صغير ـ وليس بيتاً ـ يمكنني فيه الانعزال تفرغاً للكتابة، فالعطلة قصيرة وكل ساعة لا تقدر بثمن. وآنذاك سمعت التأنيب نفسه.. هاك عدالتك الاجتماعية تشملك، لم يكن من الجائز رفض التقديمات... أين ستعمل على الكتاب الآن.. كان يجب أن تنجزه أولاً، وبعدئذٍ أرفض ما شئت من التقديمات.. وفي نهاية المطاف عثرنا على كوخ صغير، ولعل ميزته الأولى أنه بعيد جداً عن موسكو..

حوالى مائتي كيلومتر. . وكانت الطبيعة حـوله رائعـة، فكالعـادة هناك طيور وغابة وفطر. . أما ما يتعلق بقضاء بعض الحاجات ففي الخارج، وهكذا، في ظل ظروف هذه الطبيعة الحية ولد هذا الكتاب.

ويبدو أنني استطردت كثيراً، فلنعد إلى الحديث عن الامتيازات. وبالطبع فإن أي إنسان يحب تناول طعام لذيذ وصحي، والذهاب إلى أطباء جيدين يعتنون به ويولونه الاهتمام، وقضاء عطلة الصيف على پلاجات جميلة. . . إلخ. فمن الطبيعي حين أستغني عن كل التسهيلات أن تصطدم عائلتي بجملة من المشكلات تماماً كتلك المشكلات التي تنغص حياة ملايين العائلات السوڤياتية.

وبصورة عامة، من المؤكد أنني أرغب كثيراً في أن أعيش كما يعيش كل العالم المتحضر، ولذا فإنني لا أفهم غورباتشوف ـ وقد قلت هذا منذ قليل ـ حين أعلن أمام مؤتمر مندوبي الشعب أنه لا يملك بيته الريفي الخاص. هـل هذا مدعاة للفخر أو للسعادة. بل سيء جداً ألاّ يكون لدى المرء بيته الخاص. . يجب أن يكون لدى الأمين العام بيت ريفي خاص يُبنى بمال مقبوض لقاء العمل، كما هو وضع العامل والكاتب والمهندس والمعلم. . . ولكن يبدو أن بيتاً ريفياً مخصصاً من قبل الدولة له أفضل بالنسبة إليه.

وبما أننا ما نزال نعيش حالة فقر بائسة، فأنا لا أستطيع أن آكل الكاڤيار الأسود ولا أن أركب السيارة الفخمة التي لا تعرف الإشارات الضوئية، ولا أن أبتلع حبوب الدواء المستوردة من الخارج، فيما جارتي لا تعثر على حبة أسپيرين لطفلها.

إن هذا مخجل.

وفي هذا الصدد تبرز أفكار عن بلادنا والطريق المختار لها، وأسباب مستوى المعيشة المتدني، والنقصُ الدائم في كل شيء، والعامل الروحي ـ الثقافي ـ الأخلاقي ، والمستقبل.

وهناك أناس كثيرون يقلقهم السؤال التالي: إلى أين نحن سائرون؟ هل نحن نبني لأنفسنا بيتاً متواضعاً نعيش فيه ولو بصورة مجازية؟ إن مجتمعنا اليوم يحاول أن يهزَّ التصوُّرات القديمة بكل ما أوتي من قوة للعثور على الطريق الصحيح الوحيد. لقد انحرفنا وضعنا وارتكبنا أخطاء كثيرة. . وعند كل منعطف أو مفرق يتصدَّى لنا الكذب والتزوير والتلفيق والجمود الفكري. . فعلينا، إذن، جميعاً أن نعمل جاهدين كي لا نعود فنقع في مهاوي الماضي.

وأذا صدَّقنا الكتب المدرسية فإننا أنجزنا بناء الاشتراكية منذ زمن بعيد، ثم أكملنا ـ لسبب ما ـ بناءها وفي النهاية بنيناها «نهائياً بصورة لا عودة عنها». وما لبث أن تبينً للإيديولوجيين أن هذا غير كاف فأعلنوا بمساعدة من ل. إ. بريجنيف مقولة «الاشتراكية المتطوِّرة». وها هم الآن يكادون يكسرون رؤسهم تفكيراً: أي اسم سنطلق على المرحلة التالية؟. . فثمة ضرورة أن يكون هناك صيغة معيَّنة. . لا نستطيع إكمال وجودنا دونها. ويوجد لدينا ـ وفق حسابات نظريِّينا إذا لم أخطىء ـ ستة وعشرون تحديداً لنمط أو أسلوب الحياة السوفياتي، ومن البديهي أن يكون لدينا مثلها في وقت قريب من أنواع الاشتراكية.

وإذا شئنا أن نقارن نظرية الاشتراكية وممارستها، دون أحكام مسبقة، يتبين لنا بوضوح أن من أجزائها المكونة الكلاسيكية الثلاثة لم يتحقق في الواقع سوى واحد هو: الملكية الاجتماعية، التي نُفِّذت بدورها على نحو قسري. أما عناصر الاشتراكية الأخرى فهي إما غير

موجودة في الواقع أو إنها شُوِّهت إلى درجة لم يعد معها ممكناً التعرُّف إليها.

وحتى يمكننا أن نتصور إلى أين نحن ذاهبون فمن المهم جداً أن نعرف من أين نحن قادمون؟ في العشرينات «اجتثَّ» ستالين طريق الديموقراطية من جذوره وأخذ يغرس اشتراكية الدولة الهيمنية ـ السلطوية والبيروقراطية ـ الإدارية. وخنقت الديمقراطية وهي بعد جنين، ولم يستطع أن يخلق في مجتمع مكتوم أي شيء غير طرح نفسه على الجميع. فالناس المكتومون (أي غير المتصارحين المتكاشفين) لن يتمكنوا من التوافق بعضهم مع بعض مطلقاً. فقد مورست ضغوطات مرعبة وانعدم خلال ذلك الحوار السياسي ـ الاجتماعي بين الحزب وبين الشعب. وبدأ غرس الإملاء والرعب السياسيين.

أما طريق إشاعة الديموقراطية في المجتمع فقد بشَّر بآفاق واعدة تسود فيه المصلحة الشخصية.. الاهتمام الشخصي، إضافة إلى حساب اقتصادي حقيقي وليس شكلياً أو استعراضياً. ولكنَّ ذلك لم يحدث للأسف، فالسياسة الاقتصادية التي انتُهجت بنيت على أساس «المصلحة الاجتماعية» فحسب. وتحت سقفها مُرِّرت ـ ونُفِّذت ـ كل الطرائق الاقتصادية غير الصالحة، التي وإن خدمت أحداً فلم تخدم إلا المصالح الشخصية لحفنة من البيروقراطيين تحت ستار المصلحة الاجتماعية العامة.. وظل العمال والفلاحون بمنأى عن أي منافع تذكر ولم تُلبَّ مصالحهم.

وفي هذه الأيام يكثرون من الكتابة عن تجديد اشتراكيتنا، غير أن هذا ليس دفاع سيء عنها إذا أردنا استعمال مفردات لينة بقصد الوصف، ذلك أن بوسع المرء تجديد ما هو موجود في الزمان والمكان. وبالطبع، يمكن على سبيل المثال تجديد بيت مبني، قائم، كيفما أريد،

إن لجهة توسيعه إو إلحاق المزيد من البناء به أو إعادة تصميمه. . . ولكن ماذا لو كان غير موجود؟ رأيي هو التالي: إننا بدأنا بناء الاشتراكية لتوّنا. نحن بحاجة إلى نظرية مخلصة، شريفة، علمية حقاً يمكنها أن تستفيد من تجربة عمرها سبعة عقود من وجودنا فتأخذها بعين الاعتبار.

لن تختفي التصورات الدوغمائية عن الاشتراكية بلحظة واحدة، بل ستظل تحاول الإفادة من قوة الاستمرار المستمدة من السنوات الخالية، وذلك لفترة طويلة من الزمن. وإن أَطْلَقَةَ دور عوامل التطور الاقتصادية (بإهمال العوامل السياسية ـ الاجتماعية) زمناً طويلاً قد انعكس حتى على استراتيجية البيريسترويكا العامة. والإصلاح الاقتصادي لم يتعزز بإعادة بناء متزامنة للبنية السياسية، (وكان من الأفضل أن تتقدّمه).

وكان أيضاً، من المفترض أن تبدأ البيريسترويكا من الحزب، وذلك بإعادة بناء جهازه. كان من الضروري بمكان أن يتم تحديد موقع الحزب في المجتمع بكل دقة، فماذا كانت النتيجة؟ تبين أننا كنا نعيد بناء الاقتصاد، في مرحلة معينة، ونحن أسرى الأفكار الجامدة والتقاليد البالية الآتية إلينا من الماضي. . من تصورات ومفاهيم ميتة دون أن نكون مزودين بجملة قوانين عن الملكية والأرض والتعاونيات والإجارة والنظام الضريبي ونظام أسعار جديد.

واليوم في سياق سعينا لإحداث إصلاح سياسي مسرَّع نحاول التعويض عمّا فاتنا. وأستطيع القول إن الإنجازات الضئيلة المحقّقة في هذا المجال أدّت إلى تسييس ملحوظ في الوعي الاجتماعي. . وأصبح الشعب يندمج في السياسة بنشاط.

هذا، وقد وسَّعت السياسة الشعبية ـ التي بدأت من الديبلوماسية الشعبية ـ ترسانة وسائلها وأشكالها وطرائقها. وامتلأت الحياة الاجتماعية تماماً بالإضرابات وبلجانها التي تشكَّلت. وتتطور الصحافة الشعبية على هيئة منظمات أهلية غير رسمية وصناديق ومجموعات مبادرة، إلخ . . وفي بعض الجمهوريات والمناطق نشأت جبهات شعبية تمارس نشاطها الفعَّال فيعتبرها بعضهم أحزاباً سياسية جديدة في المجتمع. وأنا مع نشوء هذه الجبهات شرط ألَّا تتناقض برامجها وممارساتها مع القيم الإنسانية العامة. ففي البلطيق طرحت الجبهات الشعبية مسائل لم يسهم الحزب في حلها، عنيت المشكلات القومية.

لقد هزَّت البيريسترويكا الناس وأيقظت فيهم طاقة بنَّاءة ودعتهم إلى الإبداع الاجتماعي. ومن المهم أن تحتل هذه الأشكال المستجدة من السياسة الشعبية مكاناً جديراً في المجتمع، إذ يجب أن تعزز تضامن كل من أقلقه، ويقلقه، مصير البلاد، وكل من يسعى طامحاً إلى بناءٍ ديموقراطي حقيقي. وإن إبعاد أصحاب الأفكار المغايرة من النضال من أجل البيريسترويكا يضعف أشكال الحركة الشعبية. فلا بد، إذن، من تشجيع تخالف الأفكار، خصوصاً في الأوضاع الحرجة، نشداناً لاستمرار الحركة، ذلك أن وحدة الرأي الإرادوية لن تفضي بنا إلاَّ إلى الركود. . فكل كلمة جديدة، وكل فكرة جديدة تعتبران أثمن من الذهب. وعموماً، هل يمكن أن ننكر على الإنسان حقه في التعبير عن أفكاره؟!

يوميات الانتخاب

١٣ آذار (مارس) ١٩٨٩

بدأت المناظرة التلفزيونية للتو. ها إننا نتعلم من البلدان المتحضرة تقاليد الانتخابات المعاصرة، فَسَرَتْ لدينا طرفة اسمها المناظرات التلفزيونية.

ليس الأمر سهلاً. فالكاميرات تتفحّصك وتجبرك على التصرف بشكل غير طبيعي بالكامل، فضلاً عن أن البث مباشر على الهواء.

وأضافة إلى كل ذلك، كانت هذه مقابلتي الأولى بعد إقصائي من منصب سكرتير أول منظمة موسكو الحزبية، الأمر الذي كان يشكل حملاً ثقيلاً على كاهلي. وددت أن يشاهدني الناس بمظهر طبيعي عادي. وبصورة عامة تمكّنت من تجاوز كل المحن التي ابتُليت بها في السنة ونصف السنة الأخيرة.

وإذا أراد المرء أن ينظر بعين الجدية إلى الانتخابات فلا بد أن يتعلم كيفية الظهور على شاشة التلفزيون في مناظرة مباشرة.

واللقاء التلفزيوني عبارة عن شكل خاص لإقامة الصلات مع الناخبين، وهو لا يشبه اللقاءات التقليدية معهم في شيء. فهناك حياة، هناك تنفس الصالة وردّات الفعل على كل كملة. . وأنت تشعر

بكل ذلك، إذ تنتقل طاقة الناس إليك، ومنك تنتقل طاقتك إليهم. . أما في التلفزيون فترمقك عين الكاميرا الباردة فلا يخترقها سواك والضوء، فتجد نفسك، بالتالي، مضطراً إلى تخيُّل أناس حقيقيين (محل كل ذلك)، يجلسون في بيوتهم على الأرائك ويشربون الشاي منهم من يصغي باهتمام ومنهم من لا يسمعك إلا بأذن واحدة.

لا علينا، فهذا ليس إلا من قبيل التنظير. أما في الواقع فإليكم ما حدث. وصلنا إلى «أوستانكينو» (مبنى التلفزيون) قبل بدء البرنامج بحوالى نصف ساعة. فجلسنا نتحدث مع مقدم البرنامج عن كيفية تقديمه، وتكلم قليلاً وباختصار على الاتصالات الهاتفية التي تتم بالاستوديو. وبحسب شروط المناظرة التلفزيونية ينبغي على كل مرشح أن يرد على بعض أسئلة الموسكوفيين، التي يختارها مقدم البرنامج.

وبدأ البث المباشر على الهواء. تقدم المرشح يو. براكوف ببرنامجه الانتخابي، ثم أعطيت بدوري عشر دقائق. وأكرر القول: كبحت جماح نفسي وتكلمت، شاعراً بأنني مقيد على غير ما اعتدت الكلام، ورغم ذلك فقد تقدَّمت ببرنامجي الانتخابي كله.

طبعاً ليس مريحاً أن ترتاب بشخص ما لأمر ما، ولكن انتقاء الأسئلة ـ وأقولها بصراحة ـ أذهلني. فقد طرحت على براكوف أسئلة هادئة عادية، وكانت بمعظمها تدور حول مصنع «زيل» ومستقبله. ومرة أخرى اضطررت لأن أتلقى الضربات الموجهة إلي. كنت أتأجج من الداخل، ولعل ذلك كان لمصلحتي، فعمدت إلى الكلام بعاطفة أكثر وببساطة أكثر.

ومن المفهوم أن يعمد المذيع إلى انتقاء الأسئلة المثيرة التي تستطيع توتير الجو وفق ما يراه، ولكن لست أدري لماذا ولأي حكمة بدأ يقرأ

رسائل وردت من المواطنين، إما أنهم ليسوا موجودين في العاصمة أو هم موجودن فعلاً ولكنهم لم يبعثوا بأي رسائل (وهذا ما تحقق منه الصحفيون فيما بعد). وهاكم مثالاً واحداً فحسب. يقرأ مقدِّم البرنامج: «بوريس نيقولاييفيتش، لماذا تقوم دائماً بكل شيء على عيون الناس للاستعراض؟ حتى زيارتك إلى العيادة للمعاينة تتم باصطحاب الصحفيين والمصورين؟...» هذا السؤال طرحه مواطن ما يعيش في منطقة ما بعنوان ما.

وبالفعل فقد قمت صباح ذلك اليوم بزيارة العيادة لإجراء فحص، والعيادة تابعة لإحدى المناطق بعد أن رفضت الارتباط بالإدارة الرابعة. وأذكر بالمناسبة أنني عندما أخذت استمارة لأعبئها راحت الموظفة المسؤولة عن التسجيل - وهي امرأة متقدمة في السن - تطرح علي أسئلة من نوع العنوان، العمر، مكان العمل.. إلخ، وعن عملي أجبت بأنني وزير.. كاد قلمها أن يقع.. قالت: «المرة الأولى في حياتي.. وزير يسجل نفسه في «عيادة منطقة»»... وهكذا، ما إن خرجت من البناية حيث أسكن حتى وجدت مجموعة كاملة من المصورين ترابط عند المدخل. صوَّروني عندما دخلت إلى العيادة وعند خروجي منها. هذا كل شيء. والمثير في الأمر أن هذا حصل في الثامنة صباحاً والعيادة لا تبعد سوى خمس دقائق سيراً على الأقدام، وإذن كان يجب أن أراقب بدقة ومع كل خطوة لأتمكن من ملاحظة أن أحد يصوِّرني في الصباح أثناء سيري باتجاه العيادة.

وفي المناظرة التلفزيونية أجبت على النحو التالي: لقد بلغ مني الضيق مبلغاً كبيراً بالصحافة والصحفيين والمصورين، السينمائيين والتلفزيونيين، الذين لا يسمحون لي بممارسة رياضة المشي، وبات من الضروري طرح السؤال عليهم: لماذا هم دائماً إلى جانبي أو ورائي

يلحقون بي أينما ذهبت. فمن المحتمل أنهم يعمدون إلى التقاط الصور والأفلام لأن الأخبار انقطعت فترة طويلة، الأمر الذي ربما خلق لديهم هذا الاهتمام الزائد وغير الضروري..

ولكن هذا ليس كل شيء. ففي اليوم التالي، وشعوراً منها بأنها آذتني، ذهبت مجموعة من المصورين نفسها إلى عنوان السائل الذي طرح السؤال باسمه وفتشت عليه،... كل شيء صحيح هنا يعيش هذا المواطن وفي هذا العنوان، ولكنه لم يتصل بالتلفزيون ولم يبعث برسالة، كما إنه لا يعلم شيئاً عن أي عيادة منطقة. وفي نهاية المقابلة قال: «لا يقلقنَّ بوريس نيقولاييفيتش، فأنا سأقترع لصالحه». وسجَّل الشبان المقابلة على ڤيديوكاسيت وأهدوني إياه.

وراح معاوني الانتخابيون يحقِّقون في جزء من العناوين، وكانت النتائج نفسها: إما أن الأشخاص غير موجودين مطلقاً أو أنهم موجودن ولكن لا علاقة لهم بأي أسئلة طرحت.

أجل، في مناظرات تلفزيونية كهذه شاركت.

كانت دورة اجتماعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوڤياتي المنعقدة في تشرين أول (أوكتوبر) ١٩٨٧، التي قيل عنها كلام خفي وسري كثير، هي الدورة التي قررتُ رغم كل شيء التكلُّم فيها.

وفي أوقات لاحقة غالباً ما ساءلت نفسي: وهل كان هناك خيار أخر أمام ضرورة التصدي لهذه التغيرات الكارثية التي تصيبني في حياتي الشخصية؟ ولم أكن أشك لحظة في أنني سأتحمل العقاب المنتظر تنفيذه، فلماذا إذن انسقت مع هذا الأمر؟.

وبعد مضي سنتين تقريباً على الدورة المذكور أستطيع القول وبمنتهى الوضوح: نعم، كانت كلمتي آنذاك ضرورية، لأنها كما تبينَّ وضعت

أسس منطق كل الأحداث الأخيرة. كان الجميع يغلون حماساً واندهاشاً من البيريسترويكا فلم يريدوا أن يروا أنه لا نتائج ملموسة على أرض الواقع، باستثناء بعض التغيرات والتقدم في مسألتي الغلاسنوست وإشاعة الديموقراطية. فبدلاً من أن يُجْرَى تحليل انتقادي وواقعي للأوضاع الناشئة، تحوَّلت اجتماعات المكتب السياسي إلى مدائح تُتلى في حضرة الأمين العام. وقد بلغ نزاعي مع ليغاتشيف حدَّه المنطقي المنتظر. ولكي تُفقأ دمامل موسكو المؤلمة وحل مشكلاتها كان لا بد من مساعدة يسديها المكتب السياسي: فالعاصمة بنية معقدة، مكوناتها متداخلة تداخلاً شديداً، ولا يمكن حلها إلا بجهود متضافرة.. ومع ذلك فقد بدأت أشعر في الفترة الأخيرة أنه لا توجد أي رغبة بإسداء المساعدة للمدينة لتحل مشكلاتها التي بلغت نقطة اللاعودة.

فهل كان ممكناً أن يعمل المرء في ظل ظروف كهذه؟

أجل، كان ممكناً، ولكن وجب أن أتغيَّر وأصبح شخصاً آخر: أي أن أمتنع عن التعبير عن وجهة نظري، وألاَّ أرى البلاد تندفع نحو الهاوية، وأن أتشدق بالقول إن الحزب - كما يقول الأمين العام المنظم والأب الروحي - وماذا بعد؟ - هو باني البيريسترويكا ومحركها.

من ذا الذي عرف أن هذه الشعارات المرائية ستخرجني عن طوري. في البداية راح الجهاز البيروقراطي - الحزبي يدكُّ البلاد مستتراً وراء الحزب، والآن عندما لم يعد ثمة مجال للهرب وأصبح من الضروري تغيير شيء ما في هذا النظام الفاسد العفن، أخذوا يصرخون: إياك والحزب، فهو باني البيريسترويكا ومحركها. كيف يمكن لنا أن نمسُّه، وقد رضعنا منذ الطفولة أن نرد كل إنجازاتنا إليه ونربطها باسمه؟! أضف إلى كل ذلك فإن دور الحزب عموماً أنه المنظم والمحرك كما ورد في المادة السادسة من دستور الاتحاد السوفياتي. إذن من هو المخطىء

في كـل ما يحـدث؟ أهي المجموعـة التـاريخيـة الجـديـدة التي اسمهـا الشعب السوڤياتي؟ أم هـو ذاك الذي نـظَّم وحرَّك عـلى مدى سبعـين عاماً؟ في كل يوم تسمع من كل الجهات والأنحاء اللعنات تصب على رأس الجهازيين. .

إن سمعـة الحزب وهيبتـه لن تمسَّـا، لن نـدعكم تضعـوا أيـديكم الوسخة عليه! . . .

لقد قطعت البلاد بعد سنتين من انعقاد دورة تشرين أول (أوكتوبر) أشواطاً كبيرة إلى الأمام، فقد عرف الناس دورهم. . إنهم ليسوا مجرد براغي في آلة، بل إنهم أفراد. . أناس ذوو شخصيات. وبدأ الهجوم الشعبي على البيروقراطيين الحزبيين الذين لم يتوانوا عن الدفاع عن مصالحهم ومواقعهم بكل القوة التي لديهم. وحينها، عندما أدركت أنني يجب أن أتكلم، كان مسموحاً توجيه النقد شرط ألا يتناول بعض الأسس أو الأسماء ذات الشأن الرفيع. فالأمين العام، مثلاً، كان يشبه أبانا ـ القيصر الذي يُعتبر أن التشكيك في تصرفاته بمثابة تدنيس للقدسية الحزبية. فقد كان بوسع المرء فقط أن يبدي اندهاشه وإعجابه وسعادته كون الحظ حالفه في العمل مع الأمين العام المُعاني والمتَّسم بالتواضع والكاره للمدائح. . . إلخ. . .

عندما توجَّهت إلى المنبر لم يراودني أبداً أن مداخلتي ستتحول خطوة إلى الأمام في تعميق الغلاسنوست والنقد. . . لا، لم أفكر في هذه الأشياء. كان المهم بالنسبة إلي أن أجمع إرادتي كلها في قبضة واحدة وأنفجر لأقول ما لم أستطع إلاّ أن أقوله.

وكما ذكرت آنفاً، لم أكن قد حضرت كلمة مكتوبة، بل مجرد ورقة كتبت عليها موضوعات. . . رؤوس أقلام.

ولذا، فإنني أستشهد بما نشر في مجلة «إزڤستيا اللجنة المركزية»

للحزب الشيوعي السوفياتي.

«يلتسين: إن التقريرين ـ تقرير اليوم وذاك الذي ألقي في الذكرى السبعين لقيام ثورة أوكتوبر ـ وغيرهما من مشروعات التقارير، قد نوقشت كلها في اجتماعات المكتب السياسي. وأخذاً بعين الاعتبار أنني تقدمت بملاحظات لدى مناقشتها ـ أُخذ ببعضها ـ فليس لدي اليوم ملاحظات على التقرير، ولذا فأنا أؤيده بالكامل.

ومع ذلك، فإني أود التعرض لجملة من المسائل تراكمت لدي طيلة فترة عملي في المكتب السياسي.

إني موافق تماماً على أن الپيريسترويكا تواجه هذه الأيام صعوبات جمّة، ولذلك تقع على عاتق كل منا مسؤولية كبيرة وواجبات كبيرة أيضاً.

وإنني أعتبر أنه يجب قبل كل شيء أن نعيد بناء عمل اللجان الحزبية، بل عمل الحزب عموماً، ابتداءً من سكريتاريا اللجنة المركزية ـ وهذا ما قيل في دورة اجتماعات لجنة الحزب المركزية المنعقدة في حزيران (يونيو) ـ.

وأرى لـزاماً علي أن أقول إنه وبعد مضي خمسة أشهر لم يتغيَّر أي شيء من وجهة نظر أسلوب عمل سكريتاريا اللجنة المركزية وأسلوب عمل الرفيق ليغاتشيف.

ما قيل هنا اليوم، وقد قاله ميخائيل سرغييڤيتش (غورباتشوڤ)، أنه لم يعد مسموحاً الاكتفاء بتوجيه التأنيب أو التوبيخ على كل المستويات، وهذا يتعلق بالهيئات الاقتصادية وغيرها من الهيئات. أما الحزب فهو خارج كل ذلك في الوقت الذي ينبغي له فيه أن يسلك طريقاً ثورياً وأن يعتمد ممارسة ثورية. ولكن هذا الزخم الثوري، بل قل الرفاقية

الحزبية في الموقف إزاء اللجان الحزبية، لا يُستشعر من قبل رفاق كثيرين. وبالنسبة إلي ما يجب فعله هو أن نتعلم من دروس الماضي وأن نمعن النظر فعلياً في بقع التاريخ البيضاء التي تكلم عليها، اليوم، ميخائيل سرغييفيتش، تمهيداً لاستخلاص النتائج في ما يتعلق بيومنا الراهن وبغدنا. ماذا علينا أن نفعل؟ كيف نصحّح الموجود ونمنع حدوث ما كان؟ إن ما شُوِّه بكل بساطة هو معايير حياتنا اللينينية حتى أدى بنا ذلك إلى إخراجها من معايير حياة حزبنا.

وأعتقد أن شيئاً ما قيل في المؤتمر عن سنتين أو ثلاث ستستغرقهما البيريسترويكا.. فها هما عامان، أو يكادان، ينقضيان، ويتجدد الكلام عن سنتين أو ثلاث أخرى.. إن هذا يضيِّع الناس ويضيِّع الحزب، ويضيِّع الجماهير كلها، ولأننا نعرف مزاج الناس بتنا نلمس الطابع التموُّجي لموقفهم من البيريسترويكا. في البداية كان التأييد مرتفعاً عظيم الحماس، وقد استمر كذلك حتى أثناء انعقاد دورة اجتماعات اللجنة المركزية في كانون الثاني (يناير). أما بعد دورة تموز (يوليو) فقد بدأ الهبوط وهو مستمر الآن. إن هذا يقلقنا، ويقلقنا بالطبع أننا هدرنا سنتين لتدبيج هذه الوثائق التي لم تصل إلى الناس ولم تترجم في الواقع. لذلك، يتهيأ لي أنه يجب ألاَّ نتعجل في تحديد مواقيت البيريسترويكا فنكون أكثر حذراً بالنسبة إلى هذا الموضوع خلال العامين المقبلين، حتى تكون المواعيد المبذولة واقعية. إنها دون شك لا تُعطى لنا بسهولة، ونحن نعرف هذه الحقيقة، ولكن من الضروري بمكان تثوير ممارسة الحزب، والحزب تحديداً، بكل منظماته ولجانه، كي لا نواجه الناس بعد سنتين وسمعة الحزب مصابة في الصميم أو هاوية إلى الحضيض.

وأرى أيضاً لزاماً علي أن أقول إننا ننادي دائماً بوجوب الإقلال من

الأوراق والوثائق، ومع ذلك فهي إلى ازدياد، وهذا بكل بساطة يثير نوعاً من اللامبالاة واللاثقة حيالها في المواقع التحتية ولدى الناس. فالقرارات تتوالى الواحد تلو الآخر. ونحن ندعو بعضنا بعضاً لتقليص عدد المعاهد التي تخرِّج البطالة، ولكني أقول إنه كان في موسكو العام الماضي ١٠٤١ معهداً، وخلال سنة اتخذت قرارات بافتتاح معاهد جديدة. وهذا يناقض بالطبع خط الحزب وقرارات المؤتمر والنداءات التي صدرت عنا جميعاً.

وتقلقني مسألة أخرى، وهنا في دورة اجتماعات اللجنة المركزية وأمام أعضائها الذين أعتبرهم الأكثر وثوقاً وصراحة، يمكن الإعلان عن مكنونات الصدر، بل ويجب فعل ذلك بوصفي شيوعياً.

يجب أن أقول إن الدروس التي كابدناها على مدى سبعين عاماً دروس قاسية. فقد كانت هناك انتصارات كما أشار ميخائيل سرغييفيتش، ولكن كانت هناك إخفاقات وهزائم قاسية أيضاً. وهذه الهزائم تراكمت تدريجياً بسبب انعدام الروح الجماعية، وبسبب تركُّز السلطة الحزبية في أيدي أفراد أو في يد شخص واحد مترفع عن أي نقد بالمطلق.

في الواقع ليس عندنا في المكتب السياسي حالة مماثلة، ولكني قلق للغاية في الأونة الأخيرة من بروز بعض الدلائل والمؤشرات، وأكاد أقول بروز آيات التبجيل والإطراء من جانب بعض أعضاء المكتب السياسي المرشحين، ومن جانب بعض أعضائه الدائمين، نحو الأمين العام. وفي اعتقادي أن هذا غير جائز ولا يمكن السماح به، وبالتحديد راهناً، في وقت نركز فيه أسس أشكال العلاقات الديموقراطية المبدئية بعضنا تجاه بعض، فضلاً عن علاقات الرفاقية والرفاقية بحد ذاتها. التمجيد، إذن، غير جائز. يجب أن ننتقد بعضنا وجهاً لوجه، وهذا

ضروري حتى لا نندفع نحو التبجيل ومنه بالتدريج إلى «عادة» عبادة الفرد. إننا لا نستطيع السماح بذلك. لا يجوز السماح بذلك.

أنني مدرك أن ما أتكلّم عليه لن يؤدي إلى اعوجاجات محددة حتمياً، ولكن المعالم الأولى لهذه الاعوجاجات بدأت تتمظهر، ولذا يتوجب بالطبع الحؤول دون تطورها.

والنقطة الأخيرة (صمت).

يبدو أنني لم أوفق في العمل ضمن تركيبة المكتب السياسي. والأسباب متعددة. لعلها التجربة والخبرة، ولعله أمر آخر. ببساطة ليس هناك دعم خصوصاً من جانب الرفيق ليغاتشيف، الأمر الذي دفعني إلى طرح مسألة إعفائي من واجباتي كمرشح لعضوية المكتب السياسي. وقد تقدمت بطلب مكتوب في هذا الصدد. أما ما يتعلق بكوني أميناً أول للجنة المركزية في العاصمة فهذا على ما أعتقد أمر ستنظر فيه دورتها المقبلة».

وجلست مكاني بعد الانتهاء من الكلمة. كان قلبي يخفق بعنف، يكاد ينخلع من مكانه في صدري. وقد علمت ماذا سيكون بعد. ستجري مذبحة مخطّطة، مدروسة، ممنهجة، وستنفذ بلذة واستمتاع تقريباً.

كم من الأيام مضى وما زال ذلك المسمار الصديء منغرزاً في قلبي.. فأنا لم أنزعه.. إنه ما يزال معلقاً، ومع كل حركة ينزف الدم. والأمر حتى بالنسبة إلي شديد التعقيد عصي على الفهم. فهل كنت أنتظر رد فعل آخر من اللجنة المركزية التي يشكل المحافظون أكثريتها؟ وبالطبع لم أنتظر ردّ فعل آخر. وجاء السيناريو واضحاً وضوحاً شديداً، إذ كان محضراً مسبقاً ولا علاقة له بمداخلتي كما فهمت فيما بعد. فقد كان

يكفي أن يعطي غورباتشوف كلمة السر حتى يتزاحم المتزاحمون على المنبر مطلقين شتى الاتهامات بحقي من تفتيت وحدة القيادة إلى الطموحات والاشتراك في المؤامرات السياسية. . . وبكلمة، اتهامات تكفي حزباً معارضاً بأكمله. وقد راعني كثرة المتعطشين للشهادة ضدي لتحطيم «الرفيق الحزبي المنحرف» تحطيماً معنوياً. . . ولا مناص من منع الراغبين في اعتلاء المنبر. وأعود مرة أخرى هنا للاستشهاد بمحضر الاجتماع:

«**غورباتشوف**: يبدو أنه من الأفضل أن أدير الجلسة.

ليغاتشيف: أجل، تفضل ميخائيل سرغييڤيتش.

غورباتشوف: أيها الرفاق، يتهيأ لي أن مداخلة الرفيق يلتسين جدية. لم أرد أن أفتح الآن باب النقاش، ولكن لا بد من مناقشة ما قيل هنا قبل قليل.

وأريد أن أكرر عناوين إعلان الرفيق يلتسين الرئيسية. أولاً، قال إنه من الضروري تفعيل نشاط الحزب وليُبدأ باللجنة المركزية وتحديداً بأمانتها. وكانت ملاحظاته في هذا الصدد موجَّهة إلى إيغور كوزميتش ليغاتشيف.

ثانياً، المسألة المتعلقة بوتائر الپيريسترويكا. تم التأكيد على أنه حُدِّدت مواقيت من سنتين إلى ثلاث سنوات، مع الملاحظة أن هذه المواقيت خاطئة، وهذا ممَّا يضيِّع الناس ويقود إلى بلبلة في المجتمع وفي الحزب. والوضع مفعم بالمخاطر التي يمكن أن تقضي على القضية.

ثالثاً، إننا نعتبر من دروس الماضي ولكن ليس على وجه تام كما يبدو من وجهة نظر الرفيق يلتسين، ذلك لأنه لم نوجد الآليات الضرورية لفعل ذلك في الحزب على مستوى اللجنة المركزية والمكتب السياسي،

بحيث تمكّننا من تلافي تكرار الأخطاء الجدية السابقة.

رابعاً وأخيراً، ما يتعلق بإمكانية الاستمرار في العمل على النحو السابق. فالرفيق يلتسين يعتبر أنه لا يستطيع العمل ضمن تركيبة المكتب السياسي، على الرغم من أن مسألة عمله أميناً أول لمنظمة العاصمة الحزبية لا تحسم في اللجنة المركزية بل في دورة اجتماعات لجنة المنظمة.

شيء ما جديد ينجم لدينا هنا. هل المقصود بالكلام فصل منظمة موسكو الحزبية؟ أم أن المقصود هو طرح الرفيق يلتسين مسألة خروجه من المكتب السياسي أمام دورة اجتماعاتنا هذه، فيما قرّر البقاء في منصبه سكرتيراً أول لمنظمة مدينة موسكو الحزبية؟ يمكن أن نستنتج رغبة في التصارع مع اللجنة المركزية.. هذا ما أفهمه، وقد أكون حاداً في ذلك».

إنني هنا لا أمسك نفسي عن قطع الاستشهاد بكلام غورباتشوف. لاحظوا كيف قلب بشكل بهلواني مضمون كلامي. هكذا، إذن، فكل ما أوده هو تزعُّم نضال منظمة الحزب في موسكو ضد اللجنة المركزية.. قضي الأمر وخيطت المسألة السياسية كما ينبغي ونطقت كلمة السر. وكنت، في الاجتماع، أحتج وأعترض وأستنكر، ولكن لا فائدة من ذلك ولا دور..

«اجلس، اجلس، بوريس نيقولاييفيتش، إنك لم تطرح مسألة خروجك من قيادة منظمة المدينة. لقد قلت إنها مسألة من اختصاص المنظمة.

هوذا الأمر، تحتج كأنني لم أفهمك جداً، وكأنك طرحت مسألة استمرارك أميناً أول للمنظمة أمام اللجنة المركزية.

لقد فسرت بصورة صحيحة كل ما قلته في مداخلتك، أليس كذلك، رفيق يلتسين؟

دعونا أيها الرفاق نتبادل الآراء، فالمسائل وضعت بشكلها المبدئي.

يبدو لي أننا أمام حدث يمكننا ونحن نسير نحو الذكرى السبعين لثورة أوكتوبر العظمى أن نستخلص منه العبر لأنفسنا وللجنة المركزية وللرفيق يلتسين، وعموماً لنا جميعاً..

يجب أن ننظر في الأمر.

من فضلكم أيها الرفاق، من يريد الكلام؟

أعضاء اللجنة المركزية يعرفون نشاط المكتب السياسي، وفي السياسة يفقهون، وأنتم مؤهلون للنظر في الأمر تماماً. إنني أدعوكم لتتكلموا ولكني لا أصر ولا أجبر أحداً. وإذا أراد أحد من أعضاء المكتب السياسي أن يتكلم فليتكلم.. تفضلوا.

أيها الرفاق، من أراد الكلام فليرفع يده».

وسار كل شيء كما كان متوقعاً. ولكن المسألة تأخذ بعداً عندما نقلّبها في ذهننا نظرياً مفكرين في ماهية الردود التي سترد على موضوعاتي ومن سيتكلم. وبدا أنَّ من سيتكلم لن يكون عياره كبيراً فضلاً عن كونه من الأبعدين.. وجاء الواقع مؤلماً، موجعاً، مفعماً بالخيانة.. فمن تسابق إلى الكلام من على المنبر أشخاص قريبون عملوا معي وربطتني بهم علاقات جيدة، ومع ذلك كانت عيونهم تبرق وتكاد تقفز من المحاجر. وأنا متأكد أن هؤلاء الناس سيشعرون بالخجل من أنفسهم عندما يقرأون هذا التزوير الفاضح الذي لفَّقوه بحقي.. ولكن ما العمل والكلام قد قيل ولا سبيل إلى الهروب منه؟

وتوالت الكلمات مفعمة بالديماغوجية والتفاصيل الصغيرة، وكلها تدور حول نقطة واحدة: أي يلتسين هذا. وتكررت الأفكار والتجنيات والاتهامات نفسها. وكيف تمكنت من التحمُّل، لا أدري.

من المتكلمين كان ريانوف، وقد عملنا معاً طويلاً في سفيردلوفسك. لماذا؟ لماذا تكلَّم؟ تكلَّم كي يشق طريقه إلى العُلى.. نحو المستقبل، حتى ولو إلى التقاعد؟... وقال ما قال. كان ذلك موجعاً للغاية.. وتكلم سكرتير إقليم پريمسك كونوپليف، وسكرتير إقليم تومين بوغومياكوف وغيرهما من الذين عملنا معاً جنباً إلى جنب وأكلنا من خبز واحد وأرطال من الملح.. ولكن للأسف كان كل واحد منهم يفكر لنفسه فحسب، يفكر في ما يمكن تحقيقه من مكاسب شخصية. أما من أعضاء المكتب السياسي فقد فاجأتني كلمتا ريجكوف وياكوفليف اللذين لم أتوقع أبداً أن يصدر عنهما ما صدر. ويبدو لي أن كلمتيهما جاءتا تلبية لرغبة الأمين العام، لأنني كنت أكنُّ لهما دائماً احتراماً كبيراً، وهذا يعني أن إصغائي لما سيقولان سيكون مؤلماً بوجه خاص.

آنذاك أدركت أنه بعد الذي حصل ستبدأ عملية طويلة جداً يجب تحمُّلها، وأنني الآن، وفي هذه الدورة، لن أُقصى من المكتب السياسي. فلا بد إذن من انتظار انعقاد دورة اجتماعات منظمة موسكو الحزبية، عندئذٍ سأعفى أولاً من مهام منصب السكرتير الأول تمهيداً لإقصائي عن المكتب السياسي في دورة اجتماعات ثانية للجنة المركزية. وهذا ما حدث فعلاً. وصوَّت المجتمعون في نهاية الدورة على التوصية المختصرة التالية: «اعتبار مداخلة يلتسين خاطئة سياسياً»، مع اقتراح لمنظمة مدينة موسكو الحزبية النظر في مسألة وجودي على رأسها، على الرغم من أن مداخلتي لم تتضمَّن أخطاء

سياسية، الأمر الذي يستطيع أي امرىء التأكد منه لدى قراءتها منشورة في المجلة.

وبالمناسبة، عندما أعلن عن صدور العدد الثاني من مجلة «إزڤستيا اللجنة المركزية» للحزب الشيوعي السوڤياتي لسنة ١٩٨٩، متضمناً محاضر دورة اجتماعات اللجنة المركزية في تشرين أول (أوكتوبر)، لم أتعجل شراءها بقصد قراءتها مفضلاً انتظار وُرودها ببريد الاشتراك. ولما قرأت مداخلتي تعجَّبت بعض الشيء إذ بدا لي أنني كنت أكثر حدة في الكلام آنذاك، ولكن يبدو أن الحدة تتلطف بمرور الأيام. وهكذا، أخذ المجتمع يتقدم، وكم أثير من المناقشات الحادة سواء في الكونفرنس الحزبي التاسع عشر أو أثناء الحملة الانتخابية. أما في الدورة التي تكلمت فيها، فقد كان ذلك المرة الأولى التي ينتقد فيها الأمين العام للحزب، لا في المطبخ، بل في هيئة حزبية عامة. وللمرة الأولى يُحكى فيها علناً وبهذه الشمولية عن الأسباب التي تكبح البيريسترويكا.. وهكذا، أيضاً، تحقق مبدأ التعدُّدية للمرة الأولى منذ إعلانه.

أما مداخلات الآخرين، مِمَّن سُمُّوا خطباء، فلم أطالعها، إذ لم أرد إكراه نفسي على ذلك.. فمطالعتها تعني بالنسبة إلي أن أعيش التجربة المؤلمة مرة ثانية بكل ما فيها من ظلم وعدم إنصاف وإحساس بالخيانة... لا، لم أستطع ولم أرِد.

كان وقتاً صعباً، عانيته بكل آلامه، وفي غضون بضعة أيام كنت أعيش بقوة الإرادة فقط، فلم أدخل المستشفى على الفور. وفي ٧ تشرين الثاني (نوفمبر)، عيد الثورة وقفت على المنصة فوق قبر لينين، وكنت متأكداً أنها ستكون المرة الأخيرة. وأكثر ما أحزنني أنه لم تتسنَّ لي الفرصة لتحقيق كل ما فكَّرت فيه من مشاريع للعاصمة ومن

حلول للمشكلات الساخنة التي تفتك بها، وكانت كثيرة العدد. وأعتقد أنني نجحت في تحريك أوصال منظمة المدينة مع أنني عجزت عن تحقيق إنجازات كثيرة، مما يجعلني أشعر بالخطأ حيالها وحيال شيوعيي موسكو وسكانها. ولكن، ومن ناحية ثانية، وبما أن موقف المكتب السياسي مني لم يكن ليتغيّر، وبما أن اقتراحاتي بصدد تحسين مستوى المعيشة في العاصمة توغلت في طريق مسدود ولم يُرغب في تحقيقها، فإنني لم أسمح لنفسي بأن يتحوّل الموسكوفيون أسرى وضعي الخاص. . فكان لا بد بالفعل من الخروج. . .

وفي ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) وقع حادث طريف ومؤثر. فقد كنت ما أزال عضواً مرشحاً للمكتب السياسي حيث لم تنعقد بعد الدورة التي سيُتخذ فيها قرار بإعفائي من عضويته. وفي يوم عيد الثورة اليوبيلي اجتمع الأمناء العامون للأحزاب الشيوعية والعمالية في البلدان الاشتراكية، وكانوا قد وصلوا موسكو للمشاركة في الاحتفالات ولعقد اجتماع عام في ما بينهم. وكان كل أمين عام يلتقي غورباتشوف في اجتماع ثنائي. ومن الطبيعي أن يطرحوا جميعاً أسئلة تستفسر عني فكان يجيبهم راوياً الوضع بالتفصيل. وأستطيع التكهن بما كان يقوله ملقياً باللوم علي. وفي يوم العيد سار الجميع ـ أعضاء المكتب السياسي وأمناء اللجنة المركزية ـ باتجاه منصة لينين وفق الترتيب المتّبع وعلى رأسهم غورباتشوف. . وكان قادة الأحزاب الضيوف يقفون فأخذوا يصافحوننا مبتدئين بالأمين العام. ويأتي دوري لأصافح فيدل كاسترو فأقترب منه، فإذا به يضمني إليه ويتمتم بكلمات ما بالإسبانية لم أفهم منها شيئاً، ولكني أحسست بدفء التضامن الرفاقي. فشددت على يده وقلت: «شكراً!». وأكمل مصافحة الآخرين، فأصل إلى العسكري ياروزيلسكي واحتضان ثان مع كلام روسي: «بوريس

نيقولاييڤيتش، اصمد!»، ورددت بهدوء شاكراً المشاركة. حدث كل ذلك أمام عيني غورباتشوف وأمام أعين قادة حزبنا الآخرين، مما زاد عندهم اليقظة والحرص تجاهي أكثر بصورة أكيدة.

لقد حاولوا ألا يتكلّموا معي كي لا يُرَوا متلبِّسين، علماً أن بعض أعضاء المكتب السياسي، آنذاك، كانوا يكنون لي في أنفسهم تضامناً معنوياً وإن لم يكن في كل المسائل.. ولكن كان ثمة تضامن ما. بل إن بعضهم بعث إلي ببطاقة معايدة، أما غورباتشوف فلم يفعل، كما لم أرسل له أيضاً أي بطاقة وقتذاك، وقد هنّأت من هنّأني على قلة عددهم.

وفي مثل هذه الاحتفالات كان كل قائد منا يُفصل لأحد الضيوف من الأمناء العامين، وكان فيدل كاسترو عادة من نصيبي، وكانت تربطني به علاقات جيدة جداً. أما في هذا العيد فإني لم أُلحق بأي من الضيوف. وكنت أشعر بالضيق والانزعاج في الكوكتيل الذي أقيم على شرفهم، كوني وحيداً فآثرت أن أبقى جانباً.

وفي التاسع من تشرين الثاني (نوڤمبر) بدأ ينتابني صداع يترافق مع أوجاع قلبية مما استدعى نقلي إلى المستشفى. بدا أن جسمي لم يتحمَّل التوتر العصبي الذي ضغط عليه طيلة الأيام الماضية، فحدث الانفجار. وحُقنت بشتى أنواع الأدوية المهدئة المزيلة لتوتر الجهاز العصبي. كان كل شيء يتم بسرعة. ومنعني الأطباء من مغادرة السرير مع متابعة العلاج بالأدوية والحقن. وغالباً ما كانت الأوجاع تنتابني ليلاً حيث لم أكن أتحمل الصداع الفظيع على مدى ثلاث أو خمس ساعات. وأرادت زوجتي زيارتي فلم يُسمح لها وقالوا إنه لا يجوز إزعاجي وإن حالتي حرجة.

وفي صباح يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) رن جرس الهاتف وكان على الخط غورباتشوف الذي يبدو أنه لم يتصل بالمستشفى بل ببيتي الريفي، حيث لم أكن موجوداً بطبيعة الحال، فحوَّل الاتصال إلى المستشفى. قال بلهجة هادئة: «بوريس نيقولاييفيتش عرِّج علي لفترة قصيرة، وماذا لو عقدنا بالمرة اجتماعاً كاملاً لمنظمة موسكو بعد اللقاء؟». قلت إنني لا أستطيع المجيء، فأنا طريح الفراش وممنوع من مغادرته بأمر الأطباء، فرد قائلاً وبنشاط: «لا بأس، سيتعاون الأطباء معنا».

ما حدث لم أستطع فهمه، ولن أستطيع فهمه أبداً. فأنا لا أذكر البتة خلال كل حياتي العملية أن عاملاً أو قائداً مريضاً يُخْرَج من المستشفى ليُقال من عمله أو منصبه. إن هذا لأمر مستحيل، وهو يناقض أبسط الأنظمة والأعراف المعمول بها. ومهما كان موقف غورباتشوف مني سيئاً فهل يعقل أن يتصرف معي على هذا النحو اللاإنساني، اللاأخلاقي؟... والواقع أنني لم أتوقع منه مثل هذا التصرف. ممَّ كان يخاف، ولماذا كل هذه السرعة؟ هل اعتقد أنني قد أغيِّر تفكيري مثلاً؟ أم أنه اعتبر من الأفضل تصفية الحساب معي في دورة اجتماعات المنظمة وأنا على هذه الحال؟ على أي حال يستحيل فهم هذه القسوة...

ولم يكن أمامي إلا التهيُّؤ للخروج، ملبياً دعوة الأمين العام، فأخذ الأطباء المتعاونون المطيعون يحقنونني بالمستحضرات المهدئة، وبدأ رأسي يدور ورجلاي ترتجفان، فيما لم أعد أقوى على الكلام إذ انعقد لساني ولم يعد يطاوعني. ولما رأتني زوجتي على هذه الحال راحت ترجوني ألاَّ أخرج وتحوِّل الرجاء إلى إقناع فمطالبة. أما أنا فكنت كآلة مبرمجة بالكاد أجر رجلي محاولاً المشي ولا أكاد أفهم شيئاً

ممّا يدور حولي. وركبت السيارة متوجهاً إلى مقر اللجنة المركزية.

ولم تتحمّل زوجتي التي أصابها الذهـول، فانفجـرت بوجـه رئيس إدارة الـ «كي. جي. بي» التاسعة بليخـانوف قـائلة: إن هذه سـاديّة، كيف تجرّأتم على إطـلاق مريض وهـو تحت رعايتكم، والمفـروض أن تحمـوه، والآن يمكن أن تقتلوه بتصرفكم الجبان هـذا... وبالـطبع لم يكن لديه جواب يرد به، وماذا يستطيع أن يقـول وهو مجـرد برغي في النظام الذي يستمـر في أداء وظيفته «بـامتياز»: يجب حمـاية يلتسـين، إذن سنحميـه، يجب إحضاره، ولـو كان مـريضـاً، إذن نحضره... دون أي تفكـير. بل أعتقـد أنهم لن يتورّعـوا عن إحضاري حتى من القبر، لو لزم الأمر، إلى أي اجتماع أو دورة أو مؤتمر.. المطلوب فقط تنفيذ المهمة.

وبحالتي التي وصفتها أحضرت إلى المكتب السياسي ولم أكن عملياً أفهم شيئاً. وبالحالة نفسها أُخذت إلى اجتماع منظمة موسكو الكامـل حيث كـان جميـع الأعضـاء بـانتـظاري. كـان المسؤولـون الحـزبيـون الرئيسيون يجلسون في أماكنهم على منصة هيئة الرئاسة، والأعضـاء في الصالة يرمقونهم بأدب وطاعة.

مـاذا يمكن أن نطلق من تسميـة عنـدمـا يُعْمَدُ إلى قتـل الإنسـان بالكلمات؟ كان ذلك شبيهاً فعلاً بعملية قتل حقيقية... لقد كان من الممكن أن أُعفى بكـل بسـاطـة في الـدورة الأولى، ولكن لا، يجب التمتّع بعملية الخيانة حـين يبدأ الـرفاق الـذين عملت معهم جنباً إلى جنب لسنتين، بقول الأكاذيب والزور والإهانات التي لا أستطيع حتى الآن فهمها. ولو لم أكن آنـذاك تحت تأثـير المخدرات التي حقنت بهـا تصدّيتُ لكل واحد تفوه بحقي زوراً وبهتاناً ولكشفت له شره وحقده لمنزرعين فيـه! إنني أُخطّىء الأطبـاء وأحمّلهم مسؤولية إحضـاري إلى

هنا من جهة، ومن جهة ثانية أشكرهم على إنقاذ حياتي آنذاك، لأنهم حقنوني بتلك المهدئات التخديرية بحيث لم أعد عملياً قادراً على تمييز أو استيعاب أي شيء. . . فيما بعد لطالما عدت إلى محاضر هذه الدورة محاولاً فهم الدافع الذي كان يحفز الأشخاص على اعتلاء المنبر للكلام. . . ولماذا باعوا ضمائرهم وتهافتوا علي تنفيذاً لتعليمات الطليع الرئيسي؛ الصيّاد الأول: هاتوه (وبالروسية «آتو»، وهو نداء لتحريض كلاب الصيد على اللحاق بالطريدة - المترجم)، أجل هاتوه. . كان سرباً من كلاب الصيد على أتم الاستعداد لتقطيعي إرباً. . لا أستطيع استعمال وصف آخر. . .

كانت الحجج ضئيلة جداً، ولذا فقد كان ما قيل إما ديماغوجية أو زوراً أو أوهاماً أو كذباً عادياً. بعض الذين انقضوا علي فعلوا ذلك رعباً: المطلوب مطاردته، لا مهرب، إذن فلنطارده؛ وبعضهم نشأ لديهم شعور غريب: وقعت. . . كنت مسؤولاً ولم أكن أجرؤ حتى على لمسك، أما الآن. . . ! كل ذلك توحّد في كتلة واحدة ونجم شيء ما رهيب لاإنساني.

هكذا خُلِعْت. . . وطبعاً خلعت «وفق رغبتي» وسط احتفال ملؤه الضجيج والقعقعة والصراخ، ما تزال أصداؤها تضجُّ في كياني حتى الآن. وقد نشرت مواد الدورة كلها في صحيفة «موسكوفسكايا پراڤدا». ذلك أنني عندما توليت قيادة المنظمة طالبت الصحيفة بنشر كل مواد الاجتماعات من تقارير ومداخلات وكلمات وتوصيات بالكامل دون أدنى تصحيح أو تزويق أو تلخيص، وهو أمر لم تتجرأ حتى اللجنة المركزية للحزب أن تعتمده أو تقرُّه لخوفها من النتائج. . وإذن، أضحيت ضحية مبادرتي الشخصية. . أقول هذا على سبيل المزاح. . بل إنني أعتقد العكس تماماً، فالحقيقة والمكاشفة

لا يمكن أن تكونا ضارتين بالمطلق. وقد شكّلت المواد المنشورة في الصحيفة المذكورة بالنسبة إلى الناس غير المتحاملين ضربة قاسية، إذ بيَّنت بوضوح مدى التملُّق والمصانعة والخوف - بل الرعب - التي تفتك بالقيادة الحزبية العليا.

بعد الاجتماع عدت ثانية إلى المستشفى، إلا أنني أبللت قبل انعقاد دورة اجتماعات شباط (فبراير) التي كانت بالنسبة إلي الضربة الرابعة. واقترح فيها غورباتشوف إخراجي من عداد المرشحين لعضوية المكتب السياسي.

تكلم غورباتشوف بحذر عن التقاعد، واقترحت علي مجموعة الأطباء فوراً التفكير في الأمر. وبعد أن تشاورت مع زوجتي قلت بادىء الأمر: فلننتظر حتى أخرج من المستشفى ونعود إلى هذا الحديث. ولكني فكرت، بل وأمعنت في التفكير وتوصلت إلى الجواب: لا. التقاعد لن يكون بالنسبة لي سوى موت أكيد. لن أستطيع البقاء في البيت الريفي أزرع الفجل وغيره من الخضراوات. إنني بحاجة إلى الناس، ودون عمل سأضيع. وقلت للأطباء إنني غير موافق على التقاعد.

ولم يمض وقت قصير حتى اتصل غورباتشوف مرة ثانية بي في المستشفى مقترحاً علي العمل نائباً أول لرئيس البناء الحكومي ووزيراً في حكومة الاتحاد السوفياتي. وكان الأمر آنذاك بالنسبة إلي سيان. فوافقت دون أن أفكر ولو ثانية واحدة. ولكنه أضاف: «لن أدعك تعمل في السياسة».

غالباً ما يطرحون علي سؤالاً أصبحت أطرحه أيضاً على نفسي: لماذا لم يرد أن يصفي معي الحساب حتى النهاية؟ فعلى وجه العموم

كان الوضع عندنا دائماً ينجح في ما يتعلق بالخصوم السياسيين. كان من الممكن أن أُحال إلى التقاعد أو أُبعث سفيراً إلى بلد ناءٍ. أما غورباتشوف فقد أبقاني في موسكو ومنحني منصباً رفيعاً نسبياً، وجوهر الأمر أنني معارض مُنَحَّى عن السلطة.

في اعتقادي أنه لو لم يكن لدى غورباتشوف يلتسين لكان عليه أن يوجده. فبغض النظر عن علاقته السلبية بي التي نشأت في الفترة الأخيرة، فإنه كان يدرك ضرورة وجود شخص إلى جانبه يتمتع بالحدة والقدرة على إزعاج الجهاز البيروقراطي والحؤول دون أن يعيش الهدوء والسكينة. ففي هذه المسرحية الحية ـ كما في أي مسرحية جيدة ـ وُزِّعت الأدوار كما يلي: ليغاتشيف ـ المحافظ، الشخصية السلبية؛ ويلتسين الفزّاعة ذو الميول اليسارية، ثم هناك الحكيم المدرك كل شيء البطل الرئيسي غورباتشوف نفسه. ويبدو أن هذا ما كان يتراءى له.

وفضلاً عن ذلك، أعتقد أنه خشي ردة فعل الرأي العام الجبار في حال أحالني على التقاعد أو بعثني سفيراً إلى مكان بعيد. ففي تلك الفترة انهمرت الرسائل من كل حدب وصوب على اللجنة المركزية وصحيفة البرافدا والصحف والمجلات المركزية الأخرى، تستنكر القرارات الصادرة بحقي عن دورة اللجنة المركزية. وهذا أمر كان يجب الاحتياط له.

وكان ينبغي علي أن أخرج من الأزمة التي غرقت في وحولها. ونظرت حولي فلم أر أحداً.. كأنما تشكَّل فراغ تام.. فراغ إنساني. غريبة هي الحياة.. أنا الذي عملت طوال حياتي مع الناس، والآن لا أحد. وبوجه عام فأنا أعشق الجماعة.. ولطالما كنت منجذباً إلى الناس وليس إلى الوحدة. وعندما يخونك عشرة، واحد إثر واحد،

تأتي العشرة الثانية من أولئك الـذين عملت معهم ووثقت بهم، ليبدأ بـالظهـور شعور غـريب بالقضـاء المحتوم. أيمكن أنَّ هـذا من سمات العصر المميَّـزة؟ أيمكن أن مجتمعنا قسـا قلبه، عقب كـل هذه العقـود السوداء، حتى امتنع الناس عن أن يكونوا أخياراً. كأنما رُسمت دائرة حولي لا يعبر خـطها أحـد خشية أن يتلوث. . كـأنني مجذوم، مجـذوم بالنسبة إلى كل من يرتجف خوفاً على مصيره ومستقبله. . ولـذلك كنت بالنسبة إلى الناس العاديين ـ وكم كان ذلك محزنـاً ـ ودائماً لسبب مـا غير مفهوم. . ممَّ يخافون؟

أجـل، كثيرون أداروا رؤوسهم، بينهم المؤقتُـون ـ أولئـك الـذين جهدوا دائماً ليظهروا لي صداقاتهم ورفاقيتهم ـ وهم في الواقـع ليسوا سوى طفيليين التصقـوا بي لحاجتهم إلي بـوصفي مسؤولاً عن منظمـة موسكو الحزبية. . ليس أكثر.

وخلال اجتماعـات اللجنة المـركزيـة وأثناء غـيرها من المنـاسبات لم يكن ثمة مهرب أمام قادتنـا إلا أن يحيوني ولكن بحـذر معين بـإشارة من رؤوسهم عـلامة عـلى أنني حي طبعاً اسميـاً، أما سيـاسياً فلست سوى جثة.

وكـان ينتابني أيضـاً إحسـاس غـامض حيـال انعـدام الاتصـالات الهـاتفية من قبـل أولئك الـذين لم تكن اتصالاتهم تتـوقف. . وفجـأة صمت قاتل. غريب أمرهم. . . كثيـراً ما سـاءلت نفسي مـاذا كنـت سـأفعل لـو وجدت نفسي مكـانهم؟ كنت واثقاً بشكـل مطلق إنني لن أقاطع أبداً إنساناً أصابتـه كارثـة. . لأن ذلك ينـاقض أبسط المبادىء الإنسانية.

من الصعب عـلي أن أصف الحالـة التي أغـرقتني في لُجَّتهـا. فقـد

بدأت أعاني صراعاً مع نفسي وأحلل كل تصرف وكل كلمة وكل مبادئي وكل آرائي المتصلة بالماضي والحاضر والمستقبل. كما وبدأت أيضاً بتحليل علاقاتي بالناس وحتى بعائلتي... تحليل دائم في الليل والنهار. أداعب النوم ثلاث ساعات أو أربع، وبعدها تتسلل الأفكار نفسها ويعود الصراع والتحليل.

في مثل هذه الأحوال يجد كثيرون ملجأهم في الله، فيما يعمد آخرون إلى معاقرة الخمرة.. أما أنا فلم ألتجىء إلى ذاك ولم أعاقر هذه. بقيت عندي الثقة بالناس قائمة، ولكنها كانت ثقة من نوع آخر.. ثقة بالأصدقاء فقط، أما تلك الساذجة فقد اختفت مرة واحدة.

لقد مرَّرت، عبر نفسي، مئات من الناس، أصدقاء ورفاقاً وجيراناً وموظفين عملوا معي، كما مرَّرت علاقاتي بالزوجة والأبناء والأحفاد وثقتي بنفسي، فماذا بقي لدي هناك، حيث القلب؟ كل ما بقي تحوَّل جمراً ملتهباً، فكل شيء حولي وفيَّ كان ملتهباً...

أجل.. كان ذاك وقت معركة قاسية.. معركة مع الذات. وأدركت أنني إذا خسرتها فسأكون خاسراً مدى الحياة، ولذلك كان توتري شديداً ووهني عظيماً.

كانت آلام الصداع تعذّبني فتجيئني كل ليلة تقريباً. وكثيراً ما استدعينا الإسعاف لأُعطى حقنة مسكنة يسري مفعولها فترة ليعود كل شيء مجدداً كما كان. وكنت بالطبع ألقى الدعم من عائلتي قدر ما استطاعت بذله. فكم من ليالي مسهدة قضتها نايينا وابنتاي لينا وتانيا.. وكنت عندما يبدأ الصراع مستعداً لأكسر رأسي بالجدار وأحبس الآلام حتى لا أصرخ. كان ذلك عذاباً جهنمياً.. وكثيراً ما كان يفرغ صبري فأفكر أن النهاية أصبحت موشكة.

كنت أثق ببعض الأطباء كيوري ألكسييڤيتش كوزنتسوف وأناتولي ميخائيلوڤيتش غريغوريف وغيرهما. . إذ كانوا يطمئنونني أن هذه حالة مؤقتة وسأتخطاها، وهي ناجمة عن إجهاد نفسي وتوتر عصبي سرعان ما سيعالجهما الزمن. ولكن رأسي لم يكن يهدأ. . كان يعمل ليل نهار. ولم تعد أعصابي تتحمَّل فأفلت مني، بعض الوقت، زمام الأمور، الأمر الذي انعكس على العائلة. وعندما كانت نوبات الهدوء تهل كنت أشعر بالخجل والندم. لقد تحملت عائلتي الكثير آنذاك، ومع ذلك فقد غفرت كل شيء. كانت زوجتي وابنتاي تحاولن تهدئتي لأنصرف عن التفكير. لله، كما تحمَّلن مني، وإني لشاكر لهن حسن المعاملة والمساعدة على إنقاذي من وَهْدة الروح والعذاب.

فيما بعد، سمعت كلاماً على أفكار تدور حول الانتحار. . ولا أعلم مدى صحته، ولكن الوضع الذي عشته كان يدفع بي دون ريب إلى مخارج الخلاص. . إلا أنني لست كذلك. شخصيتي ليست شخصية من يستسلم. . لا لم أكن لأنتحر مطلقاً.

أجل، حياة منفي. . ومع ذلك لم تكن حياة في جزيرة نائية. . بل قل هي أقرب إلى شبه جزيرة متصلة باليابسة بطريق ضيقة صغيرة. . هي تلك القلة القليلة من الناس المقربين والأصدقاء والكثرة الكاثرة من سكان موسكو وسڤيردلوڤسك، بل وحتى مواطنين في جميع أنحاء البلاد. . فهؤلاء جميعاً لم يخافوا الاتصال بي رغم أنوف النافين.

وهكذا، أصبحت أخرج للتنزه في الشوارع أكثر كأحد سكان موسكو العاديين، بعد أن كنت نسيت في حومة العمل وفي غمرة الحراس والمرافقين كيف تكون النزهات. . وأهم شيء أنها دون حراسة. . كانت تلك حالة رائعة، ولعلها السعادة الوحيدة في أيام المحنة السوداء. وكنت ألتقي دائماً بوجوه الناس تفتر عن الابتسام في

الشارع والمخزن والسينما مرحبة ومحيية. . كان ذلك يخفّف عني وطأة النكران، فها هم أناس عابرون يعترفون بالجميل بعكس بعض من سُمُّوا أصدقاء.

كنت أُذكَّر دائماً بأنني منفيٌّ وفي كل مكان، رغم أنني عملت وقتذاك وزيراً للبناء في حكومة الاتحاد السوفياتي، ولا شك أن اتخاذ القرارات، والحالة هذه، كان مهمة شاقة.

أي كابوس هيمن علي خلال سنة ونصف. . . أي عمل لم يعجبني ولم أرتح له، رغم أنه من اختصاصي. ولكن يبدو أنني أُخذت بالعمل السياسي والحزبي حتى ابتلعني كلياً لما فيه من تعامل مباشر مع الناس.

وكانت الصحافة الغربية تبدي اهتماماً مستمراً باسمي، وكثيراً ما كان الصحفيون يقصدونني لإجراء المقابلات طلباً للحقيقة. ذلك لأنني لم أرد إخفاء شيء أو التعتيم عليه إبان لقاءاتي بهم. كم من العقود مرت مفعمة بروح العداء للصحافة الغربية كنا فيها نُقنع أنها مخادعة كاذبة تفعل أي شيء بوسعها حتى تكتب زوراً وبهتاناً. أما في الواقع، فإن ممثلي الصحافة الغربية الجادة يتميَّزون بالأهلية والمهنية العميقة وبمراعاة الخلقية والآداب الصحافية. . وأنا لا أتحدث هنا عن الصحافة «الصفراء» التي قُدِّر لي ـ ويا للأسف ـ أن ألتقيها أيضاً.

بهدوء، وبمقاربة فلسفية، قدَّرت موقف صحافتنا المتجاهل، وكنت أعرف أنه لا ذنب للصحافيين في ذلك. لا بل لاحظت كيف أن بعض المحررين كانوا يحاولون تمرير بعض المواد التي تتضمن اسمي إو إشارة إليه، وذلك بطريقة لا تثير حفيظة رؤسائهم. . وحتى هذه المواد الضئيلة كانت تسترعي الانتباه قبل النشر فتنزع، مما كان يسبب

أضراراً جدية لمن حاول تمريرها. أما المواد التي كانت تنشر فمليئة بالحقد والظلم.

وأما العلاقات مع المثقفين فقد كانت شائكة ومعقدة، ذلك أن أحداً ما أطلق على ما يبدو أسطورة مفادها أنني ذو شخصية طابعها ستاليني، وهذا مغاير للواقع والحقيقة على وجه الإطلاق، على الأقل لأنني في داخلي وبكل كياني ضد كل ما حدث في تلك السنوات.. فأنا لا أنسى أبداً كيف قُبض على والدي ليلاً، وكان عمري آنذاك ست سنوات.

إلا أن المثقفين أنفسهم لم يسيروا في ركاب الجهاز ومدوا لي يد التضامن. من هؤلاء إيرينا أرخيپوڤا وكاترينا شيڤيليوڤا وكيريل لاڤروڤ ومارك زاخاروڤ وغيرهم كثير من الكتاب والفنانين الذين كانوا يتصلون بي مهنئين بالأعياد، ويبعثون بالرسائل ويزورونني ويدعونني إلى المسارح والحفلات الفنية. ولا أنسى على سبيل المثال تلك البرقيات المرحة الطيبة التي كان يبعثها كاتب أدب الأطفال، مبتدع شخصية «تشيبوراشكا» الحيوان اللطيف المحبب لدى الأطفال، إدوارد أوسپينسكي. تلك اللفتات جميعها عزيزة علي جداً.

وهكذا، بصعوبة كبيرة وبجهد جبار انتصرت على نفسي. كان ينبعث فيَّ شيء ما شهراً إثر شهر، وتوقف الصداع عن تعذيبي وبتُّ أغفو قريراً.

أما الأوفياء حتى النهاية، المخلصون حتى النخاع، الذين لم يتوانوا عن إسداء العون والمساعدة في أحلك اللحظات، فهم زملاء الدراسة.. وإني لأحس تجاههم بشكر لا ينتهي، إنهم ما يزالون يكابدون حتى الآن، كوني ما أزال أخوض صراعاً بلا نهاية.

وبالتدريج اعتدت الحياة مجدَّداً وانغمست في عمل الوزارة، فتبيَّن لي أنني لم أضع مهارتي وخبرتي المهنية الفنية فكنت على معرفة واضحة بمسائل البناء المطروحة، ومع ذلك فقد كنت أخشى أنني تخلَّفت عن الركب بعض الشيء.

ولم يجمعني مع غورباتشوف أي لقاء أو حديث.. بل لعلها مرة واحدة اصطدمت به أثناء استراحة بين جلستي اجتماع للجنة المركزية. كان يسير في الرواق وأنا واقف جانباً بحيث لا يمكن أن يمر بي دون أن يراني، فتوقف واستدار نحوي وخطا وهو يقول: «مرحى، بوريس نيقولاييفيتش». فقررت بدوري رد التحية باللهجة نفسها: «مرحى، ميخائيل سرغييفيتش». أما بقية الحديث فيجب ربطه بما جرى قبل بضعة أيام بالتحديد.

بغضِّ النظر عن النقمة والعقوبة، وهما في واقع الأمر نفي سياسي، فقد دُعيت مرة إلى مدرسة الكومسومول (الشبيبة الشيوعية) العليا لإلقاء المحاضرات أمام الشبان والشابات. ولم تكن دعوتي بالأمر السهل عليهم، إلا أن سكرتير منظمة الكومسومول في المدرسة يوري رايتانوف كان صاحب المبادرة مدعوماً من الملتحقين، وأكثريتهم من الشيوعيين الشباب الناضجين ذوي الذكاء والحيوية.

في البداية، ذهب رايتانوف إلى رئيس المدرسة، فما كان هذا الأخير إلا أن لوَّح بيديه: «هل جننت؟ أندعو يلتسين؟!». ولكن «يورا» أصر واحتكم إلى لجنة الحزب التي تزعمها رجل تميَّز بالتقدمية أكثر من رئيس المدرسة فقال: «دعونا نطرح المسألة في اجتماع اللجنة». وقررت اللجنة دعوتي، حيث اضطر الرئيس إلى التصويت إيجاباً لما أحس بالجو يؤيد الاقتراح فخشي إن عارض أن يصبح العمل ضمن المجموعة شاقاً. واتصل بي الطلاب هاتفياً فحدَّدنا يوم اللقاء

وساعته. وبالطبع شاع النبأ أول ما شاع في اللجنة المركزية لاتحاد الشبيبة الشيوعية، إذ علمت أن سكرتيرها الأول ف. ميرونينكو زار المدرسة مرتين في محاولة للحؤول دون دعوتي، ولكن الشباب أنفذوا رأيهم. وأدركت أن اللقاء سيكون حاداً جداً، وهو ما حدث بالفعل. بداية ألقيت كلمة كانت عبارة عن جولة أفق طرحت فيها رؤيتي إلى بعض المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما تحدثت فيها عن العمليات الجارية في الحزب. وهكذا، حدَّدت مداخلتي فوراً حدة الأسئلة والأجوبة. كان مبدأي، وما زال، إن أجيب على أكثر الأسئلة إحراجاً. وبدأت تردني أسئلة حادة معقدة، وأحياناً مثيرة للغضب... وكان بينها تساؤلات ذات طابع شخصي تتناولني وتتناول غورباتشوف وأعضاء آخرين في المكتب السياسي وأمانة اللجنة المركزية.. وقد أجبت عليها كلها. كان ثمة السؤال التالي: «ما هي نواقص الرفيق غورباتشوف؟». سؤال لم يكن ليُطرح مطلقاً في السنوات الخالية.

واستغرق اللقاء حوالى خمس ساعات وقفتها وراء المنبر. كانت ردود فعل المستمعين عاصفة، وقد نشرت مقتطفات من اللقاء في جريدة المدرسة، طبعاً بشكل مقتضب ولكنه حاد بل أكثرة حدة مما سمحت به المكاشفة التي كان يُعمل بها آنذاك في الصحافة عموماً. وبديهي أن حديث الخمس ساعات قد سُجِّل لمن يريد الاستماع إليه...

وهكذا، سألني غورباتشوف في الرواق بعد تبادلنا التحيات: «هل التقيت الكومسموليِّين؟». أجبته: «أجل، كان لقاء عاصفاً ومثيراً». «ولكنك انتقدتنا هناك، وقلت إننا لا نولي الكومسومول اهتماماً كافياً؟..». رددت بالقول: «ليس دقيقاً ما نقل إليكم. أنا لم أقل

«غير كاف»، بل قلت «اهتماماً سيئاً».

وظل واقفاً، بدا أنه لم يعثر على جواب يرد به. ومشينا معاً خطوات إلى الأمام.. قلت إنه لربما يجب أن نلتقي، فقد تبرز مسائل للنقاش.. فقال: «نعم، يمكن». وكان هذا كل شيء. واعتبرت أن الكرة بين يديه وعليه أن يبادر. وانتهى الحوار القصير.

ومرت سنة ونصف لم نلتق فيها أو نتبادل كلمة واحدة.

ومع ذلك أحسست أن الجليد تحرَّك. كانت محنتي تخطو نحو نهايتها، ليبدأ زمن جديد، زمن غير عادي لم يخطر على بال، وحانت اللحظة التي ينبغي علي أن أجد فيها نفسي.

يوميات الانتخاب

٢٦ آذار (مارس) ١٩٨٩

الأحد. اليوم الأخير. أشعر بالقلق يساور كل أفراد عائلتي.. وينتقل إلي بطريق ما.. ولم يكن يشعر بحالتي أحد إلا زوجتي وابنتاي. وحانت مني التفاتة عبر النافذة فاعتراني كابوس إذ رأيت مجموعة من المصورين والمراسلين ترابط عند مدخل البناء.. كان أولئك مراسلي شركات التلفزة الغربية. فبمرور الأشهر القليلة الماضية أضحى تجاورهم ظاهرة عادية مألوفة لدي.. كأنهم أعواني في حملتي الانتخابية. وفي الأيام الأخيرة أخفقت في أن أخطو خطوة واحدة هرباً من المراسلين الصحفيين.. كان هذا أمراً مستحيلاً، وبالطبع كنت أفهم أن هذا هو عملهم، مهنتهم، ولكن أقول بإخلاص إن الملاحقة شكّلت ضغطاً لا يطاق.

وتقبلت المسألة، سيكون هنا اليوم هرج ومرج صحفيان عظيمان. وستعرف زوجتي وابنتاي ماذا يعني كل ذلك، وأعتقد أنه سيثير لديهنَّ انطباعاً ثقيلاً.

وهانحنذا نحضر أنفسنا ونلبس ثياباً احتفالية، أوَليست الانتخابات عيداً شعبياً. خرجنا من البناية. وانقضّت علينا جمهرة المراسلين الغربيين، وبالكاد رأيت مراسلاً صحفياً سوفياتياً. ولا

أدري لماذا يصوِّرون موكبنا العائلي من البيت وصولاً إلى قصر الطلائع في منطقة فرونزه، المعتمد مركزاً انتخابياً. ولم أفهم تماماً، بصراحة، لماذا يسجلون هذه اللقطات «التاريخية».. يلحقون بنا، يتراكضون، يلتقطون الصور والأفلام من خلف ومن أمام.

أما أمام قصر الطلائع فقد كان المشهد مخيفاً.. كان ثمة أكثر من مائة مصور ومراسل عدد هائل من الكاميرات والأضواء والميكروفونات.. وأحاطتني مجموعة من المراسلين يقذفون أسئلة بكل اللغات يتصايحون ويصرخون. وأحاول جاهداً عبور الجمهرة لأطمئن على عائلتي التي سبقتني... ها هم ما زالوا صامدين وقد أنهكت قواهم... صعدنا إلى الدور الثاني للتسجيل والحصول على ورقة الاقتراع.

واقتربت من الصندوق فواجهتني عشرات العدسات.. ثم فجأة ضحكت في سري إذ تذكرت ألوف الصور المماثلة تتراءى لي من الماضي القريب حين كان الزعيم الهرم يتقدم بجلال وعظمة من صندوق الاقتراع. كان واضحاً أن عيد الانتخاب يعجبه، خصوصاً أن صورته ستصدر في صحف اليوم التالي على الصفحة الأولى وقد كتب تحتها: «أمين عام الحزب الشيوعي السوفياتي، رئيس مجلس السوفيات الأعلى الرفيق ل. إ. بريجنيف يقترع...».

وعندما سُدِّدت نحوي عدسات كاميرات التصوير الفوتوغرافي والتلفزيوني والسينمائي أحسست كم سيكون الوضع محرجاً تمتمت قائلاً: «لن يمشي الحال.. إن هذا من مظاهر عهد الركود»، وأسقطت الورقة في الصندوق بسرعة وهرعت نحو الباب. وأعتقد أن أحداً لم يفلح في تصويري لحظة اقتراعي الاحتفالية. كان المصورون يتدافعون، فأشفقت على أعضاء لجنة الانتخابات في هذا المركز لما

تسبب بـه مجيئي، وحـاولت الإسراع بـالخـروج قـدر استـطاعتي حتى أخرج معي هذه الجمهرة الصحفية الهادرة.

وبقيت حوالى نصف ساعـة مطوَّقـاً لا أستطيـع اختراق الحصـار، فـوقفت أجيب عـلى الأسئلة المتعلقـة بـالانتخـابـات وفـرص النجـاح والماضي والحاضر. . . وأخيراً تمكّنت من الإفلات مـع عائلتي فـاتجهنا إلى بيت ابنتي الكبرى القريب والجميع يلحقون بنا. توارينـا في الشقة لنلتقط أنفاسنا بهدوء والتمعُّن في ما يجـري اليوم من أحـداث مهمة. إنـه يوم مصـيري. . ففيه ستحـدد نتائـج الصراع بيني وبين منـافسي والجهاز.

كان أعواني الانتخابيون المخلصون منتشرين في كل مراكز الاقتراع أولاً لمـراقبة عـدم حدوث أي تـزويـر ممكن (وكنت أثق أن أحـداً لن يتجرأ على القيام بأي تـزوير)، وثـانياً لإبـلاغي بالنتـائج الأوليـة أولاً بأول.

كان قلقنا واهتمامنا ينصبـان على كـل رقم، بل عـلى كل صـوت، ذلك أننا علمنا بالقـرار المفاجىء، الـذي اتخذ، وهـو إلحاق أصـوات كـل العاملين السـوفيـات في الخـارج ـ ٢٩ بلداً ـ بـدائـرة مـوسكـو الانتخابية الكبرى. لعل هذا الإجراء كـان المحاولـة الأخيرة من قبـل الجهاز للتأثير على نتائج الانتخابات. وكـان معروفـاً لدى الجميـع أن هذه الأصوات لن تكون سارة. . ففي السفارات سيصوت الجميـع، الـطائعون، على النحو الـذي سيفعله السفراء. لا علينـا، كـان ذلك خارج البلاد، وينبغي أن نركز جهـودنا في الـداخل، هنـا في موسكـو كي تأتي النتائج لصالحنا مهما كان أمر أصوات الخارج مؤسفاً.

عندما يئس الصحـافيون المتجمهـرون أمام بيت ابنتي الكـبرى من

الانتظار، انفرط عقدهم وتفرقوا، فصار بإمكاننا الخروج والتنزه في شوارع المدينة.. أي نزهة بديعة كانت اليوم.. الناس يمرون بنا يحيون ويبتسمون ويتمنون الفوز.

جاء المساء وصدرت النتائج الأولية.. كان تفوقي واضحاً في كل مراكز الدائرة..

بوريس نيقولاييفيتش! أنت تحظى بتأييد في كل أنحاء البلاد، ومع ذلك فمن الغريب أن تنتخب مندوباً عن كيريليا إلى الكونفرنس الحزبي. لماذا لم تنتخب في موسكو أو سفيردلوفسك؟

أخبرنا من فضلك، لماذا لم يدعمك غورباتشوف في الكونفرنس؟

هل تذكر تشيكيريف؟ عمَّن كان يدافع عندما دقَّ على صدره؟

ألم تكن تفضل توجيه النقد إلى عبادة الفرد، التي ميَّزت تصرفات الأمين العام، في الاحتفال بذكر ثورة أوكتوبر السبعين وليس في المؤتمر الحزبي التاسع عشر؟ ألم يخنك حِسُّ اللحظة السياسية؟

(من الأسئلة التي وجَّهها الموسكوفيون أثناء اللقاءات والاجتماعات الانتخابية)

استعد الجميع للكونفرنس الحزبي التاسع عشر: القيادة وجهاز اللجنة المركزية، حيث توقع المجتمع ككل والحزب حدوث أمور مهمة فيه. ويمكن القول الآن إن الكونفرنس استطاع أن يدفع تطور

المجتمع نحو الأمام، غير أنه لم يستطع أن يتحوَّل لحظة انعطاف تاريخي في حياة البلاد، كما كان متوقعاً. ذلك أن بعض قراراته جاءت أكثر محافظة من وضع المجتمع آنذاك. وعلى سبيل المثال فإن اقتراحاً يهدف إلى دمج وظائف القادة الحزبيين والسوفيات بعضها مع بعض ـ ابتداء من الأمين العام وانتهاء بأمناء منظمات المناطق ـ كان بالنسبة إلى المواطنين مثل قصف الرعد في سماء صافية. حتى أن ستالين، على ما أذكر، لم يسمح لنفسه بدمج هاتين الوظيفتين... وكان أن الناس عارضت الاقتراح بقوة في حين انصاع مندوبو الكونفرنس واتخذوا توصية في هذا الصدد.

وكما ذكرت جرى التحضير للكونفرنس على قدم وساق، وجاء انتقاء المندوبين دقيقاً وحذراً فوق العادة وفق تعليمات صادرة عن اللجنة المركزية. وقد ساهم رازوموف نائب رئيس قسم التنظيم في اللجنة المركزية بنشاط في تنظيم عملية الانتخابات التزويرية. فقد كانت كل مسائل التنظيم والكوادر عملياً بين يديه، ولهذا السبب تجلَّت الذاتية والإبعاد والانحياز والكراهية والحمائية كمعايير لعملية الانتقاء بصورة تامة.

آنذاك كنت أعيش حالة النفي وأعمل في وزارة البناء، وبالتالي لم يكن لدى قيادة الحزب والسلطات، بالطبع، أي نية في رؤيتي أعود مجدداً إلى الحياة السياسية. أما أنا، فقد كنت أشعر بالقوة والرغبة للشروع عملياً من جديد في النشاط، حيث إن مبادئي لم تكن لتسمح لي بالخروج من ساحة الصراع السياسي.

حينذاك، أيضاً، كان التعتيم ما يزال يجلِّل مداخلتي التي ألقيتها في دورة اللجنة المركزية المنعقدة في تشرين أول (أوكتوبر)، ولم يكن الشعب يعرف عنها شيئاً.

وبدأت المنظمات الحزبية المنتشرة في أنحاء البلاد ترشحني لأكون مندوباً إلى الكونفرنس، فكانت مهمة الجهاز الأولى الحؤول دون ذلك. كنت وزيراً، والمنصب كبير بما فيه الكفاية، ولم يكن ثمة شك أن الوزراء سينتخبون مندوبين. ونظرت حولي في منظمات المناطق لأرى الجميع يُنتخبون باستثنائي. ساد صمت كامل، وبالطبع كان ثمة فرصة واقعية ألّا أُنتخب. في البداية لم يخطر ببالي واقعية مثل هذه الفرصة إذ بذل الجهاز جهوداً فائقة حتى لا أصل، ومرَّ بعض الوقت وسرعان ما تبين أنني كنت الوزير الوحيد الذي لم يُنتخب، عندئذٍ أدركت جدية الأمر.

اعتبرت أنه من الضروري أن أكون موجوداً في الكونفرنس الحزبي التاسع عشر، بل ومن الضروري أن أشارك بإلقاء كلمة. ولكن ما العمل وقد نجح الجهاز الحزبي الذي يتحكم بالانتخابات في إبعادي؟ لم أكن أعرف ماذا يجب عمله. ومن ناحية أخرى، لم أعمد إلى الاتصال بالقادة، بغورباتشوف أو أعضاء المكتب السياسي، لمطالبتهم بأي شيء بوصفي عضواً في اللجنة المركزية.. وإن هذا ليس بالتدبير الشريف.

ولم أُخْفِ عن نفسي أن الكونفرنس الحزبي التاسع عشر سيتيح لي الإمكانية لأشرح للناس ماذا حدث في دورة تشرين أول (أوكتوبر) أولاً، ولأخرج من حالة العزلة السياسية والعودة مجدداً للمشاركة ثانية في حياة البلاد الاجتماعية في آخر فرصة. ولقد كنت أعتبر دائماً، وما زلت، أن في مداخلتي إياها لم تتضمَّن خطأ سياسياً ما، ولذا فقد ملأتني الثقة في أن اعتلائي منبر الكونفرنس، متوجهاً إلى مندوبيه وإلى شيوعيي البلاد والناس عموماً سيعيد كل شيء إلى نصابه. ولو حدث ولم أُنتخب لكان ذلك ضربة أكيدة أُمنى بها. ولذا، لم أحاول

حتى التنبؤ بما يجب عمله إذا انعقد الكونفرنس ولم أكن موجوداً فيه كمندوب. ألعلني كنت رحلت عن موسكو؟ أو كنت شاهدت الكونفرنس على شاشة التلفزيون؟ أم كنت طلبت من رازوموف منحي بطاقة دعوة؟... لا، بل إني لا أريد حتى مجرد التفكير في الافتراضات في هذا الشأن. كان يجب أن أكون مندوباً، لم يكن هناك خيار آخر.

وعلت أصوات المؤسسات في سڤيردلوڤسك وموسكو ومجموعات من مدن أخرى، وراحت تتخذ قرارات انتدابي إلى الكونفرنس. ووقف الجهاز حتى الموت، فكان ذلك يحدث على خلفية التقاليد التي كانت متّبعة في أكثر العهود ركوداً، علماً أن الپيريسترويكا قد بلغت من العمر ثلاث سنوات.

أما القاعدة التي اعتمدت فهي التالية: تعمد المنظمات الحزبية إلى اقتراح ترشيح كثرة من الأسماء التي ترسل إلى لجنة المنطقة الحزبية حيث تغربل وترسل بشكلها المستجد إلى لجنة المقاطعة الحزبية فتغربل مجدداً وترسل في النهاية إلى لجنة الإقليم أو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الجمهورية المعنية. وكان يُبقى على الاسم الذي يتصور الجهاز أنه لن يشوش على الكونفرنس وسيكون مطيعاً سواء في الكلام أو في التصويت. وهذا نظام مثالي وذو فاعلية كبرى.. وهكذا يمكن لإسم يلتسين أن يسقط في مراحل الغربلة الأولى قبل بلوغه مستوى القيادات العليا.

وكما سبق وذكرت، أعرب الموسكوڤيون عن فعالية بترشيحي في كثير من المؤسسات دون مستوى لجنة منظمة المدينة، ثم فجأة وعلى مستوى ما يتلاشى اسمي كمرشح. وكان هناك أيضاً العديد من مؤسسات إقليم سڤيردلوڤسك التي اختارتني لأكون مندوباً عنها (أورال

ماش، المصنع الميكانوكهربائي، أورال كيماش، . . .) فاضطرت لجنة الإقليم الحزبية تحت هذا الضغط الكبير إلى اتخاذ قرار بتزكيتي، إلا أن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فهناك بعد اجتماع منظمة الحزب الإقليمية الكامل، حيث اشتعل حريق انفعالات كبير في هذا الصدد.

فعندما هدَّد العمال بإعلان الإضراب، ولم يستطيع الاجتماع الكامل اتخاذ قرار، وشعوراً منه بأن زمام الأمور يفلت من بين يديه وهو يرى التوتر يتصاعد أكثر فأكثر، قرَّر زعماء اللجنة المركزية أن يتراجعوا. . وهكذا تم انتخابي مندوباً في آخر اجتماع حزبي عقد عملياً، وكان في كاريليا، مع اثني عشر مندوباً آخرين.

في تلك الفترة تكوَّنت أوضاع عدة اتسمت بالحدة. رويت آنفاً أن اسمي كان ممنوعاً على الصحافة السوڤياتية نشره، إبان فترة العزل السياسي. . ذلك أن شخصاً اسمه يلتسين لم يكن موجوداً البتة في عرفهم. أما المراسلون الغربيون فغالباً ما كانوا يطلبون إجراء مقابلة أو حديث، وكان بينهم مراسلو ثلاث وكالات أنباء أميركية، كانت «السي. بي. إس» إحداها. كان من الصعب علي أن أفهم لماذا عمد الأميركيون إلى مَنْتَجة إحدى إجاباتي أثناء إذاعة أحد البرامج، الأمر الذي تسبب في حدوث فضيحة كبيرة. فقال غورباتشوف في أحد مؤتمراته الصحفية: سنرى الأمر معه (أي معي)، فإذا نسي ماذا يعني الانضباط الحزبي وأنه ما زال عضو اللجنة المركزية فسنذكره. . شيء ما من هذا القبيل.

إضافة إلى هذه الفضيحة وقع حادث ثان مؤسف بالنسبة إلي. فقبيل انعقاد الكونفرنس اتصل بي فجأة المراقب الصحفي في مجلة «أوغينيوك» ألكسندر رادوف واقترح علي إجراء مقابلة طويلة لنشرها

في المجلة. ورغم أن العرض من قبل مجلة شعبية واسعة الانتشار ـ وأنا من قرائها الدائمين ـ أتى لطيفاً وحمل مخاطرة إجراء المقابلة، إلا أنني رفضت. وقلت للصحافي: «ستتحدث معكم طويلاً، وستحضرون نص المقابلة وتبذلون الجهد، وبعدها سيُمنع نشرها». ولكن رادوف أصر قائلاً إن «أوغينيوك» مجلة قوية، ولن نعرض النص على أحد، فرئيس التحرير ف. كوروتيتش يتحمل مسؤولية كل المواد الحادة، واستمر مصراً حتى وافقت على إجراء الحديث. وبالفعل فقد استغرقنا إعداد المقابلة وقتاً طويلاً، فهي بالنسبة لي أول حديث صحفي أدلي به للصحافة السوفياتية عقب دورة تشرين أول (أوكتوبر)، ولذا، فقد كنت مهتماً كثيراً بها. ومن الطبيعي أن يجيئني رادوف يوماً ليخبرني أن مواد الحديث منعت من النشر في المجلة، إذ قرر كوروتيتش عرضها في اللجنة المركزية حيث طولب بعدم إجازة نشرها.

ولم أتعجب كثيراً مما حدث، إذ كنت مستعداً لتقبُّله بيني وبين نفسي.. ورغم ذلك فقد انزعجت كثيراً بالطبع. فليس أسوأ، من منطلق نفسي، أن يشعر المرء أنه أبكم في بلاده، وغير قادر على مخاطبة الناس وشرح الأمور لهم. ولكن أكثر ما أذهلني في هذه الواقعة أن ف. كوروتيتش راح يقول فجأة في مقابلاته إنه لم يعمد إلى نشر الحديث معي لأنه لم يكن حديثاً جيداً وأنني أجبت على أسئلة غير تلك التي طرحتها المجلة، خصوصاً أنني لم أتكلم على عملي الجديد.. وقال إنه يجب على وجه العموم العمل أكثر على إعداد المقابلة... وباختصار آثر رئيس التحرير أخذ المسؤولية على عاتقه مغطياً طلب قيادة اللجنة المركزية بنفسه. لماذا؟ أيعقل أنه لم يكن يفهم أنه من اللاأخلاقية منع المرء من التعبير عن أفكاره إذا كان معارضاً حتى للأمين العام؟ من إذن ـ إذا لم يكن هو، الصحافي ـ

سيدافع عن مبدأ حرية الكلمة الإنساني؟. ولكنه ارتأى أن يمالىء ويعبث ويختلق عكس ما كان واقعاً. . كان باستطاعته أن يصمت على الأقل وببساطة إذا كان خائفاً على مستقبله. . لكان ذلك أشرف.

على هذه الصورة المتوترة والعصبية دنا موعد انعقاد الكونفرنس. كان كل يوم يحمل أخباراً جديدة. . قليلها سار وأكثرها سيء منكد. . وقتها كنت بدأت أنسى معنى الخبر السار!

انعقد الكونفرنس في قصر المؤتمرات بالكرملين. اعتراني القلق عندما توجهت لحضور جلسة الافتتاح. فبعد ذلك الكم من الإشاعات وبعد «مؤامرة الصمت» الطويلة ظهرت أمام الناس مدركاً مدى التنوع الذي ستكون عليه ردات فعلهم. فثمة أمور كثيرة للفضول جعلتهم يرغبون في ملاحظتي وملاحقتي بالنظرات. . وشعرت بنفسي مثل فيل في حديقة حيوانات. . ومن الأشخاص الذين عرفتهم من أشاح بنظره عني جبناً خشية أن يتلوث من «المجذوم». وشعرت بالغربة، فآثرت البقاء في مكاني وقت الاستراحة. . ومع ذلك وجد بعض الأشخاص الذين اقتربوا مني بهدوء وتبادلوا معي الحديث متسائلين عن أحوالي ومعربين عن تضامنهم بكلمة أو ابتسامة أو نظرة.

كان وفد كاريليا يجلس في مكان بعيد، في أقصى البلكون. ولم يكن بين رؤوسنا وبين السقف سوى مترين، وبالكاد كنا نرى منصة هيئة الرئاسة. واستمرت المداخلات، وكالعادة، متنوعة: مثيرة وجريئة رغم كونها معدَّة سلفاً مختومة أو مهَّربة من تحت أعين الجهاز.

وبالرغم من كل شيء، كان الكونفرنس خطوة كبيرة إلى الأمام. فللمرة الأولى يجري في هيئاتنا الحزبية العمومية تصويت غير إجماعي

على بعض التوصيات والقرارات. وكنت قد هيأت نفسي لألقي مداخلتي على نحو قتالي مضمناً إياها طرح مسألة إعادة الاعتبار السياسي إلي.

فيما بعد، إثر انتهاء الكونفرنس، انهمرت علي الرسائل من كل حدب وصوب تعرب عن الدعم والتضامن، مع أن كثيراً من كاتبيها ألقوا اللوم علي في أمر واحد مشترك هو: «ما بالكم لا تعون أن معظم مندوبي الكونفرنس «منتخبون» بالطريقة إياها؟ فهل يمكن الطلب من أناس كهؤلاء أن يعيدوا لكم الاعتبار السياسي؟». وكتب أحد المهندسين ـ أعتقد أنه من لينينغراد ـ أن «ڤولاند» في رواية بولغاكوف «المعلم ومارغريت» قال: «لا تَرْجُ شيئاً من أحد أبداً...» و«لقد نسيتَ هذه القاعدة المقدسة».

ومع ذلك أعتقد أني كنت محقاً بطرح قضية إعادة الاعتبار السياسي أمام المندوبين. كان من المهم جداً أن أحدد موقفي وأعلن بوضوح أن قرار اجتماع اللجنة المركزية الكامل بإعلان مداخلتي خاطئة سياسياً، كان في حد ذاته خطأ سياسياً ولا بد من الرجوع عنه. ولم تكن لدي أوهام كثيرة، ولكني أملت في إصلاح الخطأ.

في نهاية المطاف أعيد اعتباري من قبل الجماهير. فقد صوَّت لي تسعون بالمائة من الموسكوفيين، وليس ثمة أغلى وأثمن من إعادة اعتبار كهذه... ولم يعد مهماً أن ترجع اللجنة المركزية عن قرارها، فالمهم أن ذلك أصبح أكثر أهمية بالنسبة إلى غورباتشوف نفسه وإلى اللجنة المركزية ككل.

ولكني، بالمناسبة، ركضت إلى الأمام. كان ينبغي المطالبة بحق الكلام والتعبير. وكنت أدرك أنه سيُعمل المستحيل كي لا يسمح لي

باعتلاء المنبر. فمنظِّموا الكونفرنس يعلمون أي مداخلة انتقادية ستكون مداخلتي، وهم لم يودوا سماعها على أي حال.

وهذا ما حدث فعلاً. يوم، يومان، ثلاثة، أربعة، وها هو اليوم الخامس والأخير يكاد يمضي. . وأنا أفكر كل الوقت ماذا يجب عمله حتى أتكلم؟ لائحة طالبي الكلام طويلة، ويمكن دائماً اختيار أسماء أولئك الذين لا خطر منهم إذا تكلَّموا. .

وجهت أول رسالة إلى هيئة الرئاسة مذكراً بدوري في الكلام. . فلم يرد جواب. ووجهت الثانية وكانت النتيجة نفسها. هكذا إذن، لم يبق إلا أن أقتحم المنبر بهجوم، خصوصاً أن رئيس الجلسة أعلن قبل حوالى أربعين دقيقة على الاستراحة أن الكونفرنس سينتقل بعدها إلى التصويت على التوصيات والقرارات. ولما علمت أن اللائحة لا تتضمن اسمي قررت اللجوء إلى الخطوة الهجومية. وتوجهت إلى وفدنا بالقول: «أيها الرفاق ليس أمامي سوى مخرج واحد، يجب أن أحتل المنبر!»، فوافقوني. وهكذا مشيت الطريق الطويلة إلى المنبر هابطاً السلم وعابراً القاعة العظيمة. سرت وأنا أرفع بطاقة الانتداب الحمراء متوجهاً بخطى ثابتة نحو هيئة الرئاسة.

وعندما بلغت منتصف الطريق أدرك الجميع ماذا سيحدث، وحتى الرئاسة فهمت. كان الخطيب من طاجكستان على ما أعتقد وعندما رآني صمت مرة واحدة. وبشكل عام تعلَّق في الهواء صمت ثقيل كالموت. . وأنا أخترقه رافعاً بيدي البطاقة وسائراً نحو الأمام وقد تسمَّرت عيناي في عيني غورباتشوف من بعيد. كنت وأنا أخطو أسمع تنفس خمسة آلاف ونيف من المندوبين وأشعر بعيونهم ترمقني بالنظرات. اقتربت من منصة الرئاسة وصعدت ثلاث درجات ودنوت من غورباتشوف وأنا أرفع البطاقة ناظراً في عينيه وقائلاً بصوت قاس:

«إني أطالب بإعطائي الكلام أو بعرض طلبي على التصويت أمام الكونفرنس جميعاً». مرت لحظات صمت وأنا واقف، وأخيراً نطق: «اجلس في الصف الأول». وجلست في الصف الأول بالقرب من المنبر. ولاحظت أن أعضاء المكتب السياسي بدأوا يتشاورون في ما بينهم، ثم ما لبث أن استدعى غورباتشوف رئيس القسم العام في اللجنة المركزية وراحا يتحادثان ثم ابتعد، وبعد فترة قصيرة رأيت مساعده يتجه نحوي. قال: «بوريس نيقولاييفيتش، هلاّ سمحت بالدخول إلى غرفة هيئة الرئاسة.. إنهم يريدون التحدث معك». قلت: «من يريد التحدث معي؟»، قال: «لا أعرف»، قلت: «لا. هذا الخيار لا يلائمني. سأبقى جالساً هنا»، فابتعد الرجل. وشاهدت رئيسه ـ رئيس القسم العام في اللجنة المركزية ـ يتحادث مجدداً مع هيئة الرئاسة.. وها هي ربما حركة عصبية ثانية. وعاد الرجل نفسه ليقول لي إن أحداً من القادة سيخرج للتحدث معي.

كنت أعلم أنه لا يجوز أن أخرج من الصالة.. فإذا ما أوصدت الأبواب بوجهي فلن تفتح مطلقاً، فقلت: «حسناً، سأذهب، ولكني سأنظر من ذا الذي سيخرج للتحدث معي من هيئة الرئاسة». وأسير على مهل في الممر بين الصفوف فأسمع تمتمات مندوبي الصفوف الأولى تقول: «لا، لا تخرج من الصالة»، وتابعت السير حتى أصبحت على بعد ثلاث أو أربع خطوات من المخرج فتوقفت وجعلت أنظر إلى الرئاسة لأرى من سيخرج. وحيث وقفت كانت تجلس مجموعة من المراسلين أخذت تهتف لي همساً: «بوريس نيقولاييفيتش، لا تخرج!». كنت أعي تماماً أنه ليس من الجائز أن أخرج من الصالة. ولم ينهض أحد من القاعدين على منصة الرئاسة. واستمر الخطيب في إلقاء كلمته. وما لبث أن دنا مني شخص قال لي: إن ميخائيل

سرغييڤيتش قال إنه سيعطيني الكلام، ولكن علي العودة إلى مكاني ضمن وفد كاريليا أولاً. وأدركت أنه فيما سأرجع إلى مكاني بانتظار الإذن والعودة مرة ثانية سيتحول النقاش في اتجاه آخر ولن أُعطى الكلام. أجبت بالرفض وقلت إنني سبق واستأذنت وفدي بطلب الكلام، ولذا فلن أعود إلى مكاني، والمقعد في الصف الأول لا بأس به، فهو يعجبني.. وعدت إلى المكان نفسه بمواجهة غورباتشوف تماماً.

هل كانت لديه النية فعلاً إعطائي الكلام أم أنه حسبها فوجد الخسارة كل الخسارة في عرض الأمر أمام الكونفرنس للتصويت؟ من الصعب القول.. وأخيراً أعلن عن إعطائي الكلام وأنه بعد الاستراحة سينتقل الكونفرنس إلى اتخاذ التوصيات.

اعتليت المنبر فساد صمت ثقيل. وبدأت أتكلّم. وهاكم مداخلتي كما وردت في محضر الكونفرنس النهائي:

«أيها الرفاق المندوبون! يجب بادىء ذي بدء أن أرد على ما طالب به المندوب الرفيق زاغاينوف بصدد بعض المسائل.

المسألة الأولى: لماذا أدليت بأحاديث إلى شبكات التلفزة الغربية وليس إلى الصحافة السوڤياتية؟ أجيب: توجهت إلي «نوڤوستي» فأجريت مقابلة قبل وقت طويل من الإدلاء بأي شيء للوسائل الخارجية، لكنها لم تنشرها في صحيفتها «موسكوڤسكي نوڤوستي».

وعادت ثانية وطلبت مني إجراء مقابلة، ولكن لم يكن ثمة ضمانة في أنها ستنشر. ثم توجّهت إلي هيئة تحرير مجلة «أوغينيوك» بالطلب نفسه فأجريت معي مقابلة على امتداد ساعتين ولكنها لم تنشر رغم مرور شهر ونصف. وبحسب ما أعلنه الرفيق كوروتيتش،

ولعلمكم، لم يُجز نشرها.

المسألة الثانية: لماذا لم أتكلم «بوضوح» في الاجتماع التنظيمي الكامل الذي عقدته منظمة الحزب في العاصمة؟ أجيب: لقد كنت مريضاً بصورة جدية وطريح الفراش وممنوع علي مغادرته. وقبل انعقاد الاجتماع بحوالى الساعتين استدعيت للمشاركة فيه، وحقنني الأطباء بأدوية مهدئة ذات تأثير تخديري. ولذا، فقد كنت أجلس لا أعي شيئاً مما يدور حولي، فكيف كان بإمكاني الكلام؟

تالياً، تردني رسالة من هيئة الإذاعة والتلفزيون العامة تتضمّن تفسيراً ورجاء مفادهما أنه نظراً لانعقاد الكونفرنس فقد كُلِّفت الهيئة بتنسيق المقابلات التي تُعطى لشبكات التلفزة الأجنبية من قبل القادة، وهم يرجونني إجراء بعض المقابلات مع الشبكات المذكورة.

حتى ذلك الوقت تجمع لدي حوالى خمسة عشر طلباً لمقابلات. وقد أخبرت النائب الأول لرئيس هيئة الإذاعة والتلفزيون العامة الرفيق كراڤتشنكو، أنه ليس في استطاعتي إجراء أكثر من مقابلتين أو ثلاث على الأكثر نظراً لضيق الوقت. فجاء الرد من الهيئة هاتفياً أنه تحدَّدت ثلاث مقابلات مع شبكات التلفزة التالية: «بي. بي. سي» و «سي. بي. إس» و «إي. بي. سي». وما حدث أنني عمدت فعلاً إلى إجراء المقابلات الثلاث في مكتبي. كانت الردود على الأسئلة مباشرة، وقد رددت على بعض الأسئلة المغلوطة - التي أمكن أن تحمل ضرراً لدولتنا ولسمعتها - بشكل حازم.

وكانت ثمة أسئلة متعلقة بالرفيق ليغاتشيف. قلت إن لدي وجهة نظر واحدة تتفق مع وجهة نظره في ما يتعلق باستراتيجية الحزب وقرارات المؤتمر ومهمات البيريسترويكا. وقلت أيضاً أن هناك بعض

الاختلافات المتعلقة بتكتيكات البيريسترويكا ومسائل العدالة الاجتماعية وأسلوب العمل. . إلا أنني لم أخض في التفاصيل. وكان أيضاً السؤال التالي: «هل تعتقدون أنه لو كان هناك شخص آخر مكان ليغاتشيف لسارت البيريسترويكا بوتائر أسرع؟» فأجبت بنعم. ولأن كلامي شُوِّه على يد شبكة «سي. ب. إس» الأميركية، فإنها تقدمت بالاعتذار عن هذا الخطأ برسالة تحمل توقيع نائب رئيسها.

فيما بعد، استدعاني الرفيق سولومينتيسيف وطالبني بتوضيح. فأعربت عن انزعاجي من الاستدعاء بسبب هذه المسألة، وأجبت على كل الأسئلة المطروحة شفهياً حول كل ما يتعلق بالمقابلة التلفزيونية. وأخفقت محاولات إدانتي وفق النظام الداخلي للحزب. وأنا أعتبر نفسي غير مخطىء البتة في المسألة المذكورة. وقد زوَّدت الرفيق سولومينتيسيف بشريط تسجيل كامل للمقابلة عبر مترجمنا. ماذا ستفعلون بعد بي لا أعلم، ولكن هذه الظلال تذكرني كثيراً بالعهود البائدة غير البعيدة.

وأنتقل الآن إلى صلب المداخلة.

أيها الرفاق المندوبون! إن الموضوع الرئيسي في هذا الكونفرنس، كما أُريد له أن يكون، هو إشاعة الديموقراطية في الحزب، أخذاً بعين الاعتبار أنها عملية أصيبت بالتشوه وسارت في الاتجاه الأسوأ. ومن المواضيع الساخنة التي ثار النقاش حولها اليوم موضوعا البيريسترويكا والتجديد الثوري للمجتمع. وقد حظيت مرحلة الإعداد للكونفرنس باهتمام فائق وآمال عريضة لدى الشيوعيين وعموم المواطنين السوفيات. لقد هزَّت البيريسترويكا الناس. . وكان يجب، على ما يبدو، أن تبدأ البيريسترويكا من الحزب وبه على وجه التحديد، لتجر بعد ذلك الآخرين جميعاً. إلا أن الحزب قد تخلَّف

من وجهة نظر الپيريسترويكا، وأستخلص إذن أن هذا الكونفرنس كان يجب أن ينعقد منذ زمن بعيد. هذه هي وجهة نظري الشخصية.

ومع، ذلك، جرى التحضير له الآن بنجاح.

وحتى قبيل انعقاده لاحظنا تأخراً، هو أقرب إلى اللحاق بالركب قبل فَوْت الأوان، في نشر الوثائق من قبل جهاز اللجنة المركزية. كما لم تتضمَّن الوثائق الإشارة الأكثر أهمية في ما يتعلق بموضوع النظام السياسي، الأمر الذي انعكس في التقرير الرئيسي. ولم يسهم أكثرية أعضاء اللجنة المركزية في صوغ موضوعاته.

أما بصدد انتخابات المندوبين، فبغضِّ النظر عن محاولات الرفيق رازوموف في صحيفة «پراڤدا» إقناع الجميع بأنها كانت ديموقراطية، إلا أنها في الواقع جرت في عدد من المنظمات وفق الكليشهات القديمة نفسها، مما يثبت أن جهاز القيادة العليا لا يريد السير في عملية الپيريسترويكا.

ولكن النقاش في الكونفرنس مثير، والمهم الآن أي قرارات ستتخذ. هل سترضي القرارات شيوعيي البلاد والمجتمع عموماً؟ وبالحكم على اليوم الأول ساد الجو حرص وحذر شديدان، أما في الأيام التالية فقد تصاعد الحماس شيئاً فشيئاً، بحيث أصبح من الشيق الاستماع إلى المندوبين، آمل أن ينعكس هذا في القرارات التي ستتخذ.

أودُّ الإدلاء ببعض الملاحظات والاقتراحات المتعلقة بموضوعات اللجنة المركزية مع الأخذ بعين الاعتبار خطاب الرفيق غورباتشوف.

في صدد النظام السياسي. أعتقد هنا أن الأمر الرئيسي يجب أن

يكون اعتماد آلية في الحزب والمجتمع تقف حائلاً دون الوقوع في أي أخطاء، وتخطي أخطاء العهد البائد القريب التي قذفت بالبلاد عشرات السنوات إلى الوراء، وكي لا يتكوًن «زعيم» أو «زعامة»، وليكون في استطاعتها خلق سلطة شعبية حقيقيًة، وبما يعطي لذلك ضمانات حاسمة.

أما الاقتراح الوارد في تقرير الأمين العام القاضي بدمج وظائف أمناء المنظمات الحزبية والهيئات السوفياتية، فقد كان مفاجئاً وغير متوقًع بالنسبة إلى المندوبين، حيث قال أحد العمال في مداخلته هنا إنه «ليس مفهوماً بعد» بالنسبة إليه. وأنا، بوصفي وزيراً، أقول: ليس ذلك مفهوماً بالنسبة إلي أيضاً. ينبغي أن نُمنح بعض الوقت للتفكير، لأنه موضوع معقد، ثم إنني أقترح إجراء استفتاء شعبي حوله. (تصفيق).

بعض الاقتراحات بصدد الانتخابات: يجب أن تكون عامة، مباشرة، سرية، بما في ذلك انتخاب أمناء اللجنة المركزية والأمين العام من تحت إلى فوق ومن بين أعضاء مكاتب المنظمات الإقليمية أو المكتب السياسي المنتخبين من قبل الشيوعيين بالطريقة نفسها (أي اعتماد ما يشبه دورتي انتخاب). وهذا يجب أن يشمل مجلس السوفيات الأعلى والنقابات والكومسومول. وأقترح أيضاً، ودون أي استثناء، وخصوصاً بالنسبة إلى القيادة العليا، ألا يبقى أعضاؤها المنتخبون في مناصبهم لأكثر من ولايتين، بحيث لا ينتخبون في الولاية الثانية إلاَّ بناء على نتائج أعمالهم وإنجازاتهم الفعلية التي أسفرت عنها ولاية السنة الأولى. ويجب تحديد عمر أعضاء الهيئات المذكورة (بما في ذلك المكتب السياسي) على ألا يتجاوز الخامسة والستين. تبدأ مهلة الولايتين من الانتخابات السابقة، ويُبدأ بضبط

الأعمار من السنة الحالية.

لقد نما حزبنا ومجتمعنا إلى درجة يوثق معها بها للتصدي لحل هذه المشكلات باستقلالية، وإن البيريسترويكا ستربح من ذلك ولن تخسر.

ما ذكرته سيشكل برأيي ضمانة محدَّدة بوجه أي عبادة للفرد تولد فوراً إذا وجدت التربة الصالحة وليس بعد ١٠ ـ ١٥ سنة. أما نظام الحزبين الحاكمين الذي اقترحه بعضهم فلا يشكِّل برأيي هذه الضمانة. أعتقد أنه علينا الآن أن نكون شديدي الحرص، ذلك أن إهمال المبادىء اللينينية في السنوات الماضية سبَّبت مصائب كثيرة للشعب. يجب أن تكون هناك عوائق قاسية يفرضها النظام الداخلي والقانون.

في بعض البلدان يسود العرف التالي: بخروج القائد تخرج القيادة، أما عندنا فقد اعتدنا محاكمة الموتى وإدانتهم، الأمر الذي لا يعود بأي نفع.. وحالياً ينتج أن المتسبِّب بالركود هو بريجنيف وحده. ولكن أين كان أولئك الذين أمضوا ١٠ ـ ١٥ ـ ٢٠ سنة، وما زال بعضهم الآن موجوداً، في المكتب السياسي. أما كانوا يصوتون كل مرة على برامج مختلفة. لماذا لاذوا بالصمت عندما كان يقرر جهاز اللجنة المركزية، وحده في أكثر الأحيان، مصير الحزب والبلاد والاشتراكية؟ لماذا جاؤوا بتشرنينكو، الرجل المريض؟ لماذا خشيت لجنة الرقابة الحزبية من استدعاء كبار قادة الجمهوريات والأقاليم للتحقيق معهم في الرشاوى والخسائر التي تسببوا بها للدولة بالملايين، في حين أنها كانت تقيم الدنيا بسبب مخالفات صغيرة. والجدير بالذكر أن هذه اللجنة تعلم أموراً كثيرة وخبايا أكثر. يجب القول إن هذه الليبرالية من جانب الرفيق سولومينيتسيف حيال أصحاب الملايين

المرتشين مبعث قلق معين.

إني أعتبر بعض أعضاء المكتب السياسي مخطئين بوصفهم أعضاء في هيئة قيادة جماعية محَضتهم اللجنة المركزية والحزب ثقتهما، وعليه فيجب أن يُسألوا: لماذا بلغت البلاد والحزب هذا المبلغ؟ بعد ذلك يجب الخروج باستنتاج: طردهم من المكتب السياسي. (تصفيق). لعل هذه الخطوة أكثر إنسانية من توجيه النقد إليهم بعد مماتهم كي لا يصار إلى دفنهم مرة ثانية!

أقترح اعتماد النظام التالي في المرحلة المقبلة: إذا تغيَّر الأمين العام يُعمد إلى تجديد المكتب السياسي باستثناء الأعضاء الذين دخلوه منذ وقت قريب؛ وبصورة رئيسية يجب تجديد جهاز اللجنة المركزية، وذلك للحؤول دون غرق الأشخاص في المستنقع الإداري الدائم. وعندها لا يعود المرء موضوع انتقاد بعد موته، مدركاً أنه على الجميع، بما في ذلك الهيئات المنتخبة، مسؤولية تقديم كشف الحساب أمام الحزب.

وثمة أمر آخر، وهو أنه لا يوجد عندنا الآن مناطق قيادية محرمة على النقد - بحسب ما قاله الأمين العام بوضوح - حتى بالنسبة إليه. . . برأيي أن هذا مغاير تماماً لما هو في الواقع.

إن المنطقة المحرمة على النقد سمة موجودة، إذ سرعان ما يأتي التحذير الصارم كالبرق بعد أول انتقاد يُوَجَّه: «لا تقرب!»، والنتيجة أن أعضاء اللجنة المركزية أنفسهم يخافون الإعراب عن آرائهم الشخصية إذا تميزت عن التقرير، ويستنكفون عن مواجهة القيادة.

إن هذا الواقع يسبب ضرراً هائلاً ويُشوِّه الضمير الحزبي والشخصية، ويروِّض الأيدي لترتفع موافقة عقب كل اقتراح يدعو إلى إبداء الرأي. ولعل هذا الكونفرنس هو الاستثناء الأول الذي شَذَّ

عن القاعدة المتبعة. وحتى الآن أستخلص القول: إن السياسة التي تنتهجها الهيئات القيادية ما تزال، حتى اليوم، تحتفظ باستقلاليتها العصية على المسِّ والانتقاد وخارج دائرة رقابة الجماهير الشعبية.

ولا بد من الموافقة على اقتراح تضمَّنه التقرير يقضي بتشكيل لجان قطاعية من أعضاء اللجنة المركزية، لا يقر أي توصية مبدئية أو قرار مبدئي يصدر عن هذه الأخيرة دون موافقتها عليه بعد بحثه ودرسه. ذلك أن المعمول به الآن أن القرارت لا تصدر عن اللجنة المركزية بل عن جهازها، وغالباً ما يولد أكثرها ميتاً. أما المشروعات الكبرى فيجب أن تناقش في الحزب وفي البلاد على كافة المستويات والرجوع إلى الاستفتاءات الشعبية. ويجب، كقاعدة، رفض اعتماد آلية صدور قرارات مشتركة عن كِلا اللجنة المركزية ومجلس وزراء الاتحاد السوڤياتي.

أجل، إننا نفخر بالاشتراكية، ونفخر بكل ما أنجز، ولكن لا يجوز الاسترخاء والنوم على الحرير والاكتفاء. فنحن لم نحل المسائل الرئيسية، كإطعام الناس وإكسائهم وتأمين قطاع خدمات متطور لهم، كما لم نحل المشكلات الاجتماعية الناجمة، وذلك على مدى السبعين عاماً الماضية. والپيريسترويكا إنما نشأت لتحقيق هذه الأهداف، إلا أنها تسير ببطء وانكباح شديدين، وهذا يعني أن كلاً منا لا يعمل ولا يناضل من أجلها كفاية. وثمة أيضاً سبب يعتبر من أهم أسباب المصاعب التي تواجه الپيريسترويكا، ألا وهو طابعها البياني (التصريحي). فقد أُعلن عنها دون اللجوء إلى تحليل وافٍ لأسباب الركود الناشىء وإلى تحليل الوضع السائد في المجتمع، ودون تحليل معمق لتاريخ الأخطاء والممارسات المشينة التي ارتكبها الحزب. فكان من نتائج الپيريسترويكا أن انقضت ثلاث سنوات ولم نحل أي مشكلة

واقعية ملموسة للناس، كما إننا لم نحقق أي تغييرات ثورية فضلاً عن ذلك.

إننا، وفي سياق البيريسترويكا، يجب ألا نكتفي بوضع عام ٢٠٠٠ نصب أعيننا كهدف أو أفق (فثمة كثيرون لا يهتمون بما هم حاصلون عليه الآن، فهل سيهتمون بما سيحصلون عليه مستقبلاً؟)، بل يجب مَرْحَلَة العثور على حلول لمشكلات ضمن حقب زمنية قصيرة لا تتجاوز السنتين أو الثلاث؛ بما ينعكس بصورة ملموسة على الناس. ينبغي ألا نوزع مواردنا في كل الاتجاهات، بل أن نركزها هناك حيث يمكن الإفادة من طاقتها (الثروات والعلم وطاقة الجماهير). عندها فقط سيتعاظم الإيمان بالبيريسترويكا وإعادة بناء المجتمع وستثمر نتائج وستثبت للناس أنها تخطو إلى أمام ولا عودة إلى الماضي، مما سيجعلهم يسرعون أكثر في المساهمة بحل المشكلات. أما الآن فثقة الناس قابلة للانقلاب في أي لحظة.. إنهم ما يزالون واقعين تحت تأثير التنمويم المغنطيسي للكلام وللشعارات، ولعل هذا ما أنقذ البيريسترويكا حتى الآن. أما في المرحلة المقبلة فأني أرى خطر فقدان زمام الأمور والتماسك السياسي ماثلاً بوضوح.

ولنتكلم قليلاً على الانفتاح والصراحة في الحزب. ينبغي أن تسود في الحزب ظاهرة طبيعية هي ظاهرة تنوُّع الآراء وتعدُّدها، وإن وجود رأي متميز للأقلية لا يهدِّد وحدة الحزب بل يعززها. إن الحزب للشعب، والشعب يجب أن يعرف كل ما يقوم به الحزب... وللأسف، إن ذلك غير موجود. وأرى أن تصدر تقارير مفصلة عن المكتب السياسي والأمانة العامة تتضمن كل المسائل، ما خلا تلك التي تعتبر أسراراً للدولة. ولتشمل التقارير معلومات عن حياة القادة وسيرهم الذاتية واهتماماتهم ونشاطاتهم وكم يقبضون وما هي

الإنجازات التي حققوها في قطاعاتهم. ويجب أن تكون هناك برامج متلفزة منتظمة تبني مع الناس جسوراً، وإعلان نتائج قبول الأعضاء في الحزب وتعميم رسائل الكادحين الموجهة إلى اللجنة المركزية. وبشكل عام، يجب أن يشكل كل ذلك سوسيولوجيا حزبية عن الصحة الخلقية لدى قادة الحزب والدولة.. ويجب أن تكون مفتوحة، معلنة، أمام الناس لا يداخلها أي تعتيم أو إسْرار.

وهناك أيضاً مواضيع «ممنوعة»، «سرية» كمواضيع تغذية الموازنة الحزبية. فقد جاء في النظام الداخلي: في كيفية إنفاق المال - «تحدد ذلك اللجنة المركزية للحزب الشيوعي»، أي ليس جهازها.. بل اللجنة المركزية. بيد أن موضوعاً كهذا لم يطرح مطلقاً في أي من اجتماعات اللجنة المركزية الكاملة. إني أقترح القيام بذلك مستقبلاً وبصورة حتمية، ذلك أن أحداً لا يعرف أين تنفق أموال الحزب (وهي تعد مئات ملايين الروبلات)، لا من أعضاء اللجنة المركزية ولا من الشيوعيين الآخرين. إن لجنة الرقابة المالية لا تقدم في المؤتمرات أي تقارير.

إنني أعرف، مثلاً، كم من الملايين تُجبى من منظمة العاصمة ومنظمات إقليم سڤيردلوڤسك الحزبية، ولكني لا أعرف أين تنفق. إني أرى، فقط، (عدا النفقات الواجبة) كيف تبنى البيوت الريفية والعُزَب والمنتجعات المخصَّصة لممثلي الأحزاب الأخرى على نحو يثير لدي الخجل، في حين أن الواجب يفرض تعزيز أوضاع المنظمات الحزبية القاعدية ودعمها، بما في ذلك رفع رواتب قادتها. ثم نعجب، بعدئذ، كيف أن بعض كبار القادة الحزبيين ضالعون في الفساد والرشوة وانعدام الأخلاق والنقاء ونظافة الكف والرفاقية الحزبية.

لقد شمل انحلال الشرائح الموثوقة كثيراً من المناطق والمواقع إبان المرحلة البريجنيفية، فلا يجوز تبسيط الأمور والقصور في التقويم. يبدو أن التحلّل والتعفّن بلغا درجة أعمق مما يُخَيَّل إلى بعضهم، وأنا أعرف أن المافيا موجودة في موسكو وجوداً ملموساً ومحدَّداً.

وأود التطرق إلى مسائل العدالة الاجتماعية. إنها مسائل حُلَّت عندنا، بالطبع، على الصعيد الكبير. على أساس المبادىء الاشتراكية، ولكن بقي بعضها دونما حل، وهي تثير اشمئزاز الناس وضيقهم وتدفع بسمعة الحزب نحو الحضيض، كما وتؤثر بصورة مميتة على وتائر البيريسترويكا.

ورأيي هو التالي: إنه إذا نقص شيء ما في مجتمعنا الاشتراكي، فإن النقص يجب أن يحسه الجميع دون استثناء وبمستوى واحد. (تصفيق). أما إسهام العمل في بناء المجتمع فيجب أن تحكمه أجور مختلفة، ولا بد في نهاية الأمر من تصفية «المخصصات» الغذائية التي تحصل عليها النومنكلاتورا «الجائعة»، ولا بد من القضاء على النخبوية القائمة في المجتمع، ولا بد من التخلص - شكلاً ومضموناً - من كلمة «خاص» وقذفها خارج قاموسنا، ذلك أنه لا يوجد «شيوعيون خاصّون».

أعتقد أنه إذا فعلنا ذلك فسنسدي مساعدة كبيرة للعاملين الحزبيين في علاقتهم مع الناس، وهو ما سيدفع البيريسترويكا إلى الأمام.

أما في موضوعي بنية الجهاز الحزبي وتقليصه فأقول: إنه لا يمكن تحقيق النداء اللينيني: «كل السلطة للسوفيات!» ولدينا هذا الجهاز الحزبي الضخم، لذا فإني أقترح تقليصه في منظمات الأقاليم مرتين أو ثلاث مرات، وفي اللجنة المركزية من ست مرات إلى عشر مع تصفية

الأقسام القطاعية.

وأود هنا أيضاً ملامسة قضية الشبيبة. إن الموضوعات التي بين أيدينا لم تلحظ بصددها أي شيء تقريباً. أما في التقرير فقد ورد شيء كثير، وإني لأدعم اقتراحاً بتبني توصية منفصلة في ما خص الشبيبة.. فهي، لا نحن، التي ستضطلع بالدور الرئيسي في تجديد مجتمعنا الاشتراكي. ينبغي أن نوكل إليها، وبشجاعة قيادة العمليات على كافة المستويات.

أيها الرفاق المندوبون. ثمة مسألة بعد تتسم بالحساسية. أود أن أطرح عليكم مسألة إعادة اعتباري السياسي شخصياً، الذي نزع مني في اجتماع اللجنة المركزية الكامل المنعقد في تشرين أول (أوكتوبر).. (ضجيج في القاعة). وإذا رأيتم أن الوقت لم يحن بعد، فإني أعتبر أن الموضوع منته.

غورباتشوف م. س.: بوريس نيقولاييفيتش، تكلم، أكمل، الجميع يريد ذلك. (تصفيق). أعتقد أيها الرفاق أنه آن الأوان للخروج بقضية يلتسين إلى العلن. وليقل بوريس نيقولاييفيتش كل ما يريد قوله. وإذا بدا أن هناك ضرورة أمامنا للكلام فسنتكلم. تفضل، بوريس نيقولاييفيتش!

يلتسين ب. ن.: أيها الرفاق المندوبون! لقد أصبحت إعادة الاعتبار في هذه الأيام، بعد مرور خمسين سنة، أمراً عادياً، وهذا ينعكس دون شك إيجاباً على المجتمع.. إلا أنني أطلب شخصياً إعادة الاعتبار السياسي إلي وأنا على قيد الحياة. وأعتبر المسألة مبدئية، وفي ضوء ما أعلنه التقرير فالمداخلات تلائم تعددية الآراء الاشتراكية وحرية النقد واحترام الرأي الآخر المعارض.

أنتم تعلمـون أن مداخلتي أثنـاء اجتماع اللجنـة المركـزية الكـامـل المذكور اعتبرت بقرار منه «خطأً سيـاسياً». ولكن المسـائل التي أثـرتها آنذاك أثيرت مرات عديـدة في الصحافـة ومن قبل شيـوعيين، فضـلاً عن أنها طرحت عملياً هنا من على منـبر هذا الكـونفرنس، سـواء في التقرير أم في المداخلات. وإني لأعتبر أن الخطأ السيـاسي في مداخلتي كمن في تـوقيتها، حيث تقـدمت بها أثنـاء الاحتفـال بـذكـرى مـرور سبعين سنة على الثورة.

يبدو أنه ينبغي لنا جميعاً استيعاب قواعـد الحوار السيـاسي واحترام رأي المعارضين كما كان يفعل ف. إ. لينين، لا أن نعلق فوراً الرقعة في الرقاب ونعلن الزندقة.

أيها الرفاق المندوبون! لقد عكست في مـداخلتي هذه كـل ما كنت أدليت به في اجتماع اللجنة المركزية الكامل، وإنني أعاني قسوة القـرار الذي اتخذ بحقي وأشعـر بالألم. ولـذلك فـإني أرجو من الكـونفرنس إبطاله. . فإذا اعتبرتم أنه من الممكن القيام بهذا الأمر فـإنكم بذلـك تعيـدون إليَّ الاعتبـار في نـظر الشيـوعيـين. إنـه ليس أمـراً شخصيـاً فحسب، بـل هـو مـلائم لـروح البـيريسـترويكـا، وسيكـون قراراً ديموقراطياً، بل إنه سيساعدها على الاستزادة من ثقة الناس بها على ما أرى.

أجـل، ليس سهلاً تجـديد المجتمـع. . ولكن التقدم حـاصل وإن كـان ضئيلاً، وستـدفعنا الحيـاة نفسها للسـير في هذا الـطريق وحده. (تصفيق)».

لقد تكلَّمت. وفي درجة معينة كنت أشعر بالتوتر الشديـد، ولكني مـع ذلك وُفِّقت من حيث التـأثير وقلت مـا كـان يجب أن أقـول ومـا

اعتبرته ضرورياً أن يقال. كانت ردة الفعل جيدة، فالمندوبون صفقوا حتى بلغت المخرج من القاعــة الكبـيرة لأعــود وأصعـد السلم إلى البلكون حيث جلس أعضاء وفد كيريليا، وأعلنت الاستراحة في هذه الأثناء. وقد عبر أعضاء وفدي عن اهتمامهم الحار ودعمهم بابتسامات حيناً وبالمصافحة حيناً آخر. كنت مُثاراً يملأني التوتر. وعندما خرجت إلى الشارع انهالت علي تهاني المندوبين وأسئلة الصحافيين.

وعدت بعد الاستراحة لأجلس في مكاني ضمن الوفد، غير مشتبه بشيء، فـوفق جـدول الأعـمال كـان من المفـروض أن يجـري اتخـاذ التوصيات والتصويت على القرارات. غير أن الاسـتراحة استخـدمت فرصة لتحضير هجمات مضادة للنيل مني وللرد على مداخلتي.

وكانت مداخلة ليغـاتشيف مثيرة لا تُنسى.. ولـطالما أصبحت فيـما بعد موضوعاً للتنكيت والقفش والرسوم الكاريكاتورية.. الأمر الذي اضطر كاتبي المحضر المنشور إلى تحريرها جدياً. كم بـدا إيديـولوجي البلاد الأول خائباً وغير موهوب، مع كل ما بذلـه من جهد، بيـد أن ما صدر عنه كان تافهاً خلواً من الأدب.

وأعتقد أن مداخلته هذه كانت بداية نهايته السيـاسية. فهـو الذي وجه ضربة قاضية إلى نفســه، بحيث لم يكن قادراً عـلى الاحتماء منهـا مطلقاً. كان يجب أن يتقدم بعد الكونفرنس بالاستقالة ولكنه لم يفعل لأنـه لم يرد. لا يـرغب ولكن لا بد من ذلـك.. إذ لم يعـد يستـطيـع الهروب من الضحك العصبي الذي كان يثيره ظهوره أمام الكثيرين.

ثم كـانت المداخلة التـالية من لـوكين، وهـو سكرتـير أول شـاب لمنظمة منطقة بروليتارسكي الحزبية في موسكو. راح يهيل علي مـا شاء من القذارة، منفذاً المهمة التي كلفته بها القيادة. كثيـراً ما فكـرت في

أمر فيما بعد: كيف سيتمكّن من التعايش مع ضميره؟... وتوصّلت في النهاية إلى الجواب التالي: سيتعايش معه بصورة رائعة.. فضميره مسقي كالفولاذ. إن أمثاله من الوصوليين الشباب بلغوا المراتب العليا بفضل تلوُّنهم، ولا حاجة هنا للكلام على أي ضمائر.. لا نفع من ذلك.

وتكلم تشيكيريڤ، مدير مصنع أوردْجونيكيدزه. أخذ يطلق العنان لمخيلته ويؤلف عن سكرتير منظمة موسكو الأول حكايات وأخباراً لو صدقها المرء لاعتقد أنه كان على شفير أن يقذف بنفسه من طابق عال بسببي. كنت أستمع إليه ولا أفهم: أهو كابوس أم تهيُّؤات مرعبة. لقد زرته مرات في مصنعه، بل وأمضيت يوماً كاملاً فيه إحدى المرات بمعية الوزير پانيتشيڤ. وكالعادة قمت بزيارة مطعم المصنع، وأبديت بعض الملاحظات في نهاية الزيارة، وكان واضحاً أنه تقبلها.. ثم فجأة أخذ هنا يختلق ويكذب ويزوِّر الحقائق على نحو لا يمكنني الآن سرده.

ثم أعقبه ڤ. أ. ڤولكوڤ، وهو أحد مندوبي سڤيردلوڤسك، فقلب كل مخططات السيناريو الموضوع رأساً على عقب.. قال كلمات حارة، ولم أكن أعرفه قبل الكونفرنس، فجاءت كلمته حارة تنبض بالإخلاص، ردة فعل مفعمة بالإنسانية على التهجمات الظالمة بحقي. ولكن سكرتير أول منظمة سڤيردلوڤسك الإقليمية بوبيكين، الذي أصابه الرعب مما صدر عن مواطنه، وجه إلى هيئة الرئاسة رسالة قال فيها: «إن مندوبي منظمة إقليم سڤيردلوپسك الحزبية تدعم بالكامل قرار اجتماع أوكتوبر (١٩٨٧) المتخذ بحق الرفيق يلتسين. وإن أحداً لم يعط الرفيق ڤولكوڤ صلاحية التكلم باسم الوفد، وإن مداخلته مستنكرة ومدانة تماماً. باسم الوفد، **سكرتير أول المنظمة بوبيكين**».

ولكن هذا السكرتير لم يستشر أعضاء وفده.

وفي النهاية تكلم غورباتشوف، فقال أيضاً الكثير، إلا أنه بقي ملتزماً حدود اللياقة.

كل من جلس حولي خاف من الالتفات إلي. وكنت أجلس بلا حراك أنظر إلى منصة الرئاسة البعيدة من موقعي في البلكون... وأحسست أنني بدأت أفقد وعيي بسبب ما أسمعه... وما إن لاحظ الشبان المناوبون حالتي حتى هرعوا إلي لنقلي إلى الطبيب، حيث حُقنت حتى أتمكَّن من الصمود إلى نهاية الكونفرنس. وعدت، ولكن كان ذلك عذاباً جسدياً ومعنوياً.. كل شيء في داخلي يلتهب ويذوب أمام عيني...

تحمَّلت ما يحدث بصعوبة، بصعوبة كبيرة. ولم أغف ليلتين كاملتين من المعاناة والتفكير: فيم الأمر؟ من هو المحق ومن هو غير المحق؟.. وبدا لي أن كل شيء قد انتهى.. وليس لدي مكان أبرز فيه مواقفي وأدافع عنها.. ولماذا أفعل؟ هذا، وقد نقل التلفزيون جلسات الكونفرنس وبثها إلى كل أنحاء البلاد.. ولن أتمكن من تنظيف نفسي من الأقذار التي أهيلت علي. وشعرت بالتالي: لقد حطَّموني وانتصروا. وداهمتني في تلك الفترة حالة من اللامبالاة.. إذ لم أرغب لا في خوض الصراع ولا التبرير ولا التفسير. شيء واحد وددت أن يحدث وهو أن أنسى كل ما حصل، وأن أُترك أعيش بهدوء.

... ثم فجأة بدأت ترد إلى مكتبي في الوزارة رسائل وبرقيات.. بالأكياس، رسائل بالآلاف من كل أنحاء البلاد. كان ذلك دعماً شعبياً خيالياً.. فالناس كانت تعرض علي العسل والمربيات البيتية

وحتى التدليك كي أُبَلَّ من المرض ولا أعود إليه أبداً. . وكانوا ينصحونني ألاَّ ألقي بالاً إلى التفاهات التي اختلقت بحقي لأن أحداً لا يصدقها. وطولبت ألا أقعد عن النضال من أجل البيريسترويكا.

كم كانت الرسائل حارة ومؤثرة وطيبة بعث بها أناس لا أعرفهم. . كنت أكاد لا أصدق وأسائل نفسي: من أين كل ذلك ولماذا؟ . . .

ولكنني كنت أعلم بالطبع مصدر هذه الأحاسيس المخلصة. فشعبنا الذي صبر على الكوارث لم يطق أن يرى كيف يُحطَّم إنسان بالإهانات، فحرَّكه على ما يبدو ذلك الظلم الصريح وأثارت لديه الضيق والتبرم، فراحوا يعبرون عن أحاسيسهم بالكتابة مادِّين إلي اليد لأتكىء عليها ولأنهض من كبوتي.

وتابعت بفضلهم السير.

يوميات الانتخابات

١٠ آذار (مارس)(*) ١٩٨٩

ها هو ذا ماراتون الأشهر السابقة ينتهي. لست أدري بماذا أشعر أكثر: أهو الإرهاق أم هو التعب؟

أُنبئتُ بنتائج الانتخابات النهائية فتبين أن ٨٩,٦٪ من المقترعين صوَّتوا لي. بالطبع هذه الأرقام ليست طبيعية، ففي انتخابات عادية حضارية يجب أن تكون أقل من ذلك بكثير. بيد أنهم أوصلوا الشعب إلى درجة اللارجوع في سياق محاربتهم لي والافتئات علي والتزوير ومحاولات قطع الطريق، بحيث لم أكن لأتعجب توقع نيل أكثر مما نلته من أصوات.

فقد حصل كل شيء طبقاً للقاعدة التالية: إن المواطنين لم يصوتوا ليلتسين، بل صوتوا ضد الجهاز. . ومن المفترض أن يغضبني ذلك، ولكن العكس هو الصحيح. . إن هذا أمر عظيم لأنه يعني أنني لم أخض الصراع الكبير ضد البيروقراطية الحزبية عبثاً. وإذا ارتبطت معارضة الجهاز باسم يلتسين فهذا يعني أن مداخلتي في دورة تشرين للجنة المركزية وفي الكونفرنس التاسع عشر، تحملان معنى معيناً.

(*) هكذا ورد في النص الأصلي الروسي ولعل المقصود ١٠ نيسان (أبريل).

كم أود أن أتوقف لأنظر قليلاً إلى الوراء وأتمعّن وأستريح، فقد كان السباق مثبطاً ومسبباً لعذاب كبير. ولكن لا، لن ينفع الوقوف ولا السكون، فها هي ذي مهمات ومشاكل جديدة تنهال علي.

وجّهت رسالة إلى رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي ن. إ. ريجكوف تتضمن طلب إعفائي من منصبي كوزير. فقانون الانتخاب يمنع على مندوب الشعب أو النائب أن يكون وزيراً في آن. وهكذا، فقد أصبحت منذ هذا اليوم رسمياً عاطلاً عن العمل.

ورنين جرس الهاتف في منزلي لا ينقطع. عشرات، بل مئات الاتصالات للتهنئة والمساندة والتمني.. واتفقت مع نايينا أن نترك موسكو وراءنا ونختفي أسبوعين طلباً للراحة.

لقد بلغ مني الإرهاق مبلغاً، وأردت أن أرتاح بعض الشيء.

يخيل إلي أحياناً أنني عشت ثلاث حيوات مختلفة. فالحياة الأولى كحياة معظم الناس عادية، رغم أنها كانت مليئة بالتوتر والتعقيد، وقد احتوت الدراسة والعمل وتكوين العائلة، لأصبح بعد ذلك قائداً في الإنتاج ثم في الحزب. وقد اختتمت يوم انعقاد دورة اجتماعات اللجنة المركزية في تشرين أول (أوكتوبر) لتبدأ حياتي الثانية: النفي السياسي حين كان يحيط بي الفراغ المطبق، معزولاً عن الناس أخوض صراعاً للبقاء كإنسان وكسياسي. أما حياتي الثالثة فقد انبلجت حين صدرت نتائج انتخابات مندوبي الشعب. كانت تلك ولادتي الثالثة، وها قد مضى عليها أقل من سنة. وإذا كانت تفاصيل حياتيّ الأوليين مجهولة، بل غير معروفة، فإن مضامين الحياة الثالثة كانت واضحة للعيان تجري في العلن: كالعمل في مؤتمر نواب الشعب ودورة مجلس السوفيات الأعلى لعموم الاتحاد السوفياتي وإنشاء كتلة نيابية تضم نواباً

عن مناطق عديدة ورحلتي إلى الولايات المتحدة. . . ففي هذا النشاط لا توجد صفحات مطوية ولا أسرار خفية.

ومع ذلك، فهذه الأشهر احتوت العديد من الأحداث المتنوعة التي لا يجوز اغفالها.

وأبدأ بسردها بالترتيب.

فبعد هذا الفوز الساحق في الانتخابات سرت شائعات مفادها أنني عزمت على منافسة غورباتشوف في مؤتمر مندوبي الشعب على منصب رئيس هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي. ولست أدري أين ولدت هذه الشائعات: أبين أنصاري الذين أسكرتهم نشوة الانتصار، أم على العكس في معسكر الخصوم الذين أرعبتهم ردة فعل الموسكوفيين العاصفة؟ وظلت الشائعات ذاتها تدور دورتها بإصرار.

كيف كنت أنظر إلى كل ذلك؟ كنت أعي تماماً وبواقعية الوضع السياسي الناشيء في البلاد، وكنت أيضاً أقوِّم بكل دقة النسبة المستقبلية بين الأقلية والأكثرية في مؤتمر مندوبي الشعب. ولذا فلم تكن لدي أي أوهام أو طموحات على هذا الصعيد مطلقاً، علماً أنني كنت أدرك أن وجودي سيسبب لغورباتشوف قلقاً جدياً، وهو بالتالي سيحاول معرفة حركتي التالية.

وقبل حوالى أسبوع من افتتاح المؤتمر المنتخب اتصل بي هاتفياً واقترح علي أن نلتقي ونتباحث. امتد اللقاء نحو ساعة لأول مرة بعد انقطاع طويل، فجلسنا وجهاً لوجه. كان الحوار متوتراً عصبياً، وقد أدليت بالكثير مما كان تراكم في صدري أثناء الفترة الفائتة. وكان أقل ما يهمني مشكلاتي الخاصة. . ذلك أن البلاد تنهار وهو الأمر الأفظع.

أما لعبة الجهاز البيروقراطي فكانت دائـرة، وما زالت تـدور، وهي لا تهـدف إلا إلى الاحتفاظ بـالسلطة، بكل السلطة وعـدم التنـازل عن قطرة واحدة من قـطراتها لمؤتمـر مندوبي الشعب. وكنت أسـأله طـوال الـوقت: ميخـائيـل سرغييڤيتش، مـع من أنت، مـع الشعب أم مـع النظام الذي أوصل البلاد إلى شفير الهاوية؟

وكان يجيب على أسئلتي بقسوة وبحدة، وكلما استغـرقنا في الكـلام كلما ارتفعت بيننـا سدود الـلاتفاهم. وعنـدما بـات من الـواضـح أن العلاقة الإنسانية الشخصية بيننا لن تتخلّق في هذا اللقاء، ولن تنشـأ بـالتالي عـلاقات ثقـة متبادلـة، تـراجعت حـدة لهجـة غـوربـاتشـوف وإصراره، سألني عن مخططاتي المستقبلية وماذا أنـوي عمله وأين أجد نفسي أكـثر، فرددت عـلى الفور: المؤتمـر سيقرر. ولم يعجب الجـواب غورباتشوف! إذ كان يطمح إلى الحصول مني على ضمانات معينة فتابع مساءلته: كيف أنظر إلى العمل في مجـال الاقتصاد والإنتـاج؟ وهل لي مصلحة، مثلاً، للعمل في مجلس الوزراء؟ إلا أنني بقيت على جوابي: المؤتمر سيقرر.

ولعلني كنت عـلى حق، فالكـلام على أي شيء قبل انعقاد اجتماع مؤتمر نواب الشعب لن يكون بالكلام الجدي، ولكن الجواب بالنسبـة إلى غورباتشوف كان استفزازياً، لأنه كان يسعى إلى معـرفة نـواياي. بدا أنه لم يكن يصدقني واعتبر أنني بصدد إخفاء أفكاري. وكان ذلك غـير صحيح أبـداً، إذ لم أُبيِّت أي مخططات بـانتظار انعقـاد المؤتمر.. وهكذا افترقنا.

وفي اليوم التالي مباشرة سرت شائعات جديدة. أين ذلك الشاعر، أو المغني، الذي يغني شائعاتنا المحلية؟ إن الشعب يعيش بالشـائعات عندما تفتقد المعلومات الصحيحـة (بل وحتى الكـاذبة). إنـه الوكـالة

الرئيسية للأنباء في الاتحاد السوفياتي، بل إنه أقوى وأفعل من «تاس» نفسها. ليت أحداً يدرس طبيعة شائعاتنا وآلية نشوئها وانتقالها، فقد ينجم عن هذه الدراسة كتاب شيق جداً.

وقالت الشائعات هذه المرة إن غورباتشوف اجتمع فعلاً بيلتسين واقترح عليه تسلُّم منصب النائب الأول لرئيس الوزراء، إلا أن يلتسين لم يوافق لأنه يريد أن يتولى منصب رئيس مجلس السوفيات الأعلى. عندئذٍ، اضطر غورباتشوف أن يعرض عليه منصب النائب الأول لرئيس مجلس السوفيات، الأمر الذي لم يرضه أيضاً مما جعل غورباتشوف يضحي بمهام السكرتير الأول لمنظمة مدينة موسكو الحزبية. . ومجدَّداً رفض يلتسين الفكرة.

على هذا النحو ووفق هذا النموذج أو ما يقربه كانت تردني الشائعات، حيث أُبلِّغ بمضامينها من مختلف الجهات والأطراف، وكنت أهز رأسي عجباً من أمر المخيلة الإنسانية.

وانعقد مؤتمر نواب الشعب. لن أتكلم عليه طويلاً بل باختصار، أملاً بأن يرجع المهتم بالموضوع وتفاصيله إلى المصادر الأصلية لمتابعة أخباره. اتخذ غورباتشوف قراراً مبدئياً مهماً عندما وافق على نقل وقائع المؤتمر مباشرة عبر شبكة التلفزة السوفياتية. فأيام المؤتمر العشرة تابعها الشعب في البلاد من أقصاها إلى أقصاها واستمع إلى نقاشات المندوبين والنواب المثيرة، ووهبته على الصعيد السياسي ما لم تحمله إليه سبعون سنة مضروبة بملايين ساعات التثقيف السياسي الماركسي ـ اللينيني التي أهدرت بقصد خداعه. ففي يوم الافتتاح كان هناك مندوبون لم يعودوا هم أنفسهم عند الاختتام. ومهما كان موقفنا سلبياً حَيَالَ نتائج المؤتمر، وبالرغم من كل المعاناة والمكابدة اللتين سبَّبهما تضييع فرص عديدة للقيام بخطوات ضرورية على

الصعيـدين الاقتصادي والسيـاسي، فـإن مـا حـدث كـان هـو الأمـر الرئيسي. فقد استيقظ الشعب، كل الشعب، من غفوته.

وكما كان الأمر دائماً بالنسة إلي لم يخلُ الحدث من مشاكل. فعنـدما نوقشت مسألة كيفية انتخاب النواب إلى مجلس السـوفيات الأعـلى من بـين أعضاء مؤتمـر مندوبي الشعب أصريت بـلا هوادة عـلى أن تكون الترشيحات متعددة. وأعترف بـإخلاص أنني أملت من كـل قلبي أن أنتخب رغم كـل شيء في مجلس السوفيـات وأدركت بكـل وعي أنـه يجب ألّا نتوقع أموراً جيدة من تركيبة المؤتمر القائمة. فالأكثرية الهـادئة الـطائعة، الآتيـة إلينا من المـاضي القـريب، ستحـطّم أي اقـتراح لا يلائم القيادة. وهـذا ما حـدث فعلاً. فقـد بيَّنت عمليات التصـويت الأوليـة كيف كان ميخـائيل سرغييفيتش (غـورباتشـوف) يديـر المؤتمر كـالمايسـترو بنجاح، وأكّـدت انتخابـات التمثيل في مجلس السـوفيات الأعلى أن الأكثرية الباطـونية المسلحـة كفيلة بسدٍّ أي منفـذ بوجـه من يتمادى في طموحه وعلى سبيل المثال لم يُنتخب ساخاروف وتشيرنيشنكو وبـابوف وشميليـوف، المندوبـون الرائعـون المحترمـون؛ كما لا يمكنني تعـداد أولئك الـذين منعتهم شبكة المؤتمـر من اختراقهـا لكثرتهم. ولم أُنتخب أنـا أيضاً، وعـلى رغم حصولي عـلى أكـثر من نصف أعضـاء المؤتمـر، إلا أنني كنت أقل من حصـل عـلى أصـوات بـين من لم يجـر انتخـابهم. لم يثرني ذلـك، وأنا الآن لا أقـول هذا لأستعـرض قدرتي على الاحتمال، بل لأنني فعلاً لم أكن أتوقع شيئاً كثيراً من المؤتمر الذي لو حدث وأوصلني إلى مجلس السـوفيات الأعـلى لأثار عنـدها تعجبي الشديد. وهكذا، فقد سار كل شيء في مساره الطبيعي، وبت أنتـظر بشغف لأرى كيف سيتسنّى لغـورباتشـوف الخـروج من المـأزق الـذي حشر فيه نفسه.

كان ذلك بالطبع فضيحة، بحيث أدرك الجميع أن الوضع يمكن أن يصبح بسببي متفجراً في نهاية المطاف. فقد شعر الموسكوفيون أن النتائج أسفرت عن تجاهل وقح لرأي ملايين المواطنين. ولم يأت المساء إلا وكانت تنعقد لقاءات حاشدة هنا وهناك تطالب بإعلان إضراب سياسي... ولم يكن غورباتشوف نفسه يتوقع هذا التحوُّل المفاجىء للأمور، فأسقط في يده ولم يعد بإمكانه فعل شيء لأنه جرى التصديق على نتائج الانتخابات وانتهى الموضوع.

ولكن حدث ما يحدث دائماً، حين يبرز متطوع فيعثر على حل للخروج من المأزق. وقد برز أ. كازانيك أحد مندوبي مدينة أومْسك الذين اختيروا لعضوية مجلس السوفيات، الذي انسحب لصالحي. كان على مؤتمر المندوبين أن يجري تصديقاً على هذا التغيير. وعندما ارتفعت الأيدي للتصويت رأى غورباتشوف أن الاقتراح ينال الأكثرية فبدت ملامح الارتياح على وجهه.

وهكذا أصبحت عضواً في مجلس السوفيات الأعلى لعموم الاتحاد السوفياتي، وسقطت مسألة بطالتي من تلقاء نفسها. وبعد بضعة أيام انتخبت رئيساً للجنة البناء والعمارة في مجلس السوفيات الأمر الذي أهّلني لأن أصبح عضواً في رئاسة المجلس.

يمكن الحديث مطوَّلاً عن المؤتمر الذي شهد كثرة من وقائع دراماتيكية مثيرة وحادة. وأكرر القول إن البلاد بأسرها شهدت - وأكاد أقول العالم كله شهد - أحداثه كلها.. فالاتحاد السوفياتي يشكل سدس العالم وما يجري فيه لا بد أن يكون مثار اهتمام العالم... ولذا، سأكتفي بهذا القدر من الكلام على هذه اللوحات، مشيراً إلى أن الأمور سارت بعد ذلك في مجراها.

واستمرت دورة اجتماعات مجلس السوفيات الأعلى شهرين، عمدت خلالها إلى تنظيم لجنة البناء والعمارة وسط فوضى كاملة بصدد ممارسة وظائف النيابة. . إذ انعدمت المكاتب حيث يمكننا أن نعمل كما لم نكن نحظى ببناء نستطيع أن نستقبل فيه ناخبينا، فضلاً عن الهيمنة التي مارسها جهاز مجلس السوفيات على النواب أنفسهم. . وبشكل عام تجلّى أمام أعيننا الهرج التقليدي المعروف. . إننا نتعلّم، هانحنذا ترفّعنا إلى الصف الأول في المدرسة البرلمانية الكبيرة، ودوننا زمن طويل - من المخيف أن يفكر فيه المرء - حتى نبلغ الجامعة الكبرى.

ومن أحداث الصيف المشهورة والأساسية إضرابات عمال المناجم التي عمت البلاد بأسرها. فقد انقضى زمن الطبقة العاملة الطائعة المقموعة أو الطبقة العاملة الدمية، وأود من كل قلبي أن يكون زمنها هذا قد ولّى إلى الأبد. لقد برز على الساحة عامل آخر ذو كرامة يحترم نفسه وعمله. ومن الطبيعي يظل هناك أناس متعبون خائفون يشخصون بأبصارهم إلى القيادة برجاء. . وعموماً يبدو أن الرعب قد تغلغل فينا حتى أصبح جزءاً من مُوَرِّثاتنا (جيناتنا). . ولكن كان هناك أيضاً عمال منتصبو الهامات مرتفعو الرؤوس والجبهات يتزايد عددهم يوماً بعد يوم. مثل هؤلاء العمال نظموا لجان الإضراب فلحق بهم الألوف، بل عشرات الألوف من عمال المناجم.

وجاءت ردة فعل موسكو هذه المرة دقيقة وسريعة. إذ لم يمض يومان على الإضرابات حتى كتبت الصحف عن مطالب المضربين بلهجة استفزازية متعجلة كالعادة، ثم فجأة ومن على كل المنابر الصحفية تغيرت اللهجة إلى دعم كامل لعمال المناجم. ومن الطبيعي ألا يتحول الموقف لو أن الإضراب اقتصر على منطقة واحدة. ولكن

نجاح عمال المناجم بالتحرك كتلة واحدة حدّد نجاح الإضراب. وللأسف لم يتمكن ريجكوف وفريقه الجديد من الاستفادة من الوضع الناشيء بصورة كاملة، حيث كان لديه فرصة واقعية كي يقصم ظهر النظام الإداري - الأوامري، ذلك أن السوفيات الأعلى والرأي العام كانا مهيأين لتقبل إصلاحات اقتصادية جذرية. بيد أن ما حدث تجدُّد طرح الحلول الوسيطة والتركيز على حل مشاكل قطاع واحد فحسب.

وثمة أيضاً حدث مهم اشتركت فيه بنشاط، ألا وهو تشكيل كتلة من مندوبي الشعب يمثلون مناطق عديدة.

أعتقد أن يومي ٢٩ و٣٠ تموز (يوليو) ١٩٨٩ سيدخلان في تاريخ تكوُّن مجتمعنا. ففي موسكو، بدار السينما، انعقد الاجتماع الأول لكتلة مندوبين ممثلين لمناطق مختلفة من البلاد.. لقد انهار عصر التفكير الواحد والروح الواحدة. وبغض النظر عن الضغوط الكبيرة التي مورست على نواب الكتلة، حيث لم نعثر على قاعة واحدة بين قاعات الكرملين مفتوحة لعقد الاجتماع، وبغض النظر عما وصمنا به من أوصاف (منشقون، انفصاليون، زمرة، دكتاتورية، إلخ...) فقد تمكنا من الاجتماع.

لماذا كنا بحاجة إلى ذلك؟ لقد اقترب ما يحدث في البلاد من حدود الكارثة، وليس بالحلول والإجراءات الوسيطة يمكن إنقاذ الوضع، بل بالخطوات الحاسمة الجذرية يمكننا الصعود من الهاوية. وكان يكمن في أساس موضوعات كتلة المندوبين المناطقية وبرنامجها ما كنت أعلنته من برامج مع بعض المرشحين التقدميين إبان الحملة الانتخابية. وقد انتخبت الكتلة قيادة من خمس أشخاص هم: أفاناسييف، يلتسين، پالم، پوپوف، ساخاروف.

وبالمناسبة، تجدر الإشارة إلى أن الموضوعات الرئيسية، التي كانت موضع اختلاف بين من سُمّي اليساريون واليمينيون، كانت ضئيلة للغاية. ولعل الرئيسي بينها مسألة الملكية: أي الاعتراف بالملكية الخاصة، أو الشخصية، لأي كان وكما يحلو - وينهار بذلك آخر مدماك أساسي تقوم عليه احتكارية الدولة للملكية وكل ما يرتبط بها - ومن بين المسائل أيضاً مسألة سلطة الدولة واغتراب الإنسان عن عمله الخاص، إلخ... ثانياً، مسألة الأرض وهي لا تقل أهمية عن الفئة الأولى. فشعار «الأرض للفلاحين!» شعار ملحٌّ الآن أكثر مما كان خلال سبعين سنة ونيف. فالبلاد لن تشبع إلا عندما يتملك الأرض مُلّاك. وثالثاً، لا لمركزة السلطات واستقلال الجمهوريات اقتصادياً ونيلها السيادة الحقيقية، وبذا سيكون من الممكن حل المشكلات القومية. رابعاً، إزالة كل المعوقات التي تعرقل استقلالية المؤسسات والمجموعات العاملة اقتصادياً ومالياً وإنتاجياً. فإنعاش الوضع المالي في البلاد يرتبط بتلك التدابير والإجراءات التي ذكرتها منذ قليل، إلا أننا بحاجة أيضاً إلى تدابير مالية خاصة من شأنها وقف انهيار الروبل الشامل.

ولا أريد هنا التوسُّع كثيراً في الموضوع الاقتصادي، ذلك أن لدينا في الكتلة اقتصاديين ممتازين مثل پوپوف وشميليوف اللذين حددا مركَّباً من تدابير سريعة لإنقاذ ماليتنا.

لماذا كنت دائماً واحداً من أولئك الذين ينظرون بهدوء كاف إلى شعارات اعتماد التعددية الحزبية بسرعة؟ لأن مجرد واقع وجود أحزاب متعددة لا يحل شيئاً في حد ذاته. ففي تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الديموقراطية، حتى عهد قريب، كان هناك عدة أحزاب تتقاسم السلطة، ومع ذلك فقد سادت فيهما اشتراكية الثكنات على النمط

الستاليني ـ البريجنيفي بكل تفاصيله، وقد انهارت، ولا أعتقد أن السبب في تعدد الأحزاب. وبالمناسبة فهناك في كوريا الشمالية أيضاً أحزاب عديدة.

يبدو أنه ينبغي علينا أن ننمو باطراد حتى نبلغ نظام التعددية الحزبية الحقيقية الحضارية. وهناك، بعد، ملاحظة واحدة: ليس عندنا حتى الآن تعددية حزبية بالمعنى الصحيح. ولكن أليس من الوهم الاعتقاد أن ما لدينا هو حزب واحد؟.. حزب واحد موحَّد لا يُهزم. ففي واقع الأمر حينما يكون لدينا في الحزب الشيوعي السوفياتي يوري أفاناسييف وفيكتور أفاناسييف، يلتسين وليغاتشيف، مندوب الشعب سامسونوف ومندوب الشعب فلاسوف، أقطاب متضادة من حيث التصرف والموقع، فهذا يعني أننا نسينا تماماً ـ وسط هذه الفوضى في المفاهيم ـ ما هوالحزب. ولهذا فأنا أقترح سن قانون سريع حول الحزب يعتبر الحزب في أحد بنوده جزءاً من المجتمع لا الدولة، وينص كذلك على أن للمواطنين حرية الاتحاد ضمن أحزاب ومنظمات اجتماعية.

وهاكم بُعداً مهماً آخر: العلاقة المتبادلة مع الكنيسة. أعتقد أن ستالين نجح في بناء الدولة الوحيدة في العالم التي أخضعت الكنيسة وأجبرتها على الركوع على ركبتيها، فهي تحاول الآن بصعوبة فائقة العودة إلى وعيها بعد تلك الضربات القاسية التي تلقتها على مدى عدة عقود من السنين. إن حقائق الماضي القريب التي نطالعها في صحافة اليوم ـ مثلاً كيف كان خدام الكنيسة يقدمون التقارير عن نشاطاتهم وتحركاتهم إلى الهيئات الحزبية ولجنة أمن الدولة، أو واقع تسجيل الكاثوليك لدى أقسام الميليشيا ـ إنما تدلل لا على سقوط الكنيسة بل على مرض كل أعضاء المجتمع عندما يكون هذا الأخير

مصاباً بالمرض. هذا، وقد بدأت الكنيسة هذه الأيام تتعافى، وكلي ثقة أنه ستحين اللحظة التي ستنهض فيها لتمد يد العون للمجتمع بما تملكه من قيم إنسانية عامة خالدة، ذلك أن في كلمات مثل: «لا تقتل» و«أَحِبَّ قريبك» أرى مبدأين خلقيَّين سيساعداننا على الوقوف في أدق الحالات وأحرجها.

إن مبدأ حرية الضمير مكتوب في دستورنا، ولكن كيف يطبق في واقع الأمر؟ نحن نعرف الجواب بالتأكيد جداً. وستظل هذه المادة وظيفة في الدستور إلى أن يتم تحقيق الإصلاحات الاقتصادية والسياسية في البلاد، أي إلى أن يصبح الإنسان قيمة المجتمع الرئيسية فعلاً. أما راهناً فالسائد عندنا هو العكس، إذ أن قيمة نظامنا البيروقراطي ـ الحزبي الرئيسية هي الدولة.. التي نخدمها جميعاً. وإنني لآمل، على أي حال، أن أفعل كل ما بوسعي، كي لا تطول خدمتنا أكثر من أشهر أو أسابيع أو أيام معدودة...

أما عن لجنة أمن الدولة «كي. جي. بي» والجيش ووزارة الشؤون الداخلية، فإن كل شيء بالطبع واضح تماماً. فهذه المنظمات الباسلة كانت دائماً عضد الدولة والكيان السياسي. ففي ظل الأنظمة التوتاليتارية يتعاظم دورها أضعافاً مضاعفة. وإن أياً من المنظمات المذكورة لم ينل منها هبوب رياح التغيير، بل إن ما حدث كان العكس، إذ قفز رئيس لجنة أمن الدولة كريوتشكوف إلى عضوية المكتب السياسي الكاملة دون بقائه فترة على درجة عضو مرشح، وذلك بصورة لم يتوقعها أحد البتة. وقد صدم، بالطبع، الجميع وأثار حفيظتهم. إذ لم يكن الأمر يستأهل من قبل غورباتشوف أن يحوِّل إحدى اللجان الحكومية إلى أهم هذه اللجان، وخصوصاً في مرحلة البيريسترويكا والغلاسنوست سواء من منطلق تكتيكي أم من منطلق

التفكير الحكيم. ولكن لا، فالمحرك هو العطش إلى السلطة والخوف من فقدانها أهم من أي منطق وتفكير سليم. إذ يجب أن تظل لجنة أمن الدولة الحارس الأمين على المصالح الحزبية وليبق إذن كريوتشكوف بالقرب، تحت اليدين وبينهما.

إنني أتصوّر أي صراع قاس وصعب يجب أن يخاض من أجل مستقبل الجيش والـ «كي. جي. بي» وأكرر القول إننا لم نخطُ بعد حتى خطوة واحدة في السبيل إلى إصلاح هاتين البنيتين فائقتي الأهمية بين بنى الدولة. ويكاد يكون المرء يأخذ وضعية «التأهب» عن غير وعي لدى سماعه كلمتي «الجيش» والـ «كي. جي. بي»، احتياطاً... إنه الإحساس بالرعب الذي يسكن عملياً قلب كل مندوب.

ولهذا السبب بالتحديد تتجاهل قيادتا الجيش وأمن الدولة بهدوء كامل - وأكاد أقول بوقاحة كاملة - مطالب المندوبين بضرورة تبيان نفقات المؤسستين. وهما، أي القيادتان، لا تزمعان الإعلان عن تفاصيل نشاطاتهما وكيفية قيامهما بالوظائف، التي يصبح دونها الحديث عن تقليصها وتحديد وظائفها والإقلال من وزنها ودورها مجرد حديث فارغ غير ذي معنى.

ما الذي يدفعني إلى الأمل؟ أولاً وأساساً، يدفعني تطور المجتمع نفسه، فمن المفهوم أن الـ «كي. جي. بي.» والجيش سيتخلفان دائماً عن اللحاق بركب التغير والتطور، إلا أنهما سيضطران إلى الإسراع للحاق به تحت تأثير عمليات إعادة البناء الجارية في البلاد. ثانياً، إن هاتين المؤسستين مكوّنتان من أشخاص عاديين، من مواطنين عاديين، فضلاً عن أنهما اخترقتا من قبل أجيال جديدة من الشبان الذين لا يرون في العسكرية الخضوع والطاعة فحسب، فهم ممتلئون احتجاجات ووجهات نظر.

إن إنقاذ الجيش وأمن الدولـة يكمن في الغلاسنـوست والصراحة، وهذا ما سيسعى كل من تعز عليه البيريسـترويكا إلى خـوض النضال لتحقيقـه. أما مـا يتعلق بمستقبـل المؤسستـين فـلا شيء جـديـداً هنـا يتـوجب اختلاقـه. لقـد نجحت البشريـة في صـوغ آليـة العـلاقـات المتبادلة مع الجيش وأجهزة الأمن كي تكون في خدمـة المجتمع وليس فوقه وذلك بإخضاعها إلى الـبرلمان. فـالجيش برأيي، يجب أن يصبـح احترافياً تـطوعياً، عنـدها فقط يمكن أن يتغـيّر نوعيـاً نحو الأفضـل. ولكن هذا، بالمناسبة، من تفاصيل الأمور.

هـا إني قد ابتعـدت عن الحديث المتعلق بـالكتلة المنـاطقيـة. ففي الوقت الذي كان يجتمع فيه مجلس تنسيق الكتلة ـ مسترقـاً الساعـات النادرة استراقاً ـ للعمل عـلى صوغ بـرامج الخـروج من الأزمة، بـدأ هجوم مضاد طال أعضاء الكتلة بالتسفيه والتقوُّل. فقد أشيـع في كل مكـان ـ في الصحف وفي اللقاءات مـع النـاخبـين وفي الاجتـماعـات الحـزبيـة العـاديـة ـ أنهم (أي نحن) يسعـون إلى السلطة ويـريـدون إحلال الفوضى في البـلاد وإقامـة ديكتاتـورية، وأنهم عـابرو سبيـل، مثقفـون بيروقـراطيون، بعيـدون عن الشعب، تمتاز أكـثريتهم بماضٍ معتم غير واضح المعالم. . . ربما بدا كل ذلك مضحكاً وطريفاً، ولكنه كان في واقع الأمر رهيباً.

ومجـدَّداً، إنها ليست المرة الأولى في حيـاتنـا حـين يُسعى إلى وقف عملية الحوار وعمليـة تقابـل الآراء المتخالفـة. إنها ليست المرة الأولى التي يجـري فيها التآمر عـلى عمليات ضروريـة وطبيعيـة في المجتمـع الذي رفض وحدانية الفكر الشاملة الكلية وإبدالها بعمليـات صراعية ضد الشخصيات الحاملة أفكاراً وآراء ومقاربات ديموقراطية.

لقد حدث ذلك في تاريخنـا ولم يجلب للشعب إلا المآسي والعـذاب

والمصائب بلا حصر ولا عدد. وقد آن الأوان ليُفهم أن شعبنا ولحسن الحظ متعدد وغير متجانس، وإن فئاته الاجتماعية المختلفة لها مصالح متخالفة وغير متطابقة.

وآن الأوان أيضاً ليُفهم أن كتلة مندوبي الشعب المناطقية ليست «جماعة من رجال يطمحون للاستيلاء على السلطة»، وإنما هي مجموعة من نواب الشعب تُعبِّر عن مصالح أغلبية المجتمع التي تعتبر أن البيريسترويكا لا تُنفذ في البلاد بالحزم والاتساق المطلوبين، وأن مصائبنا اليوم ليس سببها أننا نريد معالجة الاشتراكية الجيدة بالرأسمالية السيئة. فنحن بكل بساطة، وبعدما اصطدمنا بالصعوبات الأولى في سياق إصلاح الاشتراكية الثكنية - البيروقراطية، لجأنا إلى البحث عن الدواء خارج إطار الطرائق الإدارية - الأوامرية القديمة المألوفة.

ولكن الأمر الرئيسي والأهم قد حصل. فكتلتنا تعمل، وهي تصوغ استراتيجية تطور مجتمعنا وتكتيكه، ولأنها تتضمن أخصائيين مستنيرين في مجالاتهم فلا مفر من أن الشعب سيؤيدها ويسير وراءها.

بعد انتهاء أعمال الكتلة جاءت العطلة البرلمانية القصيرة، وفي منتصف أيلول (سبتمبر) قمت بزيارة أميركا استغرقت تسعة أيام وأثارت ضجة كبيرة.

زرت أميركا بناء على دعوة من عدة منظمات اجتماعية وجامعات وبعض رجال السياسة. بلغ عدد الدعوات خمس عشرة دعوة. وكان مقترحاً أن تستغرق الرحلة أسبوعين، غير أن اللجنة المركزية قرَّرت ألا تسمح لي إلا بأسبوع. ووقع هذا الخبر على رؤوس منظِّمي الرحلة وقوع الصاعقة، فرجوني أن أبذل الجهد لتنفيذ كل بنود البرنامج

الموضوع من لقاءات ومحاضرات ضمن الأسبوع المتاح. تعلمت في المدرسة، وفيما بعد في المعهد، مسلّمة استغلال الإنسان للإنسان في الرأسمالية. والآن فإنني أجرب هذه الموضوعة التي لا جدال فيها مطبقة علي شخصياً. فقد كنت لا أنام أكثر من ساعتين أو ثلاث في اليوم، وكنت أطير من ولاية إلى لأخرى لأجري خمسة أو سبعة لقاءات يومياً، وظللت على هذا المنوال أسبوعاً. ولم أفق من هذا السباق المجنون إلا في الطائرة التي أقلّتني إلى موسكو. وأنا الآن أحلم بزيارة أميركا ثانية حتى تتسنّى لي مشاهدتها عن كثب لا كفيلم سينمائي متتالي المشاهد، ولمعاينة التفاصيل الصغيرة.

كتب الكثير عن زيارتي إلى الولايات المتحدة في صحافتها وفي صحافتنا، لذا لا أرى حاجة في تناول نتائجها الأساسية. فقد تضمّنت العديد من اللقاءات ابتداء من الرئيس بوش وانتهاء بالمواطنين الأميركيين العاديين في الشارع. قد أبدو ربما تافهاً، ولكن أكثر ما أعجبني وأذهلني المواطنون الأميركيون البسطاء الذين يشعّون بالتفاؤل المذهل والإيمان ببلدهم وبأنفسهم.. وطبعاً كان ثمة أمور أخرى مذهلة كالسوبرماركت مثلاً.. رفوفها ملأى بمئات، بل ألوف المرطبات والعلب.. ولأول مرة أحس بالألم والشفقة من وضعنا ووضع بلادنا... أليس رهيباً أن نوصل بلداً جبّاراً وغنياً إلى هذه الدرجة من الفقر والبؤس؟

ووفق الشروط التي أبلغني إياها منظّمو الرحلة، فإنني سأتلقى بدل أتعاب عن إلقائي المحاضرات في الجامعات. وفي اليوم الأخير تبين أنه تراكم لدي مائة ألف دولار بعد حسم نفقات مجموعتنا المكوّنة من أربعة أشخاص. فقررت عندها شراء حقن طبية (تستعمل مرة واحدة) عن طريق المساهمة في «أنتي ـ سبيد»، ولم ينقض أسبوع حتى

وصل موسكو مستوعب يحتوي على مائة ألف حقنة لصالح أحد مستشفيات الأطفال. وكان مجموع ما ابتيع مليون حقنة بالمبلغ كله حتى آخر «سنت».

إنني أروي هذه الحكاية فقط للتدليل على أمر محدد. ففي الوقت الذي كنت أوقّع فيه الوثائق لشراء الحقن، كانت صحيفة «البراڤدا» توزع في موسكو على الأكشاك، وقد تضمن عددها الصادر يومذاك مقالة كانت قد نشرتها - كما زعم - إحدى الصحف الإيطالية عن رحلتي إلى الولايات المتحدة. وقد جاء في المقالة أنني كنت طيلة رحلتي في حال من السكر الدائم، حتى أنه أوردت كمية المشروب التي احتسيتها، ولعله كان من العبث أن ينتظر، من ينتظر في موسكو، وصول حقن الأطفال، لأنني أنفقت المال على شراء أجهزة الستيريو والمسجلات والفيديو وغيرها من الهدايا كالبذلات والقمصان البيضاء والأحذية وغيرها من الأشياء. فأنا لم أكد أغادر المخازن الأميركية! وهكذا صوّرتني «البراڤدا» عملياً - بما زعمت أنها نقلته - كدبٍّ روسي سكير، مدمن، سفيه، وجد نفسه في مجتمع متحضر للمرة الأولى.

كنت أعلم بالطبع أن رحلتي ستثير لدى القيادات العليا ردة فعل سلبية عاصفة، وتوقعت أنني سأكون ورحلتي إلى الولايات المتحدة موضع تشكيك. ولكنني لم أتوقّع، بصراحة، ممّن يضمرون لي السوء أن ينزلقوا إلى هذا الحضيض بغباء ووقاحة.

وجاءت ردّات فعل الموسكوفيين وكثير غيرهم من مواطني البلاد واحدة، إذ انهمرت علي البرقيات بالآلاف تستنكر وتعرب عن دعمها ومساندتها. . . وهكذا لم ينجح الاستفزاز هذه المرة.

ولكن معارضي المجهولين لم يسكن قلقهم ولم يرضهم الوقوف عند هـذا الحد. فبعـد مرور بعض الـوقت عرض التلفـزيـون السـوفيـاتي المركزي - ضمن برنامج «ڤريميـا» («الوقت»)، وهـو أمر نـادر جداً - ريبـورتاجـاً مدتـه ساعـة ونصف عن رحلتي إلى الـولايـات المتحـدة. وكانت الفكرة الأساسية، التي من أجلها لُفِّق الريبورتاج كله، لقـائي بأساتذة معهد هوبكنز وطلابه. وقد رويت قبل قليل كيف تميَّز برنامج رحلتي بـالكثافـة وضيق الوقت مما انعكس علي إرهـاقاً وتعبـاً واضحاً لـدرجة أنني ابتلعت إحـدى الليالي حبتي منـوِّم حتى أغفو جيـداً. . . لأوقظ في السادسة صباحاً، وفي السابعة كـان موعـد لقاء رسمي، ثم في الثامنة اللقاء في معهد هوبكنز. وعندما استيقـظت شعرت بـالوهن وعدم القدرة على الوقوف، فطلبت إلغاء اللقاء. قيل لي إن هذا غـير ممكن وإن الداعين لن يتحملوا ذلك، فقلت يبدو أنني لن أتحمل هذا اليوم. وهكذا، جمعت نفسي الـواهنة تمـاماً وأجـريت اللقاء الأول ثم الثـاني، واسترجعت قـواي في ما بقي من النهـار مـع ذهـاب مفعـول المنوِّم. وهكذا، فمن بـين عشرات اللقاءات لم يعـرض تلفزيـوننا إلا هذا اللقاء على مشاهدينا السوڤيات، ولست أدري من أين استحصل على التسجيل السيء، ولكن يمكنني التكهُّن.

فثمـة تقنيون مختصـون أجروا مـونتاجـاً لشريط الڤيديـو، فكـانـوا يبطئون مشهداً ما حيناً ويسرعون مشهداً آخر حينـاً، وفق المراد، كـما كانوا يمطون بعض الكلمات والحروف، وهـو أمر أبلغني إيـاه مهندسـو الڤيديو العاملون في محطة أوستانكينو، وقد بعثوا برسالة أوضحوا فيها هـذه المؤامرة إلى اللجنـة التي شُكِّلت للتحقيق في التغطيـة الصحفيـة السيئة التي عوملت بهـا رحلتي. ولم يبذل أحـد جهداً لكشف حقيقـة أمر الشريط وراح كل شيء في غيـاهب الأدراج. أما الهـدف الرئيسي

من كل ذلك فقد تحقق: تضليل الناس. ضُلِّلَ عدد قليـل من الناس فكـانوا يقـولـون: يمكن أنـه كـان فعـلاً مخمـوراً؟. . . ولم أعتـبر من الضروري أن أفسر أو أبرر.

كان ذلك بالنسبة إلي درسـاً آخر. لا يجـوز لي أبداً أن أتـراخى أو أضعف ولو لدقيقة واحدة أمام هذا النظام الذي يكـرهني ويحصي علي خطواتي ويتصيَّد كـل حركـة من حركـاتي. ولو علمت أنني، وأنـا في قارة أخرى، موضوع تحت الـرقابـة حتى في نومي، لمـا كنت. . وماذا تنفع هذه الـ «لما كنت»؟، لما كنت ابتلعت حبة منوم واحدة؟. ولكن لا، لم أكن لأتحمَّـل أن لا أنام. هـل كان يجب الاعتـذار عن إجـراء اللقاء؟ وهذا أيضـاً لم يكن ممكناً. كـان يجب ألا أرهق نفسي في رحلة مكثفة البرنامج. . بكل بساطة. عبرة للمستقبل سأراعيها.

وحان موعد الحادثة التالية! وقد كان وقعها موجعاً، ولم تكن سوى مؤامرة خالصة منظمة ومخطط لها مسبقاً.

إثر لقاء بناخبيَّ توجَّهت إلى صديق قديم من سفـيردلوفسـك يقيم في بيت ريفي بقـرية أوسلينسكـوييه وهي من قـرى المنطقـة المحيـطة بمـوسكو. وقبـل وصولي إلى البيت بحـوالى مـائـة مـتر أذنت للسـائق بالرحيل، كما أفعل عادة حيث كنت أؤثـر السير عـلى الأقدم. رحلت السيـارة (الفولغـا) ولم أَخْطُ بضعـة أمتـار حتى ظهـرت ورائي سيـارة أخرى. و. . . وجدت نفسي أسبح في النهر. . وإني هنا لا أنساق مع العاطفة كـوني بقيت في تلك اللحظة عـلى قيد الحيـاة، فلهذا حكـاية أخرى تماماً.

كانت المياه باردة جداً. كادت رجلاي أن تتجمَّدا، أذ كنت بالكاد أستطيع تحريكهما سباحة نحو الضفة التي لا تبعد سوى أمتار. وما إن

وصلت إلى اليابسة حتى انهرت وبقيت على هذا النحو بعض الوقت أحاول التقاط أنفاسي. وعندما نهضت جعلت أنتفض من لسعات الهواء البارد الذي لا أعتقد أن حرارته بلغت أكثر من درجة صفر مئوية. وأدركت أنني لن أستطيع بلوغ البيت وحدي فعرّجت على مخفر للميليشيا قريب.

وعرفني شبان الميليشيا على الفور، فلم يعمدوا إلى طرح أي أسئلة لأنني قلت لهم للتو أنه لا ضرورة لإشاعة النبأ. وكنت أسائل نفسي، فيما أرتشف الشاي منتظراً حتى تجفّ ثيابي قليلاً: أي حد بلغوه؟ ولكنني لم أقدم شكوى في المخفر. ووصلت بعد قليل زوجتي وابنتاي لاصطحابي، ورجوت شبان الميليشيا مرة ثانية ألا يشيعوا الخبر.

ولكن، لماذا قرّرت التعتيم على الموضوع؟ لقد تراءت لي ردة فعل الناس الذين يتحمّلون المؤامرات المحاكة ضدي بصعوبة وفراغ صبر، بحيث لن يستطيعوا تقبل هذه الواقعة التي هدفت إلى تصفيتي جسدياً. فقد كان من الممكن أن تُضْرب مدينة زيلينوغراد، وفيها أكثرية المؤسسات الدفاعية والإليكترونية والعلمية، احتجاجاً لتلحق بها سفيردلوفسك ـ وفيها مؤسسات مماثلة كثيرة ـ ونصف موسكو على الأقل. . . وستكون النتيجة إعلان حالة الطوارىء في تلك المؤسسات الاستراتيجية بسبب الإضرابات، مما سيشكل تربة خصبة لبدء فرض «النظام الأبدي والمثالي». وينجم في نهاية المطاف أن البيريسترويكا «سبتلغ نهايتها بنجاح» لمجرد أن يلتسين أذعن للمؤامرة وانساق معها.

قد يكون من الممكن أنني لست محقاً. ومن الممكن أن مبدأي القائل بإعلان الحقيقة دائماً أياً كانت وأينما كان على الناس لم يكن ليخونني هذه المرة. وهذا هو بالتحديد ما كان يذهل ناخبيّ: إنني

أخفي شيئاً ما . . .

ومـع ذلك، فقـد كنت أعتقد أن النـاس سيفهمون كـل شيء من تلقـاء أنفسهم، وقد ازداد هـذا الاعتقاد رسـوخاً عنـدما أعلن وزيـر الداخلية باكاتين أثناء دورة اجتماعات مجلس السـوفيات الأعـلى أنه لم تجر محاولة لاغتيالي، فساق معلومات ملفّقـة في محاولـة لإثبات ذلـك. ولسبب ما ضلّل باكاتين النـاس حتى في المواقـع التي كان يسهـل جداً تحري الحقيقة والوقائع. فقد قال مثلاً أن المقـذوف به من عـلى الجسر إلى النهـر لم يكن لينجـو بـل إنـه كـان سيتحـطّم حتـماً، حيث يبلغ الارتفاع ١٥ متراً. أما في الواقع فارتفاع الجسر لا يزيد عن ٥ أمتار، وحتى يبدو كلام الوزير صحيحـاً فلا بـد من إنشاء جسر جـديد يعلو الجسر الراهن بعشرة أمتار، وهذا الأمر لا يريد أحـد القيام بـه، حتى ولو كان القصد تسفيه يلتسين وتحطيمه.

وبشكل عام كان لدي ثقة بأن الناس سيحسون بالكذب في كـلام وزير الداخلية ومساعديه ويدركون ما حصل لي، كما سيفهمون الأمـر الرئيسي حين قلت في الدورة نفسها إنه لم تكن هناك محاولة اغتيال.

ومع ذلك، يجب الاعتراف بإخلاص أن الاستفزاز آنذاك نجح . . فقـد أنبأني أعـواني والرعب يمـلأهم أن شعبيتي مُنيت بهبوط شـديد. فعلى هذه الـتربة الخصبـة سرت شائعـات تفيد أنني كنت متـوجهاً إلى البيت الريفي الذي تقطنه عشيقتي، التي أفرغت علي لسبب ما الدلـو بمـائـه! . . . والنـاس عـلى استعـداد دائـماً لتصـدق المختلَق. . فمن الأسهل أن تصدق من ألّا تصـدق. . ها هـوذا البيريسـترويكي عشق فأطار العشق عقله . . .

وبرغم كل شيء، وكما يقول علماء الاجتماع الأذكياء، فقد تعاملت

بهدوء شديد مع هبوط مستوى شعبيتي، إذ كنت موقناً أن كل شيء سيعود إلى مكانه ولن يكون بإمكان الكذب أن يحول الناس عن تأييدي طويلاً. فما يُقوِّم في نهاية المطاف المسائل الواقعية والنتائج الملموسة لا الإشاعات ولا الاختلاقات الكاذبة.

وبعد سباحتي القسرية في مياه النهر الجليدية بنحو أسبوعين أصبت بنزلة برد شديدة، ولذا فقد تابعت جزءاً من أعمال الدورة على شاشة التلفزيون. وكما اتضح فقد أصاب المشاهدين حزن كبير وخيبة أمل. فهم يعلمون أي وضع حاد تعيشه البلاد، وكم من المهم اللجوء إلى تدابير سريعة تنقذها من الأزمة المستشرية، وكيف أنه ما تزال هناك بعد فرصة لانتشالها من الهاوية.. ولكن الدورة المنعقدة لم تتخذ أي قرار حاسم، حيث تم تأجيل إقرار بعض القوانين الجذرية الأساسية إلى أجل غير مسمًّى.. ونحن نتوغل في اتجاه نقطة إذا بلغناها فلن تنقذنا منها أجرأ القوانين وأكثرها تقدمية.

وإني لأذكر كيف تصدَّى يوري أفاناسييف بحدة ومنهجية في أول اجتماع لمندوبي مؤتمر الشعب، فوصف مجلس السوفيات الأعلى المنتخب بأنه ستاليني - بريجنيفي حقاً. ومع احترامي الكبير له فإنني لا أوافقه على هذا الوصف. فمجلسنا السوفياتي الأعلى ليس ستالينياً - بريجنيفياً فهذا الوصف تعظيم له، أو قل عكس ذلك، إنه على الأرجح مجلس غورباتشوفي. فهو - أي المجلس - يعكس بالكامل شخصية رئيسنا لجهة عدم الاتساق والخوف وحب أنصاف الحلول وأنصاف القرارات. فمعظم الخطوات تأتي متأخرة عن وقتها كأنها ردات فعل على الأحداث الواقعة.. إنه كرئيسنا.

ولهذا السبب تحديداً لم يفلح مجلس السوفيات الأعلى عملياً في حل أي من المشكلات المطروحة أمامه. حتى تلك القوانين التي حُضِّرت

ونوقشت في اللجان ـ كقانون الصحافة وغيره من القوانين التي تلبي التزاماتنا السياسية تجاه اتفاقية ڤيينّا، عنيت قانون الخروج والدخول من البلاد وإليها ـ فقد أرجئت ولم تقر.

بعد انتهاء دورة الخريف، وبما يشبه العبرة التي ينبغي لنا أن نتعلم منها، انهارت الاشتراكية التوتاليتارية، التي أقامها ستالين عقب الحرب، في ثلاثة من البلدان الاشتراكية. وبما يشبه أيضاً السخرية والضحك على سنوات أربع من الپيريسترويكا في بلادنا، انتقلت خلال أيام معدودة كل من جمهورية ألمانيا الديموقراطية وتشيكوسلوڤاكيا وبلغاريا من مجتمع الماضي إلى مجتمع طبيعي إنساني متحضر.. بحيث لم يعد واضحاً، الآن، هل سنتمكن من اللحاق بها يوماً ما؟

تحطيم جدار برلين، قواعد جديدة للخروج والدخول، قوانين المطبوعات والمنظمات الاجتماعية، إبطال المواد الموجودة في الدستور عن الدور القائد للحزب الشيوعي، استقالة اللجنة المركزية، عقد مؤتمر استثنائي للحزب، إدانة اجتياح تشيكوسلوڤاكيا كل ذلك كان يجب أن ينفذ منذ أربع سنوات، وبدلاً من ذلك راوحنا مكاننا وأصابنا الرعب، فكنا نخطو خطوة إلى الأمام لنعود خطوتين إلى الوراء.

إنني سعيد جداً بما جرى من تغيُّراتٍ عند جيراننا من البلدان الاشتراكية.. وإني لسعيد لهم.. ويخيَّل إلي أن هذه التغيرات ستجبرنا على إعادة تقويم ما نطلق عليه بفخر الپيريسترويكا. وسندرك قريباً أننا بتنا عملياً الدولة الوحيدة في العالم التي تحاول دخول القرن الواحد والعشرين بإيديولوجيا منتمية إلى القرن التاسع عشر، إيديولوجيا عاشت حياتها وانتهت. وقريباً سنصبح آخر سكان

لبلد انتصرت فيه الاشتراكية علينا، كما قال أحد الأشخاص الأذكياء!

. . . وهاكم آخر أحداث وقعت. ثمة شائعات تسري في موسكو تقول إن دورة اللجنة المركزية المقبلة ستشهد انقلاباً، إذ أنهم يريدون خلع غورباتشوف من منصبه كأمين عام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي وإبقاءه رئيساً لمندوبي الشعب. إنني لا أصدق هذه الشائعات، ولكن إذا كان هذا ما سيحصل فعلاً فإنني سأخوض نضالاً لا هوادة فيه للوقوف بجانب غورباتشوف في دورة اللجنة المركزية. . . نعم الوقوف بجانبه، وهو معارضي الدائم، عاشق أنصاف الخطوات وأنصاف التدابير وأنصاف القرارات. إن تكتيكه هذا سيقضي عليه إن هو لم يتدارك الأمر، بالطبع، ويفهم أنه يشكل خطأه الأكبر. ولكن، الآن، وحتى انعقاد أقرب مؤتمر يمكن أن تبرز فيه قيادات جديدة، يبقى هو الشخص الوحيد الذي يمكنه الإمساك بالحزب ومنعه من الانهيار الكامل. من المؤسف أن اليمينيين لا يفهمون هذا. فهم يعتبرون أن بوسعهم إعادة التاريخ إلى الوراء بواسطة تصويت ميكانيكي يتم برفع الأيدي. ولا ريب أن دوران الشائعات إياها لا يخلو من الدلالة، وبلادنا الواسعة الهائلة تتأرجح على حد السيف، ولا أحد يعرف ماذا سيحدث فيها غداً.

ولعل وضع قارىء هذا الكتاب أسهل من وضعي وأخف وطأة، فهو يعرف ماذا جرى غداً وأين أنا وماذا حصل لي.

إنه يعرف ماذا حلَّ بالبلاد، وماذا حلَّ بنا جميعاً. . .

الفهرس